يوسف سامي اليوسف

تلك الأيام

الجزء الثالث

الإهداء

إلى أمل

إن كان هذا الكتاب يصلح ليكون
زُلفى أتزلف بها إلى أمل.

نظرت، فإذا النظر في أحوال البشر وأوضاعهم ومصائرهم هو أشرف آناء التأمل الصافي والتدبر العميق

يوسف

الفصل الأول
تمهيد

انتهى الجزء الثاني من هذا الكتاب عند انتصاف عقد السبعينيات من القرن العشرين. وفي تلك البرهة بالضبط يبدأ الجزء الثالث الذي سوف يغطي المدة المتبقية كلها. وتتميز هذه الآونة الأخيرة على المستوى الشخصي بعدة صفات، أهمها الكتابة والسفر والاستقالة من التدريس، أو الخلاص منه، في الأول من حزيران سنة 1992، وبعد خدمة دامت ثلاثين سنة، ثم الولوج في طور التقاعد الممل، إذ لولا القراءة والكتابة لأنهكني السأم ومكابدة الخواء.ولقد كرّست نفسي على هذا الكتاب الراهن بأجزائه الثلاثة منذ سنة 2002، أي خصصت له السنوات الخمس الأخيرة بأسرها، وحرصت الحرص كله على أن يجيء بمثابة شرح واف لشعوري تجاه ما يجري في هذا العالم منذ ولادتي حتى اليوم، أي طوال سبعين سنة على وجه التقريب.

أما على الصعيد الشامل، فإن فورة النفط هي أبرز صفات هذه الفترة الكثيرة الزلازل والهيجانات. كما أنها شهدت انهيار الاتحاد السوفياتي، واحتدام الصراع في منطقتنا بين الإمبريالية والصهيونية، من جهة، وبين الشعوب، من جهة أخرى، إذ تفاقمت شراسة الصهاينة أو همجيتهم الوحشية، فصارت إبادة الفلسطينيين حادثاً يومياً مألوفاً مثل شروق الشمس. كما افتحلت البربرية الإمبريالية في العراق منذ سنة 1991، ولا سيما أثناء السنوات التالية للغزو الذي قامت به جيوش كثيرة المصادر، وعلى رأسها جيوش الناطقين باللغة الإنجليزية كلغة أولى، والذين هم ألدّ خصوم العرب والإسلام.

وفي قلب هذا الهيجان الفظيع كثرت المجازر في الطور الجديد الذي يتنفس من النفط ومشتقاته الكثيرة. ولم يتوقف أمر هذه المجازر على فلسطين والعراق، بل تعداهما إلى بلدان كثيرة أخرى في العالم، حتى صارت الأرض كلها بمثابة كربلاء موحشة، أقصد أنها أحيلت إلى مسلخ كبير يذبح فيه البشر كما تذبح المواشي دون أن يتململ أحد من أهل الربط والحل، أو من القابضين على زمام الأمور.

وأدمن الناس هذه الحال حتى لم يعد مشهد الضحايا على شاشة التلفزيون يستطيع أن يحرك وجدان أحد. ومما هو مقبول في هذه الأيام أن العرب قد ولجوا إلى برهة انعدام الوزن، بحيث صاروا يترنحون أو ينوسون بين ماض غابر ومستقبل مطموس مقفل، أو حتى بغير أبواب. ولهذا فإن المقولات الكبرى الجليلة، بل الأكثر قداسة بينها كلها، أعني الوطن والحرية والعدالة، ما عادت تجتذب المواطن كثيراً، وذلك لفرط تعرضه للامتهان والتدجين. فقد ظلوا يضربونه على رأسه حتى صار هلاماً رجراجاً عديم القدرة على التماسك والصمود. فمما لا يخفى على أحد أن النذالة قد تكتلت في كل مكان وأمسكت بناصية الأمور، وراحت تستبد بالناس وتبطش بهم على هواها، بل دون وازع أو رادع يحول بينها وبين اقتراف إثم الاضطهاد. ولم أشاهد كالأغبياء أناساً يتمتعون بالقدرة على الائتلاف والانخراط في المنظومة إذا كان من شأن هذا الوئام أن يخدم مصالحهم ويحقق مآربهم.

*   *   *

وإني لأرتاب بالهجومين اللذين قام بهما العراق ضد اثنين من الأقطار المجاورة له تماماً، وأولهما إيران وثانيهما الكويت، وكل منهما ينبوع يتدفق منه النفط بغزارة. ويبدو لي أن الهجوم الأول يهدف إلى فصل العرب عن العجم والسنة عن الشيعة، وذلك اتباعاً لسياسة "فرّق تسد". أما الهجوم الثاني فغايته إعطاء الإمبريالية ذريعة للتدخل في شؤونه الداخلية، وذلك ابتغاء تجزئته، لأنه ينطوي على تهديد مضمر للإمبريالية والصهيونية في المستقبل البعيد. إنه عراق النفط الذي سوف يظل يتدفق طوال السنوات المائتين القادمتين.

ومما هو صادق في ذهني أن الغربيين يتحرشون بالعالم الإسلامي عن سابق عمد وتصميم، مع أنه مستخذ وخانع خنوع النعاج في المذبح، وذلك انطلاقاً من مبدأ خلاصته أن الهجوم هو خير طرائق الدفاع. وفضلاً عن هذا، فإنهم يشتغلون وفقاً لمبدأ الممكن والمحتمل. فها هم يضربونه على رأسه بشدة كي يصير إلى حال الترنح، أو كي لا يخرج من تلك الحال بتاتاً. وعندئذ يذعن

لإرادتهم الابليسية، ويظل عاجزاً عن التصدي لهم، أو الحؤول بينهم وبين ثروته النفطية التي لا تعادلها أي ثروة نفطية أخرى في العالم كله. فالساسة الغربيون يعتقدون بأن سكان العالم الإسلامي يجب أن يظلوا تحت المطرقة باستمرار، وإلا فإنهم سوف يعملون على استخلاص نفطهم من براثن الإمبريالية والصهيونية.

ولقد راح الساسة الغربيون يصطنعون المسوغات التي تقدم لهم من الذرائع ما يتخذونه أرضية للهجوم المسلح على البلدان الإسلامية. فحادثة الحادي عشر من أيلول قد نفذتها، دون أدنى ريب، أجهزة السلطة الأمريكية نفسها، وذلك ابتغاء الهجوم على أفغانستان من أجل القضاء على الحكومة الإسلامية التي كانت قائمة هناك، إذ من المحال أن تصعد أية أسلحة إلى متن أية طائرة دون علم السلطة وموافقتها. وكل حادثة من الحوادث التي يزجون بها في فصيلة "الإرهاب" هي شيء تصطنعه الإمبريالية أو تهندسه أجهزتها في سبيل هدف من الأهداف، ولا سيما إقناع المواطن في الغرب بأن الإسلام هو "البعبع" الذي سوف يلتهمه في غلس الليل. ثم إن هذا الصنف من أصناف الأفعال الإرهابية هو شيء من سوس الشخصية الأمريكية التي تجسد همجية لا تضاهيها الهمجية الرومانية أو الآشورية. فحيثما كان هنالك إفراط في سفك الدماء البشرية كان الأمريكيون حاضرين جهراً أو سراً.

وبإيجاز، ينبغي أن يظل المواطن في العالم الإسلامي مطروحاً أرضاً وعاجزاً عن الوقوف على قدميه. فما اخترعوا مقولة "الإرهاب" إلا لغرض واضح خلاصته أن ينهبوا نفط العرب الذي يأخذونه بسعر الفجل.

ومما هو ناصع نصوع النهار أن السلطة في الغرب تبذل قصارى جهدها لاستنفار المواطن هناك، تماماً مثلما كانت تستنفره إبان الحروب الصليبية. فهي تشحنه بالحقد الأسود وتوغر صدره ضد هذا الدين، وذلك كي تنال موافقته على الفظائع التي تقترفها في أفغانستان والعراق، ثم كي تستدرجه بسلاسة إلى الوقوف بجانب الصهاينة المجرمين وضد الفلسطينيين الذين يناضلون عن آخر شبر من بلادهم المغتصبة.

وليس بخاف حتى على الأطفال أن التحدي أكبر من الاستجابة، أقصد أن أداء العالم الإسلامي واهن لا يرقى البتة إلى المستوى المطلوب. ولعل السبب في ذلك أن السلطات في البلدان الإسلامية كافة تخدم الإمبريالية كما تخدم العبيد أسيادها. وقد يتمكن المرء، إذا ما تأمل وتفطن، أن يلمح الفرق الكبير بين شعوب آسيا الشرقية وشعوب آسيا الغربية. فالأولى، وهي اليوم آصل من الثانية، قد روّضت وحش الإمبريالية وأحالته إلى قط داجن، أما الثانية فقد استكانت ورضخت رضوخ من لا حول له ولا طول. فما نحن إلا حكومات خائنة وشعوب تداس رقابها دون أن تنبح أو تموء.

ثم إن لهذه المرحلة الراهنة صفات كثيرة أخرى تميزها عما سبقها من مراحل التاريخ كلها، ولعل التفجرات السكانية التي حدثت في العالم، فجعلت الأرض تمتلئ بالبشر حتى درجة الاكتظاظ، أن تكون أبرز هذه الصفات. ولقد تزاملت فورة السكان هذه مع فورة النفط ابتداءً من سنة 1972 تقريباً. فمما هو بديهي أن تفجر السكان ما كان له أن يتم لولا تضخم الإنتاج الاقتصادي الذي هو الحامل الأكبر للحياة البشرية. كما أن هذا التضخم نفسه لا يسعه أن يجيء لولا تفور النفط الذي زوّد الاقتصاد بالطاقة اللازمة لنموه، والذي طور التقنيات إلى حد يشبه السحر، ولا سيما في مضمار الاتصالات وثورة المعلومات.

ولعل في الميسور أن يقال بأن هذا الطور التاريخي يتصف بثلاث صفات كبرى، وهي المجزرة وتضخم السكان وتضخم المال والإنتاج. ولا يجوز للمرء أن يأخذ ظاهرة واحدة من هذه الظواهر نفسها ويجعلها سبباً للظاهرتين الأخريين. ومما هو مقنع جداً أن بين تضخم السكان وتضخم الإنتاج صلة دائرية أو تشارطاً متبادلاً يجعل كلاً منهما سبباً للآخر ونتيجة في آن واحد.

*   *   *

ولكن الأمر الذي يؤسفني أشد الأسف، بل يستثير حنقي على هذا العالم أكثر من سواه، هو أنني لا تأثير لي البتة على مجرى الأمور، سواء بواسطة

الكتابة، أو بواسطة العمل والسلوك. فلقد نحاني الواقع جانباً حتى لكأنني اللاشيء حصراً. ومما يجعل نفسي تغثى، أو توشك على الولوج في برهة الإغماء، أنني أرى أناساً بلا ثقافة ولا ذكاء يؤثرون في واقع الحياة المحلية والإقليمية والعالمية إلى هذا الحد أو ذاك. وكثيراً ما أسأل نفسي عن سر هذا الذي يجري حين أرى الناس يقيمون أعراساً للخصيان.

وعلى أية حال، فقد لبت كثيراً على النفائس، ونقبت عنها في كل ما هو كائن، ولكن دون أن أحصل على أي مردود. وبما أن الواقع ضحل إلى الحد المزري، إذ ثمة مد كمي وانحسار كيفي، فإن الإنسان سوف يجبر نفسه على أن يلتزم بما ينبغي أن يكون بدلاً مما هو كائن. وهذا هو القدر الموضوعي للوعي البشري الذي يبحث عن الأفضل دونما انقطاع.

ولكن الوعي الأصلي هو وعي البؤس، وحيثما غاب وعي البؤس غاب الوعي كله، وذلك لأن وعي البؤس هو إدراك النقص أو الحاجة إلى ما هو ليس بموجود. وهذا أمر من شأنه أن يحث المرء على الفاعلية والتوجه باتجاه الأفضل دوماً. والناس بؤساء، ولكن معظمهم لا يعلمون. والذين يعلمون هم الحساسون الذين يتلمسون واقعهم بشكل تلقائي. وأما الذين لا يعلمون فهم البلداء أو المصابون بإغماء لا إفاقة منه إلا إذا هزهم حادث خطير.

ويتلخص وعي البؤس بهذا السؤال الذي أراه أكبر الأسئلة طراً: لماذا كانت هنالك تعاسة ولم تكن هنالك سعادة (مع الإقرار بوجود سعادة جزئية أو آنية)؟ أو بهذا السؤال: ما الجداء من الشدقاء البشري، وهل من غاية سوف يفضي إليها، ولو بعد مئات السنين؟ أو كما قال المعري:"أي المعاني بأهل الأرض مقصود؟" ويبدو لي أن الذهن البشري مقدر عليه، بحكم طبعه الخاص، أن يطرح أسئلة لا يملك أن يجيب عنها بتاتاً. وعندي أن الذي نحتاج إليه هو فلسفة حياة تنقب داخل الما يعاش بالفعل، وليس داخل التجريد الأجرد المكدود الذي يظن صاحبه أن العمق هو تعكير مناخ اللغة، إذ العمق هو اللغة القصوى الصالحة لشرح الشقاء حصراً.

ومما هو شديد الجلاء أن البؤس صنفان: وجودي وتاريخي، وكلاهما ينتسب إلى مملكة الشمول. ولكن الثاني أهم من الأول بكثير. ولهذا، فإن بؤس

التاريخ، أو البؤس الناجم عنه، هو ما قد أوليتـه جـل اهتمـامي، ودفعـت بـه إلـى المقام الأول في هذا الكتاب. بيد أن ما قدمته هو، فـي ظنـي، تـاريخ مـن الـداخل وليس من الخارج، أعني أنه التاريخ كما تراه الذات أو الوجدان، وليس كما يراه الـذهن المحايـد البـارد، أو الموضـوعي. إنـه تـاريخ تكتبـه الذاتيـة فـي زمـن الموضـوعية العلميـة المفـرط فـي نزوعـه نحـو ترسـيخ المسـافة بـين الـذهن والأشياء. فلقد أسرف عصرنا الراهن في تحييد الشخصي والوجداني الـذي هـو الإنساني على الأصالة، ثم الإعـلاء مـن شـأن الـذهني أو الخـارجي حتـى باتـت الثورة الروحية الاستئصالية هي الحاجة الأولـى لإنسـان العصـر الحـديث علـى مدى العالم بأسره.

ومهما يك جـوهر الأمـر، فـإن تفتيشـي الـدائم عـن قيمـة عليـا التـزم بهـا التزاماً نسكياً أو ديمومياً يشبه التزام الزاهد بعقيدة دينية راسخة، وأتخذها شمسـاً تنير حياتي بأسرها، أو قمراً بدراً يبدد هذا الظلام الـدامس المتخثـر كـالهلام، قـد دفعني إلى الإيمان بحزمة من المبادئ أراها ركائز للسلوك إذا ما أراد المـرء أن يصون ماهيته البشرية من الاستحالة إلى الصفة البقرية:

أولاً – إن العالم ليس على ما يـرام. ويبـدو أن الغـربيين الـذين يظهـرون على شاشة التلفزيون سعداء وأصحاء ومبتهجين، هم في حقيقتهم أناس بلداء إلى حد بعيد، ولو لا بلادتهم التي تشكمهم كثيـراً لتحركـوا مـن أجـل تحسـين العـالم، وذلك لأنهم الطرف الأكثر قدرة على الفاعلية في هذه الأيام.

ثانياً – إن الفرق بين العالم كما هو الآن وبين العالم كما ينبغـي أن يكـون هو فرق شاسع البـون. فالعـالم فـي وضـعه الـراهن لا يتمتـع بالقواعـد التـي مـن شأنها أن تصنع له هوية مرضية، ولهذا فإنه مقلقل، بل هو يميد أو يتزلزل، لأنه لا رواسي له تقريباً. فلا يملك عالم المـال والأسـلحة إلا أن يكـون مضـطرباً، أو شديد التخلخل. أما العالم المطلوب فينبغي أن يتمتع بحـد لا بـأس بـه مـن الثبـات ورسوخ الأسس ومتانة القواعد. فكثرهم الذين يشـعرون بـأن الحيـاة قـد خسـرت عذوبتها وسلاستها أو خلابتها التي كانت لها في سالف الأحقاب.

ثالثـاً – إن همـوم العـالم، أو الإنسـانية برمتهـا، يجـب أن تكـون همـومي الخاصة. وعلى كـل امـرئ فـي العـالم أن يصـير ضـمير الجـنس البشـري، وأن

يدرك ما فحواه أنه ما من تحرر جزئي بتاتاً. فإما أن تتحرر الأمم كلها وإما أن يرسف الجميع في العبودية، وإن تكن متفاوتة المستويات. ولئن لم أكن مهموماً بالهم الكلي فلن تكون لي أية قيمة أصلية، مهما تك طفيفة الشأن. ولكنني لن أبلغ إلا إلى حيث رخص لي، وذلك لأن الأوامر التي يصدرها طبع الأشياء مبرمة وتجهل أي نقض.

رابعاً – إذا لم أستطع أن أخلص البشرية من بؤسها الذي يغمسها حتى سمت الرأس، فإنني سوف لن أزيدها بؤساً أو تعاسة مهما تكن الدوافع والأسباب. ففي مذهبي ومعتقدي أن الاحجام عن صنع الشر يدخل في دائرة الخير حقاً. ويلخص المعري هذا البند الرابع أحسن تلخيص حين يقول:

فكونك في هذي الحياة مصيبة　　　　يعزّيك عنها أن تبُرّ وتُحسنا

لكم أنت إنسان أصلي وناج من لعنة التزوير، يا أبا العلاء.

خامساً – إن الإنسان الإخائي الطيب، أو المبّرأ من كل خبث، والملتزم بالمبدأ الإنساني بحيث لا يتخلى عنه مهما تكن الأسباب، هو وحده الإنسان على الحقيقة والأصالة، وإن الطيبة هي الفضيلة الأولى، أو المقولة السيدة في المعجم البشري كله، بل لعلها أن تكون سنام الأخلاق أو جمّاعها جملة. وعندي أنها أشرف فضيلة بين الفضائل بأسرها. ولا أحسب أن أرسطو قد حالفه السداد حينما قرر ما فحواه أن التفكير النظري هو أشرف الفضائل، لأنه يجعل الحقائق الخالدة موضوعه الوحيد. ففي الحق أن الفكر النظري قابل للاكتساب بواسطة التعلم والتعليم، أو بالتدريب والممارسة. أما الطيبة فهي هبة من قوة الابتكار الخلاقة، وأثر التعليم فيها طفيف المقدار، لأنها سمة وثيقة الصلة بالطباع. ولعل أول مضامينها أن الإنسان غاية لا يجوز الهبوط بها إلى مستوى الوسيلة أو الأداة بتاتاً، أيةً كانت الذرائع والظروف التي قد تحاول أن تسوّغ مثل هذه الإهانة النكراء.

وبمبدأ مثل هذا المبدأ يمكن للفلسطيني – في صراعه الطويل ضد الصهيونية – أن يتميز عن اليهودي إلى حد لا لقاء بعده. فبينما لا يؤمن

اليهودي إلا بيهوديته وحدها، فإن على الفلسطيني أن يؤمن بإنسانية شاملة. وهذا هو الوصف الذي مَيّز السيد المسيح عن اليهود في الأزمنة القديمة. وبذلك يصير الفلسطيني من شيعة الجليلي النبيل. ولا يضير النقاء أن يكون مهزوماً أمام القذارة في زمن التلوث والإيدز والأسلحة الاجتثاثية.

ولعل في ميسور المتأني أن يلاحظ ما فحواه أن الناس صنفان، وبينهما وسائط: صنف مغترب وآخر متشيء، أو صنف حساس وآخر يشبه الجمادات. أما الصنف الأول، وهو الأرقى، فإن له العشق والذكاء والمعرفة، وتستقر الطيبة في أُس شخصيته الغنية بالألطاف. وكثيراً ما يأتيه البؤس من غزارة التجلي الروحي في فضائه الداخلي الخاص. وأما الثاني وهو المتضع الذي لا يتلهب ولا يتوقد، فإن له الشبق والغباء والجهل وما يتسلى به من أعراض هذه الدنيا القاحلة وقشورها الناشفة. ولعل اللامبالاة بعظائم الأمور أن تكون أبرز مثالب ذلك الصنف الشبيه بالأشياء. ومن شأن اللامبالاة أن تضع النفيس والخسيس على قدم المساواة، أي أن تذيب الجوهر في اللاقيمة أو في اللافرق الذي من شأنه أن يجعل كلاً من العالي والخفيض متماثلين تماماً.

ثم إنني أتساءل: ترى، ما قيمة حياة لا تستحق أن أموت من أجلها؟ إن حياة لا تستحق أن أموت من أجلها لهي حياة لا تستحق أن تعاش. وهذا يعني أن من واجبي أن أرحل صوب العدم لكي أتخلص منها، وذلك لشدة احتياجها إلى القيمة أو إلى النفاسة والمحتوى الأصيل.

ولن يفوتك ما فحواه أن الحياة على الدوام فريسة لأولئك المترسملين الذين قلّ أن يضحكوا أو يبتسموا، بل الذين هم في الغالب عابسون أو مقطبو الجبين ولا وظيفة لهم سوى أن يلوثوا ملاءة الصباح الناصعة كالثلج. ولهذا، فقد كان الصوفيون على حق عندما وصفوها بأنها جيفة أو مزبلة.

*　　*　　*

ما أردت أن أبينه عبر هذا العرض الوجيز لصفات الواقع يتلخص في أن العالم، الذي يحوزه القراصنة ورعاة البقر، لا يصلح أن يكون مضافة للروح، وأن الروح غريب في هذا الواقع غربة النخيل في الأراضي القطبية، أو كما يقول السياب: "يا غربة الروح في دنيا من الحجر." وفي تقديري أنه ما من إنسان حساس إلا وهو قادر على تعرية الحياة ورؤية عورتها، بل النظر إليها جملة من حيث هي سوأة نكراء ليس من شأنها أن ترضي إلا من كان قميئاً أو متوسط القامة وحسب.

ولكن أبرز ما أود قوله هو أن الجنس البشري بطرفيه، الناهب والمنهوب، غارق في العار حتى سمت الرأس، فالأول يعاب لأنه عدواني أو فتاك، والثاني يعاب لأنه يسكت على وضعه الشائن، أو لأنه لا يقدم الاستجابة الكفيلة بإنجاز خلاصه الخاص، أو بتأسيس حياة تستحق أن تعاش.

وعندي أن أجود الكتب الأدبية والفكرية وأرفعها مقاماً هي تلك التي تنبثق من وعي حاضر في العالم، وكذلك من ذبذبات النفس ورعوشها المرهفة، ومن حساسية كريمة تملك أن تتحسس الشر وبؤس الحياة وشقاء البشر، ثم من ضمير يقظان يأسى لما يكابده الناس من مصائب وويلات. ولقد اعتدت على تصنيف الكتب في ثلاثة أصناف: صنف لا يصلح للقراءة، وصنف إذا قرأته أو لم تقرأه سيان، وصنف إذا قرأته استمتعت وتعلمت، وإذا لم تقرأه فاتك خير كثير. وربما جاز القول بأن أنفس الكتب كلها ما جاءت به يقظة الضمير وتفتحه الحي على البؤس أياً كان نوعه. وفي تقديري أن هذه اليقظة لا تحتوي على شيء أجمل من الالتزام بإنسانية الإنسان، وهو من أراه كائناً مجفوّاً أو مهجوراً دون أي مسوّغ عقلاني أو منطقي. وإني لأرجو لكتابي هذا أن ينبع من ذلك الينبوع الدافئ الحنون، أعني من ذلك الالتزام نفسه قبل سواه.

ولئن كان هنالك فهم علمي للأحداث والوقائع يسمى التاريخ، فإن من الواجب أن يكون هنالك استيعاء أدبي أو ذاتي لتلك الأحداث نفسها. وفي قناعتي أن هذا الاستيعاء الوجداني أرقى من العلم، لأنه ينبجس من الراقة التحتانية التي هي أس لكل ما هو نبيل في الكائن البشري. ولعل في الميسور الزعم بأن هذا المستوى الذاتي الشريف يشبه شرفة تطل على الأغوار والنائيات في آن واحد.

ولكن أهم ما في هذا الجزء الثالث هو أنني تعمدت أن يجـيء مبنيـاً وفقـاً لهذا المبدأ: إن وعي البؤس البشري هو أعلى أشكال الوعي. كما وضعت نصب عيني أن يجيء هذا الجزء الثالث ليكـون بمثابـة مسـرد أفكـار بالدرجـة الأولـى، وذلك لأن تجربتي في الحياة قد زودتنـي بـذخيرة فكريـة كبيـرة الحجم لا يجـوز التفـريط بهـا أو السـماح لهـا بالتسـرب والضـياع، أو بالانـدثار فـي هـذا الزحـام المسعور. ولعل أهم ما في أمرهـا أنهـا أفكـار مـن الصـنف الوجـداني أو الـذاتي الصادر عن التحسس أكثر مما هو صادر عن التذهن أو التفكر. وهذه هي السمة التي من شأنها أن تجعلها من الفصيلة الأدبية بالدرجة الأولى.

* * *

ومما هو جلي أمام بصري أن الفلسفة الأوربيـة تنطـوي علـى شـيء مـن الجنوح نحو الشر والحث على العدوان في بعض الأحيان. وبالإضافة إلـى ذلـك فإن تلك الفلسفة كثيراً ما تجيء على هيئة مكدودة دون لزوم، ويأهلها الكثير مـن الغلس واللغـو والخـواء والميـل إلـى الثرثـرة أكثـر ممـا يأهلهـا التفكيـر المتـأني الرصين. فحين تقرأ كانت أو هيغل، وهما ذروة الفلسفة الأوربيـة، فإنـك لا تجـد محيداً عن أن تشعر بأن كلاً منهما يطحن اللغة في طاحون ضـخم لحجـره حجـم جبل هائل مثل جبل الألب. فلا يدري المـرء مـا هـو المطلـق الـذي يعبـده هيغـل ويوحي إلينا بوجـوب عبادتـه أيضـاً. فهنـاك الكثيـر مـن المخرقـة والتـدليس فـي الفلسـفة الألمانيـة منـذ ليبنـتس حتـى هيـدجر الـذي يتعامـل مـع اللغـة علـى نحـو بهلواني يخفض من قيمة حساسيته تخفيضاً من شأنه أن يزري بها إلى حد بعيد.

ولكن، ثمـة شـيئان جـديران بـالاحترام فـي تلـك الفلسـفة. أمـا الأول فهـو المنظومة الأخلاقية التي تركها كانـت، والتـي تبلـغ أوجهـا فـي مقولـة الواجـب، وهو الذي يأمر المرء بأن يفعل ما يجب وليحدث ما يحدث. وربما كان مـن حـق المرء أن يعترض قائلاً: مـا دمـت بغيـر حقـوق، فـلا يجـوز أن تكـون علـيّ أيـة واجبات. وربما كان واضحاً للجميع أن أخلاق كانت مأخوذة من أديـان الشـرق، وخاصة من المسيحية النبيلة التي لا تملك أوروبا الهمجية أن تطور ديانة مثلهـا،

بل إن من المحال أن يتخيل المرء وجود ذلك الفيلسوف قبل المسيحية أو خارج ثقافتها.

أما الشيء الثاني الجدير بالاحترام في الفلسفة الألمانية فهو ذلك الكتاب الباهر والمرهف الحساسية الذي وضعه شوبنهاور، أقصد "العالم كإرادة وفكرة"، وهو مأخوذ من الديانة البوذية باعتراف صاحبه. إنه تلميذ البوذا، ذلك الآسيوي المهيب الذي يتعذر وجوده خارج آسيا، أم الحضارة البشرية بأسرها. وتأتي أهمية هذا الكتاب من صدقه في وصف واقع الحياة كما هو دون أي تزوير أو تدليس. ولعل أهم ما في أمره أن تشاؤمه العدمي الذي من شأنه أن يحل الوجود في اللاقيمة هو مزيج من الذكاء المتماوج والحزن الشفيف، أو الكآبة الناعمة الرقيقة. فهو قيّم ونفيس بفضل ما ينطوي عليه هذا الحزن من رهف وحساسية عارمة. وإذ اقترح اجتثاث الحياة والتطويح بها إلى سلال القمامة، بعد نزع القيمة عنها دون هوادة، فقد أطاعه الكثيرون الذين انتحروا بعد مطالعتهم لكتابه النفيس. وفي ذلك برهان على ما يدخره هذا الكتاب من قدرة على التأثير.

ولكن النتيجة النهائية التي جاء بها الكتاب تتلخص في أنه رسخ قيمة النفس بوصفها ماهية تحزن أشد الحزن لأن حياتها ليست على ما يرام. فالحياة شيء محبب إلى النفس لو أنها خالية من الهموم والغموم والمثالب والآلام والأوجاع. وهذا يعني أن التشاؤم ليس من سوس الشخصية البشرية، بل هو من أصول الحياة أو مما يحايثها ويستتب فيها من بؤس وشقاء استتباباً لا فكاك لها منه.

ولقد خلف شوبنهاور تياراً ليس باليسير في الفكر والأدب الأوربيين، فكان هاردي الروائي الإنجليزي واحداً من أصدق تلاميذه، كما كان هارتمان الألماني أبرز أتباعه في مجال الفلسفة. ولعل مما هو واضح أن استاذ التشاؤم في العصر الحديث هو من شجع أونامونو، الفيلسوف الإسباني المعروف، على أن يقول: "الإنسان كائن أسيان." وربما كان هذا القول أصدق رأي عرضته الفلسفة طوال تاريخها.

كما أراني ميالاً إلى احترام فيلسوفين أوربيين آخرين، وهما كيركجور الدانمركي ودي بيران الفرنسي فمما هو بين تماماً أن مقولة الوجد التي بجلها كيركجور أيما تبجيل هي صوفية المأتى، بل هي مستعارة جزماً من الصوفية العربية على وجه الحصر والدقة. وكلاهما يصدر عن المسيحية والصوفية، بل بالضبط عن صوفيات الشرق المترعة باللطف والدماثة. فلا افتئات على الحقيقة إذا ما ذهب المرء مذهباً خلاصته أن كل ما هو أصلي في الحضارة الأوربية له جذور في تربة الشرق المعطاء. هذه هي الحقيقة حتى وإن أنكرها عدد كبير من المفكرين الغربيين بسبب عنجهيتهم أو غطرستهم التي تحول بينهم وبين الاتصال بالحقيقة كما هي في بعض الأحيان.

وعندي أن شكسبير –ناهيك بدانتي- لا يتيسر استيعابه جيداً بمعزل عن الفهم التام لشخصية السيد المسيح التي هي دليل حاسم على أصالة الشطر الغربي من الشرق. (ثقافة يسوع سريانية ولا تنتسب إلى أية جهة أخرى.) بل إن شكسبير يتعذر أن يكون له وجود خارج مجتمع من المجتمعات المسيحية، وذلك لأن المحتوى الصميمي لمعظم تراثه هو الأخلاق المسيحية حصراً وتحديداً. ولكنني كنت ولا زلت أستهجن كيف استطاعت الأمة التي تحترف القرصنة مهنة أن تنجب هذا الروح المطهم النبيل.

ولئن كانت الفلسفة الألمانية قد شوهت مفهوم التاريخ وقدمته للناس بشكل مغلوط، وذلك على يد كل من هيغل وماركس، كما شوهت مفهوم النفس على يد فرويد ومدرسته، فإن الفلسفة الفرنسية قد أفرزت فكراً عرقياً متطرفاً، سقامه من الفصيلة اليرقانية أو السرطانية، فضلاً عن أنه لا ينم إلا عن غباء مفرط، وذلك لأنه عجز عن طرح هذا السؤال الحاسم: لئن كان العرق الآري هو أعظم العروق وأذكاها، فلماذا تأخر ظهور الحضارة في أوربا حتى هذه الأزمنة الحديثة التافهة؟

ولقد بلغت المخرقة بالفلسفة الألمانية أن قالت على لسان هيغل: "كل ما هو واقعي عقلاني، وكل ما هو عقلاني واقعي." وهذا يعني أن جميع مجازر التاريخ وقذاراته وبؤسه تجد تسويغها في العقل نفسه، وأن تشريدنا، نحن

الفلسطينيين، هو في مجمله حادثة لا يتنكر لها العقل، ولا تؤوده أو تبهظـه، كمـا يرى ذلك الفيلسوف. فلله في خلقه شؤون!

ولا يخفى على أحد أنه خان منهجه الجدلي نفسه حين ذهب هـذا المـذهب السخيف. فمما هو معلوم أن منهجه يبدأ من مقولـة "وحـدة الأضـداد" التـي هـي مبدأ مـانوي معـروف. والمانويـة ديـن يتحـدر مـن الثقافـة البابليـة التـي رسـخت مثنوية النور والظلام عبر دراستها للفلك، كما رسـخت مثنويـة المـوت والحيـاة، أو المحل والخصوبة، عبر تأليهها لتمـوز. وههنـا بالضـبط يجـد المـنهج الجـدلي جذوره أو نوياته الجنينية على الأقل.

ولو أن هيغل قد التزم بمنهجه لقـال بـأن كـل مـا هـو واقعـي يتركـب مـن العقلاني واللاعقلاني فـي آن واحـد، أي إن الحقيقـة مـزيج مـن العقـل والجنـون كليهما، والأمر الذي قد يدور عليه الخلاف هو نسبة كل من هذين العنصـرين أو إسهامه في بنية الواقع. أما أن يكون الواقع هو العقل كلياً فهذا مذهب ليس جـدلياً البتة، بل أحسب أنه مرفوض عند كل من يتمتع بالحد الأدنى من العقل. وما مـن شيء قط يملك أن يسوّغ الشر، حتى وإن كانت له نتائج ايجابية، الأمر الذي دفع هيغل إلى القول بمقولة "السلب الموجب"، أو الوجه الايجابي للسلب.

*   *   *

ولكـم هـو شخصـية تخريفيـة أو تهويميـة ذلـك النيتشـه، صـاحب مقولـة "العود الأبدي". ومقولة "الضواري الشقر" السمجتين. وفي الثانية ثمـة رعونـة قـلما يتورط فيلسـوف بمثلهـا. ومـن رعوناتـه أنـه يـدعو إلـى عبـادة القـوة وشـن الحـروب والعـيش فـي خطـر، وكـأن البشـرية بحاجـة إلـى المزيـد مـن الشـقاء والكوارث الفاجعة، أو كأن الإنسان قد عاش نائياً عـن المخـاطر والمجـازر فـي أي جيل من الأجيال. أما مقولـة "السـوبرمان" أو الإنسـان الأعلـى فهـي تشـويه واضـح لفكـرة "الإنسـان الكامـل" التـي قالـت بهـا الصـوفية العربيـة منـذ مئـات السنين. وشتان ما بين المقولتين.

فبينما تصهل الشرور وتعربد في كل مكان على سطح الأرض، فإن نيتشه يريد المزيد من المآسي والمصائب للجنس البشري بأسره. ولهذا، فإنه لا يملك أن يشبع أية روح من تلك الأرواح التي لا يشبعها إلا أمثال دستويفسكي. إنه يقف في منتصف الدرب بين السطح والعمق، وهذا هو بالضبط ما يريده أنصاف المتعلمين، أو من سماهم هو نفسه باسم "أنصاف الأنصاف". فلئن كانت القيمة هي القوة وحدها، فأين موقع الجمال والحب والفن والإخاء البشري، يا ترى؟ إن دعوة نيتشه إلى عبادة القوة من شأنها أن تضمر تسويغاً للإمبريالية والصهيونية، ولجميع المجازر والشرور التي ارتكبت على الأرض خلال التاريخ كله.

ترى، ما قيمة الاسكندر المكدوني ويوليوس قيصر وجنكيز خان وتيمور لنك، وجميع الفاتحين، أو الهجوميين، الكبار والصغار، عند أي إنسان حصيف أو حصين؟ فلا قيمة للمحاربين إلا إذا كانوا دفاعيين من أمثال هنيبال وصلاح الدين وجان دارك، وفردرك الثاني ملك بروسيا، وكل من هو في معناهم من البشر. ولكن الشخصية الأوربية الشمالية المفترسة والموغلة في الهمجية والميل إلى احتساء الدماء قد وجدت تعبيرها الفكري في فلسفة كل من هيغل ونيتشه والعنصريين الفرنسيين بالدرجة الأولى.

ولكن نيتشه له مأثرة عظيمة، وهي أنه استطاع أن يكتشف ضعة اليهود وحطتهم، كما تجرأ فجهر بها على الملأ يوم راحت أعداد كبيرة من الأوربيين تتملقهم وتداهنهم كأنهم هم الذين يطعمونها وليس العكس. ويبدو أن عصر نيتشه المتعصب لليهود، كما تبين من قضية دريفوس، قد ترك هامشاً صغيراً أو كبيراً لأولئك الذين يناوئونهم. وفضلاً عن ذلك فإن الرجل قد عاش في طور العصاب العرقي المحموم الذي بلغ ذروته مع غوبينو وريناان وسواهما من الفرنسيين الذين هم أكثر شعوب الأرض عنجهية أو ميلاً إلى الغطرسة والتنفج الممرور.

كما أن فرنسا قد أفرزت منافقاً لا وظيفة له سوى أن يتحذلق وأن يداهن اليهود برقاعة أو دونما حياء. إنه سارتر الذي أراد أن يكسب اليمين واليسار في آن معاً، والذي جاء إلى غزة سنة 1968 ليبلغ الفلسطينيين بأنه منحاز علناً لليهود، مع أن قضيتهم مثيرة للشفقة. وهذا يعني أنه يقف مع الجلاد ضد

الضحية، أو مع القاتل ضد القتيل، دون أن يرف له جفن. فماذا عساه أن يبقى بعد خراب الضمير؟

أما كارل ياسبرز، الفيلسوف الألماني، فقد راح ينافح عن الصهيونية والإمبريالية بحماسة منقطعة النظير. وقد بلغت به الوقاحة أو الفهاهة الممزوجة بالسخف أن جعل البلدان الإمبريالية ضحية لهمجية الأمم المستضعفة في الأرض، وذلك لأن المقاومة التي تبديها تلك الأمم ضد غزاتها هي اعتداء تقوم به النزعات الاستبدادية ضد حرية الغربيين. وهذا يعني ضمناً أن لهم الحق كاملاً في نهب أي شعب يشاؤون، دون أن يكون لذلك الشعب أي حق في التصدي لغزاته الأشرار. ولقد فاته ذلك المبدأ الأخلاقي الكبير: "تنتهي حريتك حيثما تبدأ حرية الآخرين." فيا له من فيلسوف ذاك الذي يناضل بقلمه عن القراصنة والصهاينة وقتلة الأطفال.

*　　　*　　　*

ولكم هم محظوظون أولئك اليهود المتطفلون على هذه الدنيا، والذين يلهطون زبدة جهود البشر ثم يدّعون أنهم ضحايا المحارق والاضطهاد العرقي أو الطائفي، فيقوم الفلاسفة والكثير من الكتاب والساسة والقساوسة لينافحوا عنهم وعن حقهم في التهام الأخضر واليابس. يقول القس جيري فالول، وهو من يقود تياراً دينياً كبيراً في الولايات المتحدة: "إن كل من يشير بإصبعه – مجرد إشارة- إلى اليهودي، فكأنما يضع اصبعه في عين الله، لأن اليهودي هو بؤبؤ عين الله." وهذا يعني أن من حق اليهودي أن يقتل ويغش ويسرق الناس ويتعامل بالربا، لأن ذلك كله قد جاء بأمر من الله، على حد رأي هذا القس الشحيح العقل الذي أناط بالإله وظيفة تسويغ الشرور.

فهل صار من حق الذهن المحايد أن يقول بأن الإنسان الاورو - أمريكي آخذ بالتجوف أو بالتجيف في زمن العلم والتكنولوجيا، الذي هو زمن اليهود بامتياز؟ فها هي ذي الصناعة في الولايات المتحدة تزودهم بكل ما يلزمهم من عتاد حربي وغير حربي. ومما هو معلوم أن هذه الصناعة تنبع من آبار النفط

العربي بالدرجة الأولى. وبذلك فإن العرب يزودون الصهاينة بالجذور التي تأتي منها جميع القدرات الكفيلة بتمكين العدو من قتل الفلسطينيين والتنكيل بهم وتشريدهم تحت كل سماء. نعم، إن اسهام العرب في قتل الفلسطينيين لا يقل عن إسهام الأمريكيين، وهو يبذ اسهام الأوربيين بشوط مديد. ولا أمل للفلسطينيين ما دام نفط العرب تحت هيمنة الغربيين، وما دام الصهاينة ينالون منه حصة كبيرة جداً.

*　　　*　　　*

ما من شيء أنقض ظهري كما أنقضه وجود الشر الساعر في هذا العالم المسكين. فإزاء ظاهرة الشر المتفشية في كل مكان أشعر بأنني مصعوق، أو شديد العجز عن القيام بأي فعل ذي بالٍ. أجل، إن للشر وجوداً صميمياً، أو تأسيسياً، لا مفر منه ولا خلاص بأية طريقة من الطرق. وهذا ما أدركته البوذية بعمق، ثم تبعتها المسيحية المترسمة لبعض خطواتها على نحو لا يخفى. وكلتاهما ثورة مارسها الإنسان ابتغاء تخليص الأرض القاحلة من فسادها، بل حتى من جربها المقيت.

إن ثورة السيد المسيح هي ثورة الروح على المادة، ثورة الجانب الحي من الإنسان على الجانب الميت. ولا مراء في أن محتواها أعمق وأنبل من الفلسفة منذ طاليس وحتى سارتر. وفضلاً عن ذلك فإنها ثورة الداخل على الخارج وعلى الحرف الذي هو رمز التشنج أو تصلب الشرايين الاجتماعية. وبتلك الثورة استطاع أن يؤسس الشرط البشري الأصلي على المحبة بدلاً من النواميس الوضعية المخالفة لطبيعة الفؤاد النبيلة. وفي الحق أننا اليوم في أمس الحاجة إلى ثورة روحية مماثلة ترد إلى الحياة عذوبتها التي خسرتها منذ زمن ليس باليسير. ولكم أنا مسرور، بل فخور بأنني ولدت في الصقع الذي عاش فيه السيد المسيح، أقصد الأرض الواقعة بين الناصرة وطبريا القريبتين من ضيعتنا. فمن المعلوم أن قانا الجليل (كفر كنا)، حيث حول الماء إلى خمر في عرس مشهور (وفقاً للعهد الجديد)، وكفر ناحوم، حيث التقى بالمجدلية، هما ضيعتان قريبتان من الضيعة التي ولدت فيها، الأولى إلى الغرب والثانية إلى

الشرق. يقيناً، إن السيد المسيح هو حلم لذيذ مدهش هدفه الأول إحلال المحبة محل الشر، أو مقاومة الشر بالطاقات الروحية النبيلة التي بها يصير الإنسان إنساناً.

ولكن، ما دام الشر صميمياً أو جذرياً، فإن الاغتراب والضياع والانخلاع هي أمور حتمية تربض على صدر الإنسانية ما بقيت هنالك إنسانية. ولسوف يظل الضعفاء وسائل للأقوياء وأدوات، ولن يصير الإنسان غاية في ذاته بتاتاً، أقله على المدى المنظور، إلا بعد الثورة الروحية التي نحتاج. ومما هو مقبول عندي أن عصرنا الراهن، عصر المال والسلاح، هو من الهزال والركاكة بحيث لا يسعه أن ينجز أية ثورة مهما يك نوعها. ولكن، حبذا أن يظل هنالك بصيص من الأمل في سواء هذا الاتضاع الجارف السقيم، إذ لولا الأمل لتثلمت الإرادة أو صدئت، وكف الإنسان عن كل عمل يتخطى الضروريات الأولية التي من شأنها أن تسد الرمق وأن تصون الحياة من الزوال.

الفصل الثاني
الكتابة

أسلفت في الجزء الثاني من هذا الكتاب أنني قرضت الشعر لأول مرة سنة 1954، يوم كنت لا أزال أعيش في مدينة بعلبك. ولقد واظبت على ذلك منذ تلك السنة وحتى أواسط السبعينيات تقريباً، أي زهاء عشرين سنة. وفي الشطر الأخير من تلك الفترة عانيت الشعر المنثور الذي أحسبه شديد العسر إذا ما أراد المرء أن ينتج ما هو ذو بال. ويبدو أن تحقيق أي إنجاز باهر هو دوماً شأن عسير، أو شديد الإنهاك، ولا يتم إلا على ندرة وحسب.

ثم إنني سرعان ما غادرت تجربة الشعر كلها، ولم أحتفظ إلا ببضع عشرة صفحة من قصائد النثر، ما زالت في حوزتي حتى الآن. بيد أنني، بإزاء هذا البرزخ الجامع لطرفين متباعدين، أشعر بخنوثة عصرنا الذي تنساح فيه الأشياء على هواها لتنتج اختلاطاً بين عناصر لا يجوز لها أن تتخالط. فكيف يمكن للنثر أن يكون شعراً، أو كيف يمكن للشعر أن يكون نثراً؟ وإني لأطرح هذا السؤال مع قناعتي الجازمة بأن هذين الشيئين المتباينين لا يفصل بينهما أي سد صيني أو غير صيني. ويبدو أن العالم الحديث، وهو الفقير إلى الطمأنينة والغضارة وهدأة البال، فضلاً عن افتقاره إلى المعايير الثابتة، من شأنه أن يفرز هذه المفرزات المأهولة بالمفارقات والشروخ.

ولا ضرر إذا ما تلوت هذا المقبوس ههنا ليكون مثالاً عن تلك القصائد النثرية التي كتبتها في مطالع السبعينيات، أو قبل خمسة وثلاثين عاماً، أو يزيد:

أوَ كل هذا التفطر في القلب، وما من يد تمسح الأرق عن جفوني؟
أوَ يعقل أن للقبح هذي الأناقات كلها؟
إذن، دعوني أعش الروح في نفسي ولنفسي، أما أنتم، فإني أترك لكم هذا الرماد كله.

ومما هو جدير بالتنويه أنني قرأت مختارات من قصائدي النثرية على بعض الشعراء فراقتهم كثيراً، ولكنهم لم يستجيدوا قصائدي المنظومة، فما كان مني إلا أن أقلعت عن كتابة الشعر بنمطيه المنثور والموزون.

لقد غادرت الشعر وأنا قانع بأنه وظيفة أخلاقية، لا لأنه سمو أو نظافة وحسب، بل لأن تنظيم الكلام أو تحويله إلى إيقاع، هو تنظيم للنفس أيضاً. وتنظيم النفس صنف من أصناف تزكيتها أو تطهيرها. وفي الحق أنني لم أنتج شعراً جيداً من شأنه أن يخلب ويجذب. بيد أن هذا الأمر لم يكن السبب الأول بين مجمل الأسباب التي دفعتني إلى الاستقالة من تلك الوظيفة النبيلة، فقد كان في ميسوري أن أُحسّن قصائدي وأن أُنجز أشعاراً لا يقل مستواها عن مستوى هذا الشعر الذي ينتجه عصرنا الراهن كل يوم. وربما حالفني الصدق إذا أعلنت بأنني ما هجرت ذلك النشاط العظيم إلا لأن الشعر، أو معظمه، قد أخذ يسف ويتضع في الثلث الأخير من القرن العشرين، أو قل لأن طور الصناعة المتطورة الذي جاءت به فورة النفط لا يملك أن ينتج الشعر الحقيقي والأصلي إلا لماماً فقط، إذ لا يخفى على الأنباه أن عصرنا هذا هو عصر نثري حتى مخ عظامه.

بيد أنني سرعان ما اكتشفت مهمتي في هذه الدنيا، أو عرفت الوظيفة التي أهلتني لها ماهيتي نفسها، إنها الكشف عما تدخره اللغة العربية من طاقة حية أو من قدرة على التعبير، ولا سيما عما في الباطن من أفياء وأنوار ورعوش وحرارة ودفء ودماثة. وفي نظري أن اللغة العربية قد أذبلها الابتذال وذوو الأذهان الغاسقة، كما أن معظم آداب العالم المعاصر ما عادت تزيد عن كونها رغوة، إذا ما قورنت بآداب الأقدمين، وذلك طوال السنوات الثلاثين الأخيرة. أجل، إن التوجه نحو إضفاء النقاء على اللغة العربية وتزويدها بالرشاقة وتناغم الايقاع، وذلك في زمن هذه الهجمة المغولية الجديدة ذات الصفة الاجتثاثية اللئيمة، هما فعلان مقاومان بكل تأكيد. وعندي أن عمر بن الخطاب قد أصاب كبد الحقيقة حين قال: "تعلموا العربية، فإنها تزيد في المروءة" وبذلك يلتقي المرء بالأساس الأخلاقي للغة، أياً كان نوعها.

وثمة سبب قد حرضني على الإقامة في فسحة النثر، أو في فسحة اللغة الشديدة الرحابة، وهو اعتقادي بأن الإنسان هو اللغة، فلا يسعه أن يكون إلا بمقدار ما تكون اللغة. وهذا يعني أن لغتك هي هويتك الباطنية، وأن الانسان من دون اللغة لن يكون له أيما وجود.

*   *   *

ولكنني أستطيع التأكيد على أنني لست حدسياً، أو فطيناً أو استباقياً، في الأمور العملية. ومن الأدلة على ذلك أنني لم أدرك سلفاً سخف الكتابة وعدم جدواها في هذا الزمن الأجوف الهزيل الذي يهيمن عليه الأنذال والانتهازيون والمجرمون. حتى المواقع الثقافية ينتزعها جهرة بعض الأميين ممن يحترفون التسلل إلى المراكز النافعة، بينما يقف الذين يستحقون تلك المراتب بعيداً ينظرون ويراقبون المشهد المتردي ولا يملكون أن يخوضوا في أي إجراء فعال. فلماذا رضيت بأن أساهم في هذا الانحطاط الشامل الكريه؟

وإذ أكتب اليوم فإنني أتذكر الدون كيشوت الذي لم يستطع أن يدرك انتهاء عصر الفروسية في زمن الأسلحة النارية، الأمر الذي يبرهن على أن بداهته معطوبة أو مصابة بالعطالة على نحو لا شفاء لها منه. ومما هو لافت للانتباه أنني بدأت أكتب يوم بدأت فورة النفط التي حتمت على الكتابة أن تبتذل وتنحط. فلا يخفى على اللبيب أن الأجهزة السمعية البصرية قد احتلت جل الرقعة التي كانت تحتلها الآداب، فأحيلت إلى هامش لا محل له من الإعراب. ولكم هو غارق في الفجاجة والغثاثة ذاك الذي لا يستطيع أن يدرك طبيعة الزمن الذي يعيش فيه. ولكن، قد يصح المثل الشعبي القائل بأن الخروج من الحمام ليس كالدخول إليه. ويبدو أنني أكتب لأن الكائن لا يستطيع أن يخالف طبعه.

وعلى أية حال، فإنني قد اكتشفت منفاي الطوعي الذي اخترته بملء إرادتي وكامل حريتي، وذلك لكيلا أظل كلي الارتهان لعالم شرس وتافه، يشاطرني اليهود المجرمون والأمريكيون الإرهابيون ماءه وهواءه وحرارة شمسه التي تشرق على الضحايا والجلادين معاً دون أي تمييز. ومن شأن هذه الحقيقة التي تستعصي على كل تفنيد أن تذكرني بقول المعري: "وجبار في حكمها العجماء." إن منفاي الطوعي هو اللغة، أو الاستقرار في كهف الكلمة، بل في حصنها الحصين.

فلا غرابة إذا ما زعمت بأن اللغة حياة شيمتها السمو فوق الحياة المبتذلة التي يحياها أناس السياسة والاقتصاد والعمل المنتج مادياً. كما تتمتع باستقلال

من شأنه أن يصون حرية الإنسان وكرامته وقيمته التي لا يسعه البتة أن ينالها في سواء هذا الامتقاع أو الاتضاع الغوغائي الشامل والآخذ بالتفاقم أو الافتحال يوماً عن يوم. وإني لأرتاب في أن تكون للإنسان كرامة أو قيمة خارج اللغة، أقصد خارج فسحة الكلام. وبما أنها هيكل الكرامة أو معقلها، فهي علالة الاغتراب الأولى، وكل علالة أخرى تأتي بعدها، إذ لا ريب في أن الموسيقى، مثلاً، لا تملك –على جلال قدرها- أن تشبع الروح كما تشبعه اللغة. أما الرسم والنحت والريازة، وهي أشكال جلى لحضور الباطن أمام عيانه الخاص، فإنها أعجز من أن تنافس اللغة، ولا سيما التراجيديا، في مضمار الاستجابة للمسغبة الروحية، أو في مضمار التأثير على الوجدان، وذلك بوصفها قدرة استحضار للماهية البشرية، أو لأن تأثير اللغة في الروح له من التعدد أو التنوع ما لا تملك أن تحوزه جميع الفنون غير اللغوية بتاتاً، فلا يتيسر للصامت أن يبذ الصائت أو أن يعادله بأي حال من الأحوال.

ومما هو صادق في ذهني أن الإنسان قد اخترع روحه تماماً يوم اخترع اللغة، أو لعله لا يخترع روحه إلا بمقدار ما يخترع لغته. وهذا يعني أن مساحة عقلك هي مساحة لغتك نفسها. ومن الغرائب المستهجنة عندي أن الإنسان قد كرّس رباً أو ربةً وثنيين لكل شيء إلا للغته التي هي عقله أو نفسه أو جوهره بالضبط، فلقد بلغ التطور الثقافي في مصر الفرعونية أن ذلك الإقليم قد خصص ربة للمكتبات اسمها سشات. وهذه واقعة لم تعرفها أية دائرة حضارية أخرى، تستوي في ذلك اليونان والهند والصين. ولكن الربة لو غيا – إن جازت هذه التسمية - لم تظهر في أي إقليم من أقاليم الأرض كلها.

*　　　*　　　*

وأياً ما كان جوهر الأمر، فإن المرء بعد قراءة آلاف الكتب المتنوعة، قد لا تعوزه القدرة على أن يصير كاتباً حقاً. وما كنت أقرأ إلا سعياً وراء الحقيقة، وذلك لأن للمعرفة "وظيفة مواساة",أو سلوى وعزاء، وفقاً لمذهب ابيقور، أي لأنها قد تصلح علالة لهذا الاغتراب الذي لا علالة له على الأصالة بتاتاً. وربما

جاز القول بأن في القراءة إجازة من لعنة الوجود، وذلك لأنها تشبه السياحة إلى حد ما. ولكن الأفعال قد تؤدي إلى نتائج ليست متوقعة. وهذا يعني أن إدمان القراءة هو ما أهلني لاحتراف الكتابة عندما انتصف العمر على وجه التقريب.

ومما هو جدير بالذكر أن الكتب التي قرأت كانت شديدة التنوع، وكان كثير منها في الفلسفة والتاريخ والتصوف، فضلاً عن المسرح والرواية والشعر. فابتداء من سنة 1965 صار تناول الجرعة الفلسفية صباحاً شعيرة يومية لا محيد عن أدائها ما لم أكن مشغولاً، ولا سيما بالعمل في المدرسة الذي هو أشق من الحصاد وأعسر من قطع الحجارة.

وزهاء عام 1970، ملت إلى التفلسف وإلى الكتابة في الفكر الفلسفي، وخاصة بعدما تيقنت من أن الفلسفة الأوربية قابلة للتجاوز، وبعدما تأكدت من أن في الميسور أن تنشأ فلسفة خارج أوربا، الأمر الذي من شأنه أن يفند ادعاء هيغل بأنه "ما من فلسفة خارج أوربا." ففي الحق أن الفلسفة الأوربية تركت الكثير مما لم تمسه يدها قط. ويقيناً، إنها قد تركت الروح والضمير والوجدان والعالم الباطني بكراً حتى الزمن الراهن. ولكنني سرعان ما أدركت أن هذا العصر لا صلة له بالتفلسف أو بإفراز أي صنف من أصناف الفلاسفة. فما كان إلا أن أقلعت عن تلك الفكرة إقلاعاً نهائياً واكتفيت بالكتابة الأدبية وحدها.

ويا طالما فكرت في تأليف كتاب عنوانه "سخف الفكر الأوروبي" أبين فيه أن الإنسان الغربي الذي ادعى بأن التفكير وقف عليه وحده هو كائن لا يجيد التفكير إلا لماماً. ولكني معجب أيما إعجاب بالأدب الأوروبي وكذلك بفن الرسم. أما النحت الأوروبي فلا يعتد به، وهو أدنى مرتبة من النحت اليوناني الذي لا يرقى إلى مستوى النحت الفرعوني. فتمثال موسى لمايكل أنجلو، مثلاً، هو انجاز مصطنع ولا يخلو من تكلف. وتمثال داوود، مثلاً آخر، ليس تمثال نبي ولا تمثال بطل أو قائد كبير، كما قدمته التوراة. إنه تمثال الشباب الوسيم المتين، بل تمثال الرجل الرياضي الشبيه بتماثيل الاغريق.

ولعلني في هذه الأيام أن أكون قادراً على الكتابة في فلسفة التاريخ، وكذلك في فلسفة الجمال. فعلى كثرة ما كتب الأوربيون، منذ فيكو وحتى توينبي، في حقل نظرية التاريخ، فقد ظلوا مقصرين عن الشأو المرجو. وكان أفضلهم

اشبنغلر الألماني الذي لا يصيب إلا بقدر ما يخطئ، والذي استطاع أن يمس حقيقة التاريخ مساً خفيفاً، وذلك لأنه استعار نظرية ابن خلدون، أو روحها، وتكتم على ذلك الاختلاس، فلم يذكر المصدر الذي صدر عنه بتاتاً، مع أنه يسرف في الحديث عن الثقافة العربية حتى لكأنه يريد أن يؤكد لقارئه أنه يعرفها معرفة جيدة. وعلى من أراد أن يدحض هذا الادعاء أن يتأكد جيداً من الأمر، إن كان نزيهاً رائده الحق وحده.

ويؤسفني كثيراً أن ابن خلدون، الذي كان أول من أرسى فقه التاريخ، أو فقه الحياة العامة، في الثقافة العالمية بأسرها، ليست له مدرسة أو تلاميذ يتبعونه في العالم العربي برمته، حتى وإن يكن الأمر في صيغته الجنينية. ومما هو مثير للاستهجان، أن هذا العالم العربي نفسه لم ينتج أيما فقيه من فقهاء الجمال، مع أن منطقتنا هي التي طورت الفنون الرفيعة، ولا سيما فنون الرسم والنحت والريازة، منذ أزمنة موغلة في القدم. ومما هو جائز أن يقال بأن العرب خرجوا من التاريخ، أو من متنه إلى حاشيته، بعد وفاة ابن خلدون بقليل. ومنذ محمد علي باشا حتى اليوم وهم يحاولون العودة إلى السياق العالمي الشامل، ولكنهم لم يستطيعوا الإنابة إلى ما كانوا عليه، وذلك لأن قوى تاريخية جبارة تقف لهم بالمرصاد وتحول بينهم وبين بوابة التاريخ.

ولكنني أدركت مبكراً أن عصرنا الراهن، وهو غوغائي في الصميم، ليس عصر فلسفة ولا جمال، ولا سيما في هذه البلدان المتخلفة الآخذة بالتدهور المستمر، أو التي هي ليست مؤهلة لإنتاج النفائس والإيقاعات الثقافية السامية. فلقد استوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون في هذا الزمن الفقير إلى المعايير الثابتة والقواعد الراسخة. وما الانحطاط إلا هذا الاستواء الذي يعني إمحاء الفرق التأسيسي حصراً، أعني الفرق الفاصل بين الرفيع والوضيع.

فالزمن الراهن هو زمن الرياضة والمسلسلات التلفزيونية التافهة، والتي لا تتمتع حتى بالقدرة على التسلية، اللهم باستثناء القليل. وفي زمن الرياضة، أو كرة القدم حصراً، فإن بعض اللاعبين يملكون من المال ما لا يحصى ولا يعد. ولهذا، فإنني لا أستطيع أن أحترم عالماً يمنح للاعب كرة من الامتيازات ما لا يمنحه لألف شاعر أو فيلسوف.

*　　　*　　　*

ولكن، لماذا أكتب، ما دامت الأمور قد بلغت إلى هذا المبلغ من الصفاقة والبؤس؟ حسناً! إن لي جملة غايات من هذا الفعل الذي أراه واحداً من المناهج التي يعتمدها الروح كي يتخارج إلى العلن، وذلك مع أنه لا مردود له سوى الإعياء وتكديس الأعداء. أما أبرز هذه الغايات فهي:

أولاً- إن النفس البشرية شديدة الميل إلى البوح أو إلى التخارج، وذلك لأن ما في الداخل يصر على أن يظهر للعيان. وأنا أبتغي أن أفرز محتويات روحي وأن أصوغها في صيغة لغوية. ثم إن الكائن لا يملك إلا أن يطيع طبعه الخاص وإلا أن يمتثل لغرائزه الجسمية والنفسية.

ثانياً- أرغب في الالتقاء بفسحة للحرية من شأنها أن تسمح لي بممارسة نزعة الخلق التي هي سمة من سمات الإنسان. فحيثما كانت الحرية كان العقل والابتكار، وحيثما كان العقل والابتكار كانت الحياة أصلية وعميقة. ولم أجد طريقة أشرف من الكتابة كي أمارس الإبداع أو الابتكار الذي هو حرية ونتاج حرية، والذي من شأنه أن يحرر الإنسان من المياومة التي تستبعده أو تقصيه وتنأى به عن كنه التجربة الحية. ولا خلاص له من ذلك إلا بفعل سام شديد العلو.

ثالثاً- بودي أن أكتشف الينابيع التي تنبع منها اللغة العربية وحيويتها وطاقتها، وذلك لأن ينابيع اللغة هي ينابيع الروح نفسها. فأنا أحسب كل كتاب نشرته بمثابة تحية للغة العربية التي ربيت على تبجيلها، بل على تقديسها. فما من شيء في هذه الأيام العجاف له سلطة ذات قيمة غالية على روحي سوى نداء اللغة، أو نداء الكلمات، وما من شيء يجذبني أو يهيمن عليّ سوى الشغف بالفكرة الصافية المبثوثة في العبارة الرائقة حتى لكأنها تمثال نحت على نحو بديع.

رابعاً- إنني أكتب كي أدشن علالة لهذا الاغتراب المقيت الذي هو داء لا شفاء منه. والاغتراب حين يتطرف لا يقل عن كونه شللاً يصيب الروح، أو فقداناً لجميع المسوّغات التي تحث المرء على مواكبة الحياة أو على قبولها، أو لعله أن

يكون صنفاً من أصناف العطالة حلت بالطاقات الذاتية اللامتناهية، وأدت إلى انحلال الوجود في المجانية وانعدام القيمة. إن الاغتراب أمر باستقالة الذات من وجودها الذي ما عاد مقدوداً على قدها بتاتاً. لقد صار أضيق من أن يتسع لها بعد ما كبرت إلى هذا الحد أو ذاك. وبهذه الاستقالة يلج السأم والتشيؤ إلى صميم الماهية الإنسانية، فيستحيل المرء إلى صنف من أصناف سقط المتاع. ترى لئن لم يكن الجحيم في سريرتي، فأين عساه أن يكون؟

* * *

وعلى أية حال، فقد نشرت أولى مقالاتي في تموز، سنة 1973، وذلك في مجلة كان يصدرها اتحاد المعلمين الفلسطينيين بدمشق، يوم كنت في العام الخامس والثلاثين من أعوام حياتي. وابتداءً من أواخر تلك السنة بدأت أكتب بعض المقالات حول الشعر الجاهلي، ثم نشرتها في مجلة "المعرفة" ومجلة "الموقف الأدبي". فلقد سبق لي أن أولعت بالشعر الجاهلي، ولا سيما بالمعلقات وشعر امرئ القيس الذي لا يملك أن يقوله إلا شاعر مطبوع مارس تجربة حية شديدة الثراء بالأحداث الجسام. وهذا يعني أن الذين قالوا بأن الشعر الجاهلي منحول هم أناس تنقصهم الخبرة بطبيعة الشعر وأسراره.

ثم جمعت تلك المقالات وسلمتها لوزارة الثقافة في دمشق، فنشرت شطراً منها تحت هذا العنوان: "مقالات في الشعر الجاهلي" (1975). وكان ذلك أول كتاب أصدرته في حياتي. أما المقالات التي خصصتها للمعلقات، وهي الشطر الآخر مما كتبته عن الشعر الجاهلي، فقد نشرتها وزارة الثقافة نفسها في كتاب عنوانه "بحوث في المعلقات" سنة 1978.

وبودي أن أشير إلى ما فحواه أنني لا أعرف كتاباً تعرض للسرقة والانتحال على أيدي الطفيليات الثقافية بقدر ما تعرض هذان الكتابان، وبخاصة الأول حصراً. ومن بين الذين سطوا على هذين الكتابين اثنان من مشاهير الكتاب في المجال العربي. ولكن أن يكون المرء مشهوراً لا يعني أنه أصيل بالضرورة، إذ يجوز أن يكون أو لا يكون. فقد تجرأ واحد من مشاهير النقاد في

مصر على انتحال الكثير من الأفكار المبثوثة في الكتاب الثاني وصنع منها ثماني مقالات نشرها في مجلة كويتية مشهورة خلال التسعينيات. هكذا يسرقون ولا يأبهون بالتشنج الدائم الذي أصاب ظهري بسبب كثرة الكتابة، ولا بالتهتك الذي حل بشبكية عيني فخسرت جل بصرها بسبب إدمان القراءة والغرق في بطون الكتب.

ولقد كان لصوص الثقافة المتطفلون على الكتابة صنفين، صنف يسرق دون إبداء أي تقييم لأي من الكتابين، وصنف آخر يسرق ولكنه لا يحجم عن المجاهرة بشتم المصدر الذي سرق منه، وبذلك يكون مثل من يشرب من بئر ثم يرمي فيه بحجر، كما يقول أحد أمثالنا الشعبية. وهذا الصنف من شأنه أن يثبّط الهمة ويفلّ العزيمة. وربما حالفني السداد إذا ما زعمت بأن الشخصية العربية لم تخرج من طور الفجاجة والضحالة بعد، ولو لا ذلك لما كان لمثل تلك الطفيليات الثقافية أن تكون.

*		*		*

وعلى أية حال، فإنني جد نادم على اقتراف ذنب الكتابة هذا، لأنه لم يأتني إلا بالقليل من الفلوس وبالكثير من الأعداء، ليس فيهم إلا من يصلح استاذاً للشيطان نفسه. فهنالك أناس يحترقون بغيظهم إذا ما رأوك تلبس قميصاً جديداً، فكيف يتحملون أن يروك تنشر كتاباً ناجحاً أو صالحاً للقراءة. ولقد كنت أعرف رواية اللؤلؤة، لجون شتاينبك، وأعرف مضمونها تمام المعرفة، قبل أن أتورط بالكتابة والنشر. فإذا كان لديك شيء جوهري فإنه سوف ينتزع منك ما لم تتخلص منه بقذفه إلى البحر. أما الذين سوف يحاولون أن ينتشوه من بين يديك فيتعذر إحصاؤهم. ويبدو لي أن الإنسان مسوق إلى مصيره أو قدره بفعل قدرة يتحكم به زخمها من داخله، فتعميه عن كل ما يحول دون انغماسه في مصيره المحتوم.

حقاً إن أدعياء الكتابة، الذين هم من فصيلة الإفك والبهتان، قد جعلوني ألعن ذلك اليوم الذي نشرت فيه أولى مقالاتي. فمن الغرائب أن اللص الذي أنهره

ابتغاء ردعه وإبعاده، يأخذ بالتنمر والتفجر غاضباً هائجاً شاتماً بفجاجة البدائيين ورثاثة الغوغائيين، نازعاً إلى نهش العرض والهجاء المقذع البذيء، وذلك بدلاً من أن يخجل لأنه قد أمسك متلبساً بالجرم المشهود. ويلوح لي أن الهجاء قد ظل نغمة عالية في الثقافة العربية منذ الجاهلية حتى اليوم. كما يلوح لي أن البذاء قد حل محل الحياء في الحياة المعاصرة التي أفسدها المال. أما أولئك المتطفلون فلا يكتبون ولا يسمحون لأحد بأن يكتب.

ويكمن العنصر المؤسف في أن المرء لا يكتشف مثالب الكتابة وشرورها، بل شرور أية تجربة، إلا بعد أن يكون قد أوغل فيها فأطبقت عليه شبكتها واصطادته حتى صار الخروج منها أمراً محالاً أو شبيهاً بالمحال. فلقد حاولت أن أكف عن الكتابة عدة مرات، ولا سيما في الثمانينيات، ولكنني لم أستطع إلى ذلك سبيلاً، فكنت كلما توقفت عن النشر لمدة من الزمن عدت إليه من جديد، حتى صارت الكتابة داءً من أدوائي التي لا علاج لها بتاتاً. فأنا أعتقد بأن من واجبي أن أعزز اللغة العربية في طور تاريخي مخلخل أو مهزوز، وكل من محتوياته عرضة لزلزلةٍ قادرة على أن تطيح بأي شيء وأن تدمره أو تلاشيه بدداً. ومصير تلك الإمبراطورية التي كانت تسمى الاتحاد السوفياتي من شأنه أن يؤيد صحة هذا المذهب.

ومما يجعلني أُخفّض قيمة نفسي أنني لم أدرك سلفاً حقيقة الكتابة في هذا الطور الذي فار فيه النفط أو استحال إلى فيضان. إن هذا الطور الراهن ليس طور كتابة ولا طور آداب. وتلكم هي الحقيقة التي لم استوعبها قبل التخويض في هذه التجربة. ولهذا، أراني مصاباً بوهن الحدس السبقي أو بعطالة البديهة فيما يخص الشؤون العملية.

ولا يلطف شعوري بالندم على أنني كتبت سوى اعتقادي بأنني أخدم اللغة العربية التي يبتذلها الأميون أو يمتهنونها ويهينونها يومياً. فالكتابة لا مردود لها تقريباً، أكان مادياً أم معنوياً. فلقد صار من يكتب بشكل جيد كمن يكتب بشكل رديء، بل صار من يكتب ومن لا يكتب سيان ويستويان تمام الاستواء. وهذا يعني ضياع القيمة في اللافرق الذي هو حصيلة اللامبالاة. ولهذا أراني أشعر، حين أكتب، بأنني أبلط البحر. ومع ذلك، إلق ببذارك في رحم

الزمـان، ولسـوف يلـد الحيويـة والخيـر، شـريطة أن يكـون ناجيـاً مـن الآفـات والأسقام.

وفضلاً عن هذا فإن الكتابة منهكة حتى لكأنها اليرقـان. ومـع ذلـك، فإنـك لن تصادف من يثني عليك بكلمة طيبة واحدة، حتـى وإن كتبـت "الـدرة اليتيمـة". ولئن حدث هذا فعلى ندرة وحسب. وأمـا الـذين يشـتمونك ويكرهونـك فعـددهم لا يستهان به. ومن أراد أن يشتمك فإنه لا يعدم سبباً أو ذريعة يتذرع بها إلى ذلك.

ويتناسب حجم الشتائم التي سوف تكال لك مع حجم الجودة التـي يحتقبهـا كتابك تمام التناسب. فكلما أحسنت وأجدت استشاطوا غيظاً وازدادوا سباباً ولعناً، وذلك انصياعاً منهم لطبعهم الخديج. ولهذا، فإنني كثيراً ما أرى العداوة، ولكننـي لا أرى لها أيما سبب صدر عني. وعبثـاً تعـالج مثـل هـذا الداء العضـال، أقصـد الحسد، وهو الذي يجد له منبراً فـي عـالم الصـحافة الـذي لا أراه إلا علامـة مـن علائم انحطاط العصور الحديثة.

ولكنني أعلم أنني أمام خيارين: إما الكـف عـن الكتابـة، وإمـا الرضـى بـأن يشتمني كويتب أو تويفه في عقله لوثة، فلا يساوي قلامـة ظفـر. كمـا أن علـيّ أن أرضى كذلك بأن يسرقني هـذا أو ذاك مـن أدعيـاء الكتابـة، فينتـف نتفـة مـن هنـا وأخرى من هناك يزين بها مقالته أو كتابه. ولقد اختـرت الخيـار الثـاني لأننـي لا أملك البتة أن أخالف طبيعتي أو جملة السجايا التي تؤلف بنيتي الداخليـة، ثـم لأن الكائنات ليس في مقدورها أن تتمرد على قدرها الذي يأهلها من الداخل، أو علـى كنهه وجوهره ويقين أمره.

وأما ثالثة الأثافي فخلاصتها أن الذين يقرأونك ليسـوا سـوى قلـة طفيفـة، بل هي جد ضئيلة. فمن المفارقات التي لا رفع لها أن حضارة "اقرأ" لا تقرأ.

*   *   *

وعلى أية حال، فقد تابعت مسيرة الكتابة حتى الساعة الراهنة، إذ في سنة 1978 نشرت كتاباً آخر، فضلاً عن "بحوث في المعلقات"، وعنوانه "الغزل العـذري"، وقد صدر عن اتحاد الكتاب في دمشق. وبعد ذلك بسنتين نشرت كتابـاً رابعـاً هـو

"الشعر العربي المعاصر". ثم أصدرت كتاباً خامساً عنوانه "ما الشعر العظيم" (1981). وقد صدر هذان الكتابان عن اتحاد الكتاب العرب أيضاً.

وفي تلك السنة الأخيرة نفسها نشرت كتيباً عنوانه "مختارات من مواقف النفري". والنفري كاتب صوفي دفع النثر إلى ذروة لا تبذها أية ذروة أخرى سوى الذروة القرآنية وحدها. والحقيقة أنني قد بدأت أتعرف على التراث الصوفي سنة 1966 يوم قرأت "ترجمان الأشواق" لابن عربي، ولا قيت فيه روحاً تختلف كثيراً عما سواها، وذلك لرقة ذلك الديوان وانفتاحه على جميع الاتجاهات، وإن يكن الشرح الذي كتبه الشيخ لديوانه ذاك لا يروقني لأن فيه الكثير من التمحل. والطريف أنني قرأت "رأس المال" لكارل ماركس في تلك السنة نفسها وأعجبت به أيضاً.

وبعد سنتين طالعت رسائل ابن عربي، ثم طالعت "فصوص الحكم" للشيخ نفسه، وكذلك "عوارف المعارف" للسهر وردي البغدادي. وتوالت علاقتي بالموروث الصوفي واستمرت حتى اليوم. وقد أحببت ذلك الموروث كثيراً لأنه ينطوي على شيء يخاطب العمق أو الباطن نفسه.

ولاحظت أن الصوفيين كانوا دوماً يصطدمون بالسلطات، وهذه حقيقة شجعتني على كتابة مقال عنوانه "الصوفية يسار الفكر العربي". وقد نشرته في مجلة "الآداب" البيروتية، وذلك في شهر نيسان سنة 1975، على ما أرجح. ومن الطرائف، أو من المفارقات، أنني ظللت على اتصال بالتراث الصوفي خلال تلك الفترة القصيرة التي قضيتها عضواً في الحزب الشيوعي الفلسطيني، والتي لم تدم أكثر من سنة ونصف السنة، إذ انسحبت في شهر أيلول سنة 1973.

*　　　*　　　*

ومما هو واضح أن كتبي تدور على الشعر، باستثناء بعض الكتيبات المخصصة للتاريخ والصوفية، فضلاً عن كتاب عنوانه "مقال في الرواية". فلقد أحببت الشعر كثيراً منذ طفولتي الباكرة، وما زلت أحبه حتى اليوم. فما برحت أستمتع بقراءة دواوين الشعراء القدماء، ولا سيما المتنبي والمعري وامرئ

القيس وأبي نواس وأبي تمام وابن الفارض. كما أنني ما فتئت أستمتع بمطالعة دواوين الشعراء الأوربيين ولا سيما الشاعرين الإيطاليين بترارك وليو باردي، والشاعر الإنجليزي وردزورث. ففي مذهبي أن الشاعر أو الفنان بعامة، هو روح يحاول أن يتصل بالجانب الأثيري من جوانب الحياة.

وكنت في صباي وشبابي أواظب على صنع المختارات الشعرية التي اعتددت على تكديسها ومراكمة دفاترها وأوراقها حتى أضيق بها ذرعاً لكثرتها، وذلك بعد اقتطافها من مصادر شتى أو كثيرة التنوع. ولكنني أتخلص من ركامها بعدما أغربلها وأنخلها فأستخلص صفوتها أو نخبة محضها، فتصير شيئاً يستحق أن يسمى مختار المختار. ولا زلت أحتفظ ببعض من تلك المنتخبات النفيسة حتى اليوم.

ولكنني ما أحببت شعراً بقدر ما أحببت الشعر التراثي، وذلك لما فيه من عواطف حميمة صادقة، أو من وجدان دافئ أصيل. ولقد اشتط أولئك الذين أخذوا على ذلك الشعر مأخذاً مؤداه أنه ضحل الخيال وقليل الاحتفاء بالصور الفنية. فهم لم يتنبهوا إلى المبدأ الآخر الذي يتأسس عليه شعرنا التراثي، ألا وهو الوجدان الصادق المشحون بحرارة العاطفة ونبل الفؤاد البشري. وفي ميسور المرء أن يتعرف على هذه السمة في عينية الصمة القشيري، التي أراها من أعظم الشعر وأجوده، وذلك لأنها تحتقب الشعور الأصيل بالخسران والفقدان. ويبدو أن الوجدان ينبجس من الفقدان حصراً. فالمرء يجد بقدر ما يفقد، أو قل إن الوجد يكافئ الفقد على الدوام.

وقد تتبين صحة ما أقول إذا تصفحت هذه الأبيات الثلاثة الرائعة:

وأذكر أيام الحمى ثم أنثني ... على كبدي من خشية أن تصدعا
وليست عشيات الحمى برواجع ... إليك، ولكن خل عينيك تدمعا
كأنا خلقنا للنوى وكأنما ... حرام على الأيام أن نتجمعا

فكلما قرأت هذه الأبيات تذكرت مسقط رأسي الذي غادرته مرغماً، ولا سيما سهل الحمى المنداح إلى الشرق من بلدتنا، فأشعر بالأسى واللوعة في هذا

الطور الشائخ من أطوار عمري، إذ أظن أنني سوف أموت في المنفى، ولو بعد دهر، دون أن يسمح لي اليهود المتطفلون على بلادنا بأن أزور الأرض التي ولدت فيها. كما أن من شأن هذه الأبيات المأسوية أن تكشف الإنسان في حسرته ولوعته إثر تجربة الفراق والخسران. وهذا يعني أن الفقد يؤسس الوجد، مثلما تؤسس المسافة الحنين والأشواق. فمما هو ناصع أن هذه الأنسوجة اللغوية يستتب فيها عنصر الحنين الملتاع فيحيلها إلى شعر من الطراز الأصيل.

وعندي أن الخيال ليس العنصر الأول في أي أدب عظيم. وههنا يتبدى الخطأ المحوري الذي وقع فيه الشعر الحديث القائم على مبدأ خلاصته إعطاء الأولوية للشكل. ولئن فحصت الأعمال الأدبية العظيمة التي أنتجتها البشرية لتبدّى أن الوجدان الصادق الحميم هو سر عظمتها والسبب الذي جعل الناس يقدرونها أكثر من سواها. وروايات دستويفسكي مثال على صحة هذا المذهب.

فإذا تمكنت الفكرة من أن تصير شعوراً روحياً من شأنه أن يحرض العاطفة على التدفق الغزير صار النص الأدبي عظيماً وصار ذا قدرة على اجتياح الآفاق باتجاه جميع البلدان. فالغاية النهائية لكل ما هو قيمّ هي انكشاف الإنسان بوصفه شعوراً بوجوده، أي بوصفه حضوراً وجدانياً يتمثل العالم. وإن في الإنسان نزوعاً إلى السحر، أقصد أنه يحتاج إلى من يسحره أو يخلب لبه، إذ لا عشق إلا وهو نتاج سحر أو فتون. إن الخلب هو بيت القصيد في كل شيء.

ثم إن الأدب العظيم ينبجس من خلد نازح قصيّ، من الأغوار، أو من النائيات. وما يجيء من الغور والقصاء هو وحده القادر على البلوغ إلى مركز النفس والاستتباب هناك. أما ما جاء من السطح فلا يمس إلا سطح النفس، ثم يتلاشى دون أن يترك أيما أثر ذي بال. فمما هو مقبول تماماً أن الأشجار تكتسب قيمتها من ثمارها أو من تأثير منظرها على روح المتفرج. وهذا يعني أن نتائج الفعل هي المعيار الوحيد لأصالته أو لنذالته. وفي داخل هذا المذهب يندرج رأي فحواه أن الأدب، الذي هو فسحة شاسعة منداحة، له وظيفة جوهرية خلاصتها تعميق الحياة وتأثيلها وتزويدها بما يملأ فراغها ويضفي عليها الفحوى والدلالة. وفي ذلك إضمار مؤداه أن جمود الأدب هو نتيجة طبيعية أو تلقائية لجمود الحياة.

فلعل في السداد أن يقال بأن المبدأ الأول لوجود الإنسان هو قدرته على التأثير. فأنا أؤثر، إذن أنا موجود. ومن شأن هذا المبدأ أن يؤكد أن أهم ما في الإنسان هو انبثاقه من الداخل باتجاه الخارج.

وما من كلام عال إلا ذاك الذي يتيح للنفس فرصة البلوغ إلى صميمها أو إلى مركزها الخاص، وذلك لأنه يتيح لمضمراتها أن تجيء من الكمون إلى الوعي أو إلى التبلور الصريح، أعني إلى ساحة الشعور الذي هو أنفس النفائس كلها. ولهذا، فإنك حين تقدم على مطالعة نص أدبي، فإنك تكون على موعد مع نفسك حصراً، أو مع كنوزها الوفيرة الثرية. فكثيراً ما يخيل إليّ أنني حين أخلق فكرة من الأفكار أشعر بأنني أخلق نفسي، أو أعيد صياغتها من جديد.

* * *

ومهما يكن الأمر، فإنني ما نظرت إلى الفن منذ بدأت الكتابة حتى اليوم إلا بوصفه كفاحاً أخلاقياً ضد اتضاع الإنسان وسقوط العالم، أو لعله أن يكون صنفاً من أصناف الانسحاب الصوفي الرامي إلى النجاة من الابتذال المحايث لبنية هذه الدنيا البائسة. فما من هدف له إلا السمو، أو تزكية النفس وتخليصها من ميلها إلى الدناءة ابتغاء رفعها إلى أفق الطهارة والبراءة. وههنا بالضبط يتلاقى الفن مع الصوفية والدين والأخلاق. فكل فن لا يسهم في إعادة صياغة الشخصية من داخلها، أو لا يمارس الصقل على النفس التي لا تكف البتة عن إفراز الصدأ، بل تفرز الصديد في بعض الأحيان، هو شيء محروم من القيمة الجلى، أو قل إنه ليس فناً بأي حال من الأحوال. إن الفن حوار الإنسانية مع نفسها، أو هو الجهد الذي يبذله الإنسان من أجل تحويل النفس إلى لؤلؤة نفيسة. وكل حوار تحوير، وكل تحوير تغيير أو خروج من حال إلى حال.

وفي مذهبي أن العمل الفني الجيد دفقة حنين غنائي تبتغي أن تتجاوز العدم والبطلان بالخلق والابتكار، وبالسعي صوب الديمومة الباقية الراسخة. فالمعركة بين الوجود والعدم لا نهاية لها قط. وقد يجوز الذهاب كذلك إلى أن الفن محاولة جليلة يبذلها الفنان، الذي هو كائن أثيري شفاف، ليتصل برحم

الكينونة، أو بمنبع النشاط والمغزى، حيث يتدفق مسيل الدهشة والغرابة والانتشاء. ولعل من شأن هذا الاتصال بالعمق أن يزيل من أمام العين كل ما هو مياوم وشائع ومألوف وموقوت، بحيث لا يبقى هنالك سوى الباقيات، وذلك لأن الإنسان يتعرف على حريته وطاقاته المستورة التي كشفتها له شرارة الخيال.

ولكن لا بد من التنويه بأن الفن لا يصقل النفس ولا يغيرها إلا إذا أمتعها وخلبها أول كل شيء. وهو لن يمتعها إلا إذا استجاب للذائقة الحية الناضجة. إذن، ينبغي أن ينبثق من حساسية قوية وناجية من كل اصطناع وتزوير، أو من التكلف الذي هو داء الآداب والفنون في جميع أزمنة الانحطاط. وهذا هو مقتل الشعر اليوم، إذ صارت القصيدة، في الغالب، تنبثق من كون عمائي ناشف يجهل كل دفء وكل عاطفة أصلية. ولهذا فإنها تشبه اللغط والرطانة العجماء. ولكن القصيدة، أو الرواية ينبغي أن تكون مزيجاً من الاستجمام والتوتر والغموض والوضوح في آن واحد. فالدنيا مثنوية بكل نصوع، وما من شيء إلا وهو بنية تندغم فيها الأضداد. وفي الجواز أن يقال بأن تفسخ الفنون والآداب هو نتاج لتفسخ الحياة نفسها. وكل تغير عميق في حياة الناس أو في مجتمعهم سوف يغير صفات الفنون والآداب على نحو تلقائي. وبداهة، إن حجم هذا التغير الثاني سوف يتناسب كثيراً مع حجم التغير الأول.

ويا طالما أكدت وشددت على أن النص الأدبي لا بد له من أن يمتع الذائقة كي يتأهل لممارسة التأثير، بل كي يصير صالحاً للقراءة، وإلا فإن مآله إلى الخمول والغفلان. ومع ذلك، فإن معظم ما يكتب اليوم من أدب ههنا محروم تماماً من هذه السمة الجوهرية الشارطة للديمومة أو للبقاء، وكذلك للانتشار الأفقي في جميع الاتجاهات. إن معظم ما ننتجه في هذه الأيام ليس سوى صنف من أصناف السفاسف لا قيمة له. إذن، يضيع الصوت النصوح في ضجيج هذا الزمن النفطي الصاخب المزدحم المعكور.

أفي غير غابات الكلس تلعلع أغرودتي؟

*   *   *

لعل مما هو واضح تماماً أن العالم العربي ينتج كمية كبيرة من النصوص الأدبية كل يوم. ويبدو أنه قد أحل الكمية محل النوعية، وذلك لأن معظم هذا الأدب لا يصلح للقراءة. فلو أنني خُيّرت بين أن تضيع المعلقات، أو ديوان امرئ القيس وحده، وبين أن يضيع جل الشعر الذي أنتجته اللغة العربية طوال السنوات الثلاثين الأخيرة لما اخترت إلا الخيار الثاني، وذلك لأن معظم هذا الشعر ضحل، على الرغم من ميل القصيدة الحديثة إلى تعكير اللغة ظناً منها أن العكر هو العمق. نعم، لقد حل العكر محل الصفاء الماسي الشفاف، على الرغم من ذلك الادعاء الزائف بأن القصيدة الحديثة تعمل وفقاً لمبدأ الايماء والايحاء.

ولو خيرت بين أن يضيع الشعر الجاهلي أو أن يضيع الأدب العربي الحديث منذ البارودي حتى اليوم لاخترت الخيار الثاني. فمعظم الأدب العربي الحديث لا يزيد عن كونه أزيز كلمات عمياء وطنين عبارات جوفاء، ولهذا فإنه من ذلك الصنف الذي إذا قرأته أو لم تقرأه سيان. وربما جاز القول بأن معظم شعر الحداثة يصدق عليه هذا البيت:

فيا ضيعة الأشعار إذ يقرضونها
وأضيع منها من يقل إنها شعر

وفي الصلب من مذهبي أن الحياة الحديثة، أعني حياة الاستهلاك والتضخم المالي، لا تملك أن تعزز الشعر الأصلي الذي أراه صورة لباطن يكابد الوجود من حيث هو نقص أو معاناة وحرمان وألم وافتراس دائم لروح الإنسان. فالعذاب المباشر، وكذلك الحنين إلى ما يملأ ويعني، ذاك هو بيت القصيد، وليس التجريد الأجوف الخالي من كل دلالة تدل على الأصالة. إن الأدب الأصلي، أدب شكسبير ودستويفسكي، هو أدب جحيم وانخلاع واغتراب ومكابدة ولوعة على كل خسران وفقدان. أما شعر التجريد المعكور فلا يزيد عن كونه لغواً سوف تلغيه الأيام.

فكيف يمكن للشعر في زمن النفط أن يصير عظيماً وقد بتر صلته بالإله والطبيعة والمرأة والقيم العليا، ولا سيما الطيبة والضمير والصداقة والكرامة

والشرف والخير والحرية والعدالة؟ لقد أفرغ الحياة من محتواها وراح يتعامل مع أصدائها، بل حتى مع أشباحها وتجريداتها المعقومة التي لا تنم عن أية تجربة داخلية مترعة بالفحوى وثراء الروح. فمن المألوف أن الشاعر الجيد هو أحسن المنافحين عن الحياة، وحتى حين ينتقدها فإنه يناضل عنها ويبتغي تصحيحها لكي تظل جديرة بأن تعاش. أما أن يتمترس في داخل التهويم والتجريد، فهذا يعني أنه قد خان رسالته، أو استقال من الالتزام بها وأخلد إلى السكينة والدعة والحياد.

وقد ترى، في بعض الأحيان، شاعراً يكتب بلغة كلها عذوبة وسلاسة، أو ذات ملمس رخامي، ولكنها ليست مأهولة بأي محتوى ذي بال. ويستطيع اللبيب أن يدرك دون مشقة أن مثل ذلك الشاعر يحاول أن يدغدغ شعور القارئ بتأثير سهل على ذائقته، فيوهمه، ولا سيما إن كان فقيراً إلى الحصانة الذهنية، بأن شعره الخلب هو الشعر نفسه، إذ قد ينتحل نعومة أو بريقاً يؤهله للانطلاء على الناس، مع أنه لا يزيد عن كونه نسخة شبحية عن الشعر الحقيقي، نسخة مبرقشة أو مزخرفة، ولكن زيف هذا الصنف المزوّق من أصناف الشعر لا تنطلي على الحصيف أو على الحصين. ولقد اعتدت منذ زمن طويل على تسميته باسم الخواء الأنيق.

ومن صفات هذا النوع أنه يحيل علاقة الرجل بالمرأة إلى صورة حادة تستحضر الجسد وملابسه وتفاصيله وملحقاته التي تنم عن شيء من الترف المادي وكفى. وهذا يعني أن حضارة الشكل والأزياء والاستهلاك قد زاحت حضارة الروح المطهم الأنيس وحلت محلها إلى حد بعيد. فما كان للناس أن يمجدوا شاعراً من هذا الفصيل إلا لأنه متخصص بموضوعة تقتضي الأعراف الأخلاقية المرعية أن يتحفظ عليها المرء في مجتمعات الكبت والقمع، حيث الناس يعانون من قسر وكبح مريعين، بل يقاسون جميع أصناف الجوع والإحباط وإهدار الكرامة. وهذا هو ما يفسر نجاح ذلك الشعر وانتشاره على نحو لم يؤلف من قبل.

* * *

وبفعل هذا التجريد الأجرد الأعجم، والماحق لرعشة الانخطاف، فإن القصيدة المعاصرة لطوفان النفط، كثيراً ما تكون فتاتاً مبعثراً لا يقبل الاندماج في عجينة واحدة، فتظهر أجزاؤها محكومة بالتشتت أو بالتضعضع الذي يحرمها من التمحور حول محور واحد يكون لها كالخيط للسبحة أو للقلادة. فمن الواضح أن الشعر اليوم يفضل التبعثر أو التبدد على التماسك والتراص، ولكنه يتمحل التعبير السلس الأملس، في كثير من الأحيان، حتى كأنه يحاول أن يهذب اللغو. وربما جاز الزعم بأن أغلب الشعراء في طور النفط لا يدركون أن الأصالة والعمق حكر للعباقرة وحدهم، ولا يقوى على أي منهما سوى الأقوياء.

وإذ تتجاور شذرات القصيدة أو أنسجتها تجاوراً عشوائياً يحرمها من مزية الالتحام أو التضام، أو حتى من الارتكاز إلى نقطة راسخة قد يصح أن تسمى بؤرة الازدلاف، فإن المرء لا محيد له عن أن يشعر، حين يقرأ الكثير من القصائد الحديثة، بشيء من التدبق، بل حتى بالتخويض في لزوجة هلامية رجراجة تحرمه من كل متعة، أو من كل اتصال أصلي بالحيوية الكلية، وقد يصح القول بأن هذه المتعة الناجمة عن الاتحاد بحيوية النص الأدبي ونبضه وتدفق فحواه هي بين الغايات الأولى لقراءة الأدب في كل زمان ومكان.

وفي كثير من الأحيان تأتي القصيدة الحديثة عديمة التجانس بسبب مبدأ التفكك الذي ثلب أسلوبها، فتباينت فقراتها أشد التباين حتى لكأنها تشبه الطعام في كشكول المتسولين. وهذه حقيقة يعرفها من له خبرة طويلة بالشعر الحديث. فالشاعر الجيد يشبه النحلة، وهي التي تجلب الرحيق العذب من زهور متباينة وكثيرة جداً، ولكنها تحيله إلى غذاء شهي مستساغ ومتجانس تمام التجانس. ويبدو أن ثمة الكثير من الاختلاس المكتوم، وكذلك الكثير من المحاولات الهادفة إلى تقليد هذا أو ذاك من مشاهير الشعراء. يقيناً، إن الطفيليات أو الفطريات التي هي واحد من أهم مثبطات الكتابة، قد جعلتني أمقت اليوم الذي نشرت فيه أول مقال من مقالاتي التي لا تحصى.

وفي اعتقادي أن الأزمة كلها أزمة أسلوب، بل إن لفظة "الأدب" ولفظة "الأسلوب" اسمان لشيء واحد بعينه، ما دام النص لا يملك أن يكون إلا نسيجاً لغوياً أو منظومة من الكلمات. فلا بد من تغيير الأسلوب كله إذا ما أريد لهذا الشعر أن يتغير نحو الأفضل. ولعل في الميسور أن ندرك الأسلوب الجيد إدراكاً فورياً من سمة بارزة خلاصتها أنه يفاجئك بأخيلة عذراء، كما أنه يؤجج اللغة ويشعل ضرامها، ويحيل الألفاظ إلى جواهر تتوهج وتتلألأ كأنها الأنس نفسه. فهو يجعل اللغة تنحو نحو تجاوز ذاتها بحيث تصير لغة أخرى، انزاحت بشيء من الاعتدال بعد ما تخلصت من المنطق والاتجاه الأفقي. وبذلك فإنها تغدو لغة داخل اللغة.

وههنا يسعك القول بأن حيوية الأسلوب الجيد هي الترجمة الأولى لأصالة الروح ونضارتها وقدرتها على تحسس الحياة. ولكن هذا الشأن لا يملك أن يتبدى إلا من خلال لغة جمعت المتانة إلى اللدانة في آن معاً. ولكن أهم ما في أمر هذا الأسلوب المنزاح دون اعتلال أو اختلال هو أنه ينطوي على فكرة مؤداها أن الإنسان كائن مغرم بصنع الأُنس في عالم موحش سقيم. وما لم يكن الأسلوب مبنياً وفقاً لهذا المبدأ، فإنه لا يمثل سوى الارتكاس في العجمة والشيئية الخرساء.

*   *   *

بيد أن النفوس المطهمة الرائقة، أو ذات الحميّة والسورة، هي وحدها القادرة على أن تمنح العمل الأدبي مزيته أو قيمته، وذلك لأنها شديدة القدرة على تزويده بفلذة من السر الذي لا تحوزه إلا تلك الفطر الفائقة، حتى لكأنه وقف عليها دون سواها من الناس. وبحيازته لسر الخلق فإنه يحوز حساسية مكرسة للذائقة وذات تأثير عميق. ويلوح لي أن عظمة كل إنجاز، أكان فنياً أم غير فني، تتناسب طرداً مع قدرته على التأثير. ومما هو معلوم أن نظرية التأثير معروفة منذ أيام أفلاطون، الذي لم يرفض الشعر إلا لما يتركه من آثار على نفوس الناس.

وإنك لتقرأ اليوم أكداساً من النصوص الأدبية، ولكن دون أن يترسب منها في ديمومة روحك سوى النزر اليسير، أو إنها لا تأثير لها إلا نادراً، وما ذاك إلا لأنها نتاج للفجاجة والضحالة والتفلطح، أي إنها محرومة من العمق والاستسرار. فمما ينبغي أن يكون ناصعاً للجميع أن الانبهام الذي يؤسس القصيدة الحديثة ليس العمق الذي تسعى إليه العبقرية في كل زمان ومكان.

ومما هو جدير بالشرح والتمحيص أن ثمة حقائق تكاد أن تكون منسية، مع أنها ركائز أولية، أو مما يؤسس الفنون والآداب كلها. وأهم هذه الحقائق ثلاث:

أولاً- ينحني الشكل الفني الجيد على محتوى جميل ممتع أو منعش، حتى حين يكون مأسوياً يطوف حول الفاجع والمكروب. وهذا يعني أن كل أدب عظيم ينبع من وجدان حي ويتوجه إلى وجدان آخر بغية ايقاظه على وعي البؤس، ولكن بطريقة عاطفية أو انفعالية. فالوجدان الصادق والمهموم بهم الشقاء على نحو عميق، أو قل وجدان المكابدة والمقاساة هو الينبوع الأول لأعظم انجازات الأدب في جميع أنحاء العالم. إن أدب الوجدان، أو الشعور المنفعل وليس أدب الشكل، ولا أدب الصورة والخيال، هو وحده ما يستحوذ على المرتبة العليا من مراتب الانتاج الأدبي دوماً. وعندي أن معظم الأدب العربي الحديث طفيف القيمة لأنه لا يكابد أي معضلة على نحو أصيل.

ثانياً- إن الأخيولة أو الفكرة التي تستطيع أن تصير من الفصيلة الوجدانية، وكذلك الرعشة الباطنية التي تستطيع أن تصير فكرة أو أخيولة، هما وحدهما اللتان تصنعان أدباً عظيماً ترحب به الديمومة والبقاء. فبغير العاطفة الأصلية أو الشعور الحميم لن يكون هنالك أدب جيد بتاتاً. وهذا يعني وحدة الوجد والخيال، أو التغام كل منهما بالآخر، بل قل حلول الانفعال الطيب في الصورة المدمثة الهيفاء والناجية من الميوعة والانسياح التهويمي أو التعويمي. ولهذا، فإن على الشكل الفني أن يكون ذا حواف لا تخلو من رصانة، ولكنها لا تخلو من مرونة أو لدانة، في الوقت نفسه. إن الاعتدال هو قيمة القيم في كل شيء، أما التطرف فهو اسفاف أو شكل من أشكال الانحطاط.

ثالثاً- لا بد للأسلوب الجيد من أن يجيء ناجياً من التشنج والتيبس، ومزوداً بالطراء اللطيف والدفء المنعش، وقادراً على الإيماء أو على التأشير، بحيث يملك أن يخطف ويأخذ إلى البعيد، ولكن شريطة ألا يستحيل الكلام إلى أحجية أو لغط لا مضمون له ولا تأثير، إذ لا يستطيع الأسلوب المنسرح الرتيب والسادر في الاسترخاء أن ينعش القارئ ويترك فيه أثراً عميقاً يملك أن يملي احترامه ويؤكد قيمته. فالجملة المخضلة الناجية من الرهل والشحوب هي الجملة الأدبية بامتياز. وربما جاز القول بأن امتزاج الظل والضوء هو ما يصنع جودة الأسلوب. ويبدو أنه ما من خلق عظيم إلا وهو نتاج لتزاوج بين نقيضين متمايزين تمام التمايز.

ومما هو بديهي أن ما يندرج في الأسلوب من نضارة هو نتاج لنضارة الروح الذي خرجت منه. "قل كل يعمل على شاكلته." فلا مراء في أن فاقد الشيء لا يملك أن يمنحه للآخرين.

وفي مذهبي أن على الكاتب الأدبي أن يصنع لغة داخل اللغة، بل أن يصنع لغة تتجاوز لغة العمل والمياومة، أو لغة الواقع جملة، بأمداء مديدة لا يجوس خلالها إلا المطهمون. ولا بد من تجديد اللغة على الدوام، وذلك ابتغاء صيانة بكارتها أولاً، ثم لكي تواكب الحياة التي تجدد نفسها دون انقطاع، ثانياً. ولا خلاف على أن إعادة توليد اللغة هي وظيفة الموهوبين ذوي الاستطاعة الاشتقاقية وحدهم، أو قبل سواهم من بني آدم وحواء. وفي هذا الأمر أراني أخص الكتاب الأدبيين الذين هم عندي سدنة اللغة وكهنتها وأقدر الناس على تطويرها وتلوينها بشتى الألوان والأصباغ. وبمثل هذا الفعل فإنهم ينقذونها من التأسن أو من الركود، ويضمنون لها السيولة التي هي السمة الأولى للحياة.

*　　　*　　　*

أما المسرح فلا أعرف من كتب فيه باللغة العربية نصاً متميزاً قط. فمسرحيات شوقي يعوزها التوتر والاحتدام. ومسرحيات الحكيم تعوزها الحرارة الوجدانية التي لا بد منها ابتغاء التخلص من الفتور وركود الحركة.

فمع أن أسلوبه طلي رشيق، فإنه طفيف التأثير، وذلك لأنـه يفتقـر إلـى العمـق أو إلى العنصر الوجداني الخصيب. ومما هو واضح أن مسرح الحكـيم يـدور علـى حفنة من الأفكار الذهنية، وهو بذلك يشبه ابسن وبرنـاردشو اللذين يفكـران أكثـر مما يشعران، وذلك عكس ما يفعل الكاتب الأدبي الممتاز.

وأما الرواية فلا وجود لها في اللغـة العربيـة إلا علـى نـدرة وحسـب. إن الصـدم طريقـة مـن أحسـن طرائـق المعرفـة. فـإذا مـا قارنـت الروايـة العربيـة بالرواية الإنجليزية من دكنـز حتـى لـورنس، أدركـت البـون الشاسـع، أو الفـرق الذي يشبه المسافة الفاصلة بين الثرى والثريا. وعندي أن الرواية فن أوربـي لـم ينجح خارج أوربا إلا قليلاً وحسب.

ولكن، ماذا عن جائزة نوبل التي أعطيت لنجيب محفـوظ؟ إنهـا جـائزة لا تعطى إلا لأسباب سياسية في هذه الأيام، بغض النظر عن كون القامـة باذخـة أم قميئة. ففي ظني أنها ما أعطيت إلا لمصـر التـي ركعـت فـي معسـكر داود أمـام مناحيم بـيغن، بطـل ديـر ياسـين الـذي حمـل بعـض الأطفـال الفلسـطينيين بيديـه وقذف بهم فـي بئـر كانـت هنـاك. وهـذا فعـل مـن صـلب التـوراة، مـن محضـها وخالص كنهها وصـميمها. ومـع أنـه فعـل همجـي وخسـيس فقد أيـده الشـرقيون والغربيون والبابويون والعلمانيون، وسواهم من المرضى والممرورين.

وبودي، في البداية، أن أبـين مزيـة محفـوظ الأولـى، بـل مزيـة الروائـي العربي بوجه عام. إنهـا الصـدق فـي تنـاول قضـايا المجتمـع، أو فـي الاحتجـاج الحار على رداءة الواقع، والرغبة الحميمة في تغييره نحو الأفضل. وهـذا يعنـي أن خلاف النقد مع الأدب ليس على المحتوى، وإنمـا هـو علـى العمـق، أو علـى الكيفية التي تجلى فيها المحتوى أمام العيـان. إن النيـة وحـدها لا تكفـي، إذ لا بـد من الموهبة أو العبقرية التي هي القدرة على الخلق والابتكار.

ففي شعوري أن محفـوظ لا يتمتـع بالسـحر أو بعنصـر الخلـب الـذي هـو ينبوع الجذب الأول، أو أحد ينابيع القيمة، لأنه المصـدر الأكبـر للمتعـة الذوقيـة. وقـد لا يخفـى علـى أي خبيـر فـي شـؤون الأدب أن أسـلوبه فضـفاض ومباشـر وشديد الافتقار إلى الظلال، لأنه لا يتمتع بالانزياح والشاعرية، أو بالقدرة علـى الخطف، حتى لكأنه أسلوب الصحافة وليس أسلوب الأدب، ولـهذا فإنـه لا يتمتـع

بالعمق الكافي الذي لا يملك أن ينجزه إلا من يستطيع الغوص في لجة الماوراء. ففي مذهبي أن الرواية ينبغي أن تحوز شيئاً من العنصر الشاعري في أسلوبها، وذلك لكي تتملك القدرة على الإمتاع، الذي هو ينبوع الجذب والتأثير.

وأخفقت رواية "أولاد حارتنا" في إنجاز أي تماس أصلي مع الماوراء، لأنها لم تنج من الضحالة ولم تدخر أية رموز أصلية، فما قد ظنه الناس رموزاً لا يعدو كونه كنايات ساذجة أولتها الشخصية العربية اهتماماً كبيراً، وذلك لأن تلك الشخصية ما زالت بغواً لم تنضج بعد. وما كان لتلك الرواية أن تنال هذا الاهتمام وهذه الشهرة إلا لأنها تمس أول المحرمات الثلاثة: الدين والمرأة والسلطة. فإذا أردت أن تنال مجداً موقوتاً فما عليك إلا أن تعبث بواحد من هذه المحرمات في الصميم. أما الإبداع الحقيقي فهو البلاغة التي هي البلوغ إلى عقر الما وراء.

وثمة ضرب من ضروب التشابه بين هذه الرواية وبين رواية "الحرافيش" الرتيبة المملة الشاغرة من أية دلالة مهمة، وذلك من حيث أن الاثنتين معاً لا صلة لهما بفن الرواية الحديثة من قريب أو من بعيد. وعندي أن كلاً من النصين لحاء بغير لباب، كما يعوزهما ذلك العنصر الساحر الخلاب الذي من شأنه أن يجعل الأدب شيئاً من أجل الذائقة والمتعة الفنية. ولا ريب في أن العنصر الشعري الذي تحتاجه الرواية (بل الحياة كلها) كما يحتاج الطعام إلى الملح هو جزء من قوة الخلب التي تضفي القيمة والعذوبة على جميع الأشياء.

فلعل في ميسورك أن تستقرئ من النصوص الروائية ما فحواه أن الروائي العربي، في بعض الأحيان، يظن أن وظيفته الوحيدة هي أن يشرح فكرة، أو يجسدها في شخصيات وأحداث. ومما هو واضح أن هذه الفكرة المجلوة على صفحات النص وثيقة الصلة بالحياة الاجتماعية والسياسية العامة. وعندي أن هذه الوظيفة ليست المهمة الوحيدة لأي روائي كبير، بل هي ليست مهمته الأولى، لأن مهمته الأولى هي أن ينجز الاتصال بالعمق، وأن ينتج ما هو محبوب وجذاب أو خلاب. إن عليه أن يخلق شيئاً من أجل الباطن العميق. فغياب العنصر الجاذب يحرمه من تعاطفك مع قضيته وشخصياته وجملة

مسعاه. ولا أبالغ إذا زعمت بأن الكاتب الأدبي الكبير، ونموذجه دانتي وشكسبير، هو عاشق أصيل مغرم بالجمال يغازله حيثما وجده.

وقد أرى إلى رواية "مدن الملح" التي كتبها عبد الرحمن منيف، والتي هي عينة من النتاج الروائي إثر انكفاء محفوظ، بوصفها محاكاة للروايات الاجتماعية التي أنتجها هذا الأخير، ولكنها أدنى منها مستوى وأضعف من حيث القدرة على الاجتذاب والتأثير. ففي الحق أنها كتبت على عجل، أو قل إنها لم تطبخ على نار لينة، شأنها في ذلك شأن معظم النتاج الأدبي في البلدان العربية خلال السنوات المائة والخمسين الأخيرة.

وفي الحق أن محفوظ كثيراً ما ينتج من الشخصيات ما هو جدير بالاحترام. ولا أحسبني أجافي الرشد إذا ما زعمت بأن المعيار الأول لجودة الكاتب الروائي هو قدرته على إنتاج شخصيات روائية لا تنسى بسبب ما تدخره من طاقات روحية أصلية.

وربما أصبت إذا ما ادعيت بأن "قصة حب مجوسية"، وهي لمنيف نفسه، لا تخلو من أصالة وجدانية جاءتها مما تتمتع به الشخصيات من حضور نسبي. ويبدو أن على النقد أن يرضى بالنسبية وبالمراتب التي تتوسط بين الجودة والرداءة. ولئن لم يفعل فإنه لن يصادف أيما أدب حديث بتاتاً. وقد وجدت هذه الرواية الأخيرة أفضل من الثلاثية، أعني "مدن الملح"، التي لا مأثرة لها سوى غايتها الصادقة، وهي تتلخص بشرح التردي الذي آل إليه المجتمع في هذا الطور النفطي الراهن. ولكن النيات ليست القاعدة الأولى في مضمار الفنون والآداب، إذ القاعدة هي بالضبط كيفية عرض المحتوى.

وقد يحالفني السداد إذا ما زعمت بأن الروائي العربي، في الغالب الأعم، قلما تتمتع شخصياته بقوام متراص أو متين وجميل في آن واحد. كما أن بنيان رواياته كثيراً ما يتأسس على مبدأ التضعضع نفسه. فهي كثيراً ما تقوم على مراكمة المسرودات التي لا أثر لها في روح القارئ الناضج، فلا تجد نقطة ازدلاف واضحة تزدلف اليها كي تنجز سمة الوحدة أو سمة الرصانة التي من دونها تضمحل الدلالة ويتلاشى المناخ الفني الأصيل. فربما شعر القارئ بأن شذراتها أو أنسجتها العامة هي أحياناً حشد من فتات لا يقبل الالتحام في عجينة

واحدة. ولعل أهم ما في أمر الرواية العربية أنها كثيراً ما تفتقر إلى الرعشة الوجدانية، وهي الشيء الذي يفتقر إليه معظم الأدب العربي الحديث. فعندي أن خصوبة الوجدان هي بيت القصيد في النتاج الأدبي كله.

*　　　*　　　*

وقد يشعر المرء في بعض الأحيان بأن ثم بلادة في حركة النص الروائي العربي، إذ يسير صوب نهايته المغلقة الصماء. ولكن ما هو أهم من هذا أن الشخصيات تتكون كلياً في الذهن أو في الوعي لدى غالبية الروائيين. فكأنما خيالنا، نحن الناطقين باللغة العربية، عاطل أو عاجز عن التشكيل والصياغة على نحو أصلي. ويلوح لي أن خيالنا مكبوح أو ملجوم من الداخل بحكم ألف سلطة وسلطة. وقلما ينم الروائي العربي عن أنه يدرك هذا المبدأ الشديد الأهمية في مضمار الإنتاج الأدبي بوجه عام: كل أدب عظيم هو تعبير عن الداخل حين يكابد الخارج، ولا سيما الكارث أو الفاجع، أو حين يتصل به على نحو حميم. كما أن الذات هي الأهم، وليس المجتمع. فالذات، أو علاقتها بخارجها، هي الموضوع المطلق للأدب الجيد في كل مكان وزمان.

ومن الروائيين العرب من يجهلون الغيب والغياب واللامرئي واللامحسوس، حتى لكأن ما هو معطى لمقلة العين يحق له وحده أن يملأ فضاء الرواية. وهذه هي الواقعية العينية أو البصرية المبتذلة أو المتطرفة في الالتصاق بالأرض. وحتى شخصيات "أولاد حارتنا" التي تتخذ من الماوراء موضوعاً لها (والماوراء هو العمق والجوهر والسر والغاية القصوى بين غايات الذهن) قد صيغت صياغة مؤطرة أو واعية إلى حد بعيد، فتراها تسير سيراً مستقيماً يجهل كل ترنح معتدل أو انحناء مقبول، مع أن من شأن الكاتب الكبير أن يوقظ في سريرة المرء قوى غافية، ثم يدفعها صوب السيولة والظهور في فسحة تتوسط بين الوعي واللاوعي.

وهذا يعني أن الروائي العربي كثيراً ما يجهل توتر اللامنطق أو احتدام اللامعقول، هذا الاحتدام الذي يتبدى جلياً في رواية "المرتفعات العاصفة"

لإيميلي برونتي، مثلاً، أو في بعض روايات دستويفيسكي، مثلاً آخر، كما يعني أن جل الروايات العربية يطغى عليها نازع التحديد المباشر والحواف الحادة العازلة، أعني أن مناخ كل منها يجهل التداخل أو اجتماع الضدين في البرهة الواحدة. وفضلاً عن ذلك، فإن الرواية العربية تكاد تجهل الغبش، أو الشيء اليسير من الغموض الذي يملك أن يزودها بمناخ فني أصيل. وهذا عنصر لا ينقص روايات دستويفسكي، أعني الروائي النموذجي العظيم. وإذ أبين ما ينقص الرواية العربية من مزايا فإنني لا أفعل ذلك إلا لكي يعمل الروائيون في البلدان العربية جادين على تجاوز وضع الرواية الراهن، وهو وضع لا يرضي الناضجين، فيما أحسب.

وربما جاز لي أن أزعم بأن معظم ما قدمته حركة الرواية العربية هو تدوين صور اجتماعية ناجزة ترتدي شخصيات جاهزة في الواقع، لا يجهلها أحد، ولا توحي بأي محمول غير مألوف، إلا في القليل من الأحيان. ولهذا، يسعك أن تضع الغالبية العظمى من الروايات العربية تحت هذا العنوان: الواقعية المفلطحة، أو الواقعية الفتوغرافية.

فكثيراً ما يتبدى الروائي العربي وهو يصر على أن يكون عالم اجتماع، أو خبيراً بمكان معين، أو بمدينة من المدن، بدلاً من أن يكون خبيراً بالنفس، أو ذا دراية بجعل الأشياء تشف عن مضمراتها الروحية اللطيفة، أو تشرح ما يندرج فيها من اللامعقول المتوتر المحتدم. إن الحميم، أو الدفء الجواني، هو واحد من الموضوعات الخالدة للأدب، في كل زمان ومكان، وذلك لأنه العنصر الأنبل في جبلة الإنسان. فهو الاسم الآخر للحب الذي نكنه للأشياء والكائنات، وهو الاسم الثاني للحنان الذي نكنه لأطفالنا وأهلنا ومرضانا والمضطهدين منا والمنكوبين، وهو اسم من أسماء المودّة التي ندخرها لأصدقائنا وجيراننا وجميع الذين يحتاجون عطفنا وابتسامتنا الصادقة.

*   *   *

ولكن في مضمار القصة وحدها ثمة إبداع حقيقي من حيث النوعية، وكثير من حيث الكمية. وهو موزع في الصحف العربية، ولا سيما المصرية والسورية واللبنانية. وأغلب هذا القصص المتميز قد أنتج في الربع الثالث من القرن العشرين، أي قبل أن يستفحل خطر النفط وطوفانه الجائح، وكذلك خطر التضخم المالي الذي جاء به ذلك الطوفان نفسه. وكان يوسف إدريس وزكريا تامر هما القائدين الكبيرين لحركة القصة في العالم العربي طوال عقد الستينيات. وفي الحق أن بعض القصص التي تركها الأول ترقى إلى مستوى قصص تشيخوف. ولعل في السداد أن يقال بأن الثقافة العربية أنجزت وثبة نوعية في غضون الربع الثالث من القرن العشرين. ففي تلك الفترة صار المسرح ظاهرة في العالم العربي، كما أن السينما المصرية قد تنامت إلى حد بعيد، وولدت الحداثة الشعرية المعتدلة، وازدهر النقد الأدبي وانتشر الإنتاج الروائي في الكثير من البلدان العربية حتى صار ظاهرة ملموسة وغزيرة الحضور.

واستطاعت الجامعات، وكذلك حركة الترجمة والصحافة الثقافية والبعثات الدراسية إلى الخارج، وهي مؤسسات اتصال بالغربيين، وهم المؤسسون الفعليون للدنيا الحديثة، أن تطور النقد الأدبي أيما تطوير. فظهر نقاد بعضهم جيد وبعضهم متوسط القامة في الكثير من الأقطار العربية، ولا سيما في مصر ولبنان، وكذلك بين الفلسطينيين الذين أظن أنهم أنتجوا أجود نقاد الأدب في زماننا هذا، وأخص بالذكر إحسان عباس الذي أراه ضليعاً في استنفار مضمرات النص أثناء برهة الاستيعاء، كما أراه شديد القدرة على التمييز بين الرفيع والوضيع، أي على إصدار حكم القيمة الذي هو أعلى وظائف الناقد الأدبي.

أما أنا، كعامل في حركة النقد، فأدعو إلى منهج روحي شفاف ينبثق من البصيرة والإشراق، ويتوسم الحقائق في العمائق، ولكن على نحو تلقائي ناج من الاصطناع والزيف، وجانح إلى إرضاء الذائقة عبر الاتصال بالهيف والجمال، وبكل ما هو من سلالة الألطاف الحسنى. ولكنني أرى أن الوظيفة الأولى للناقد الأدبي هي نبش المخبوء، أو تبيان الفحوى المستتر في طيات

النص، ولكن دون أي تمحل أو افتعال. وبعد ذلك يأتي حكم القيمة الذي من دونه تصير السيادة للامبالاة، فينحل الجوهر في اللافرق، وبذلك يتساوى سقف البيت وأرضيته.

وعلى أية حال، فإن هذا المنهج، الذي يجعل من مقولة الوجدان النابض الحساس مركزه ونواته، لا ينفي أن تعمل الزكانة على استنفار المضمرات المخبوءة في النص، أو استبار المكنون بالتفطن والحدس الألمعي. ومما هو مقبول أن هذا الاكتناه له قيمة جلى، وذلك لأنه يشكل برهة الاستيعاء، أو ينتسب إلى فقه الصميم، الذي هو أشرف أصناف الفقه.

ولعل في السداد أن يقال بأن النص الأدبي ملغمة ثقافية أو سبيكة معرفية كثيفة ينبغي شرحها ونبش مدخراتها. ولكن مثل هذا الفعل لا يكشف عن جودته ولا عن رداءته. ولذلك، فإن المعيار الذي يؤسس حكم القيمة هو حاجة ضرورية لا بد منها. فالعقل البشري معياري بحكم قوامه، وذلك لأنه معنيّ على الدوام بمثنوية المليح والقبيح.

*   *   *

وفي الحق أن تأليف كتاب هو عمل شاق يشبه مضغ الصوان، كما يقول أحد أمثالنا الشعبية. فمن المؤكد أن الكتابة الطويلة تترك أوجاعاً في الظهر، إذ تلحق به نوعاً من التشنج الدائم الذي لا يشفى. وإن لي تجربة خاصة مع كتاب عنوانه "مقدمة للنفري" كتبته بين تشرين الأول سنة 1995 وأيار سنة 1996. فبينما كنت عائداً إلى البيت من سهرة قضيتها مع زوجتي وابنتي سوزان لدى بعض الأقارب في شارع اليرموك، وذلك في شباط سنة 1996، كاد نفسي أن يتوقف، فارتميت على الرصيف في حالة إعياء ولهاث وعجز عن التنفس الطبيعي مريع. أما سبب تلك الأزمة فهو الإفراط في التدخين الذي رحت أمارسه أثناء الكتابة ولمدة طويلة جداً.

وبعد ما انتهيت من تأليفه في السادس عشر من أيار، سلمته للناشر في اليوم التالي. ثم سافرت إلى بلدة سلمية لزيارة أحد الأصدقاء. وفي المساء أصابتني أزمة تنفس حادة جداً، وأشد من الأولى بكثير، فقد شعرت وأنا أكابدها بأنني ألفظ آخر أنفاسي. فما كان من الأصحاب إلا أن نقلوني إلى المشفى الحكومي، حيث قضيت الليلة كلها هناك. وفي الصباح غادرت المشفى بعدما أسعفوني وتحسن وضعي كثيراً. وذهبت فوراً إلى الباص وسافرت عائداً إلى دمشق. وكان الإفراط في التدخين أثناء تأليف الكتاب هو السبب الفعلي لتلك الأزمة الثانية.

وقد أصابتني أزمات تنفس حادة أخرى ابتداء من آخر آب، مما اضطرني إلى ترك التدخين تركاً نهائياً. ولقد مرضت مرضاً طويلاً في صدري امتد منذ أواخر آب حتى أواخر تشرين الثاني سنة 1996، وقضيت تلك المدة في المشافي وبين أيدي الأطباء. ولكن تنفسي تحسّن كثيراً بعد تلك النوبة من نوبات المرض، لأنني أقلعت عن التدخين دون عودة.

ولقد كنا في تلك الفترة ثلة من الأصدقاء نجتمع مرة كل أسبوعين وندرس موضوعاً نكون قد حددناه واتفقنا عليه سلفاً. وتبدأ الجلسة بأن يتقدم واحد منا بمداخلة حول الموضوع ثم يبدأ النقاش. وحين جاء دوري في أوائل أيار سنة 1996، ألقيت مداخلة عن النفري وضحت فيها الكثير من القضايا التي ينطوي عليها تراث ذلك الرجل، وبينها فكرتان، أولاهما أن الكتابين اللذين تركهما النفري مكتوبان بأساليب متعددة لا تقل عن أربعة. وبينت صفات كل أسلوب بشيء من التفصيل. وأما ثانية الفكرتين فخلاصتها أن النفري ينبع من ينابيع كثيرة أهمها المانوية التي تؤمن بأن العالم منسوج من أضداد متناقضة أو من مثنويات في داخل كل منها مفارقة حادة.

وكان الدكتور خليل موسى بين الحاضرين في الجلسة، وكذلك الشاعر نزار بريك هنيدي والشاعر عبد القادر الحصني، وعدد آخر من الكتاب المعروفين. ولكن أهم ما في الأمر أنه كان هنالك شاب اسمه يوسف لا يزيد عمره يومئذ عن الثلاثين، ولم يكن يتعاطى الكتابة قط. وقد فاجأني حقاً عندما تناول الحديث وأخذ يبين أثر المسيحية على النفري بكثير من التفصيل الدقيق.

وهو شيء لم يخطر لي في بال بتاتاً. وكان كلامه مقنعاً تمام الإقناع. وهذا أمر من شأنه أن يدل على أن غير الكتاب قد يكونون على درجة عالية من الذكاء والانتباه والقدرة على الملاحظة بحيث يستحقون الكثير من الاحترام في بعض الأحيان.

* * *

قد يلاحظ المرء أن الكاتب كلما أسرفت أناه في التورم وأفرطت نرجسيته في الاستفحال، وكلما أغرق في التنفج العنتري السخيف، ازداد فهمه للواقع ضموراً وانكماشاً، فلا يستوعي إلا القليل مما يجري على الأرض من حوله، وذلك لأن محور اهتمامه ينحرف عن المرئيات إلى أناه المريضة السوداء التي تظن أنها المدار الذي تدور حوله الأفلاك.

ففي بعض الأحيان تلاقي هنا في دمشق كويتباً يعتقد جازماً بأنه الديك الخرافي الذي لا ينبلج الفجر إلا بعد أن يأذن له بالانبلاج، وإن لم يفعل فإن الشمس يتعذر بزوغها، فتظل محبوسة خلف الأفق إلى أجل غير مسمى. وهذا يعني أن الدون كيشوت الأدبي لا يخطر في باله أن عصر الكتابة الأدبية قد ولى مثلما ولى عصر الفروسية من قبل. ومما هو من السخافة في منتهاها أن كويتب هذا الزمن يريد البروز حتى ولو بالغش والانتهاز والطرق الملتوية.

أعرف كاتباً كان يكثر من التهجم على المتنبي، مع أنه لا يرقى إلى مرتبة شويعر، بل لا غلو إذا ما قلت بأنه لو ركب البراق لما لحق بذلك الشاعر الباذخ العملاق. ألا رحم الله امرءاً عرف حده فوقف عنده.

وأهم ما في الأمر أن بعضاً من كتاب هذا الزمان يجهلون السمة الإخائية، سمة الصدق والصداقة والنزوع الانساني النبيل. كما أن بعضهم أنانيون مغرورون ومفتقرون إلى الحيوية الداخلية، أو إلى نضارة الوجدان. فكيف يكتب أدباً عظيماً من كان بغير محتوى انساني عظيم، أو من لا يؤمن جازماً بإنسانية الانسان؟

* * *

ومهما يكن الأمر، فقد تعرفت على الكثير من الكتاب والكاتبات في هذا الزمان. وبودي أن أخص بالذكر كاتبة أراها تجسيداً لمبدأ الإخاء، وهي ماجدة حمود الناقدة الأدبية ذات الدراسات الواسعة المهمومة بهم المزية والحقيقة. وماجدة ليست صديقة وحسب، بل هي أخت لي على الأصالة والصدق، مع أن بيننا فارقاً في السن ليس باليسير. ففضلاً عن طيبتها التي لا تبذ، فإن دفء روحها لا يخبو قط. إنها المرأة الإخائية النموذجية حقاً. أضف إلى ذلك أن السعي وراء الحقيقة هو دأبها الدائم وشغلها الشاغل الذي لا تمل منه ولا تسأم.

ولكنني أشعر بأن من واجبي أن أذكر في هذا المقام امرأة استثنائية حقاً، أستلها من بين مئات النساء اللاتي تعرفت عليهن خلال حياتي. إنها سلمى الخضرا الجيوسي، الشاعرة الفلسطينية التي قابلتها عدة مرات في فندق المريديان بدمشق، وذلك في فصل الخريف من عام 1999. ولا أحسبني تعرفت على امرأة، طوال حياتي، أذكى من تلك المرأة النادرة، التي إذا قابلها المرء مرة واحدة، فإنه سوف لن ينساها خلال ما تبقى له من عمر.

وفي الحق أن معايشتي لأولئك الناس الطيبين هو نتيجة طيبة جاءتني بها الكتابة. وهذا يعني أن تلك التجربة لم تكن شراً محضاً بأي حال من الأحوال.

ثم إن تجربة الكتابة التي عشتها طوال السنوات الأربع والثلاثين الأخيرة، لم تكن تخلو حتى من سمو أو نبل. فمن شأنها أن تقنع الكاتب نفسه بأنه يحيا من أجل هدف كبير، وهو ممارسة فعل الخلق الذي يملك أن يجعله نزاعاً إلى التخلق بأخلاق الله. والإنسان كائن تتحدد قيمته بواسطة سعيه وراء غاية، أو بواسطة أهدافه جملة، بالدرجة الأولى. وربما حالفني السداد إذا ما صرحت بأنه ما من قيمة إلا لمن كان مهموماً بالقيمة والغاية الصالحة.

ولعل في الرشاد أن يقال بأن علينا أن نرى الشيء بوجهيه، السالب والموجب معاً، إذ إن مثنوية الأشياء هي الحقيقة البديهية الأولى التي يتنفسها المرء من المهد إلى اللحد.

الفصل الثالث
السفر

درَّت عليَّ كتبي شيئاً يسيراً من المال، فاستطعت أن أسافر عدة مرات إلى أوربا على نفقتي الخاصة. وكانت رحلتي الأولى إلى فرنسا، حيث قضيت شهراً ونصف الشهر في باريس وتور. وفي هذه المدينة الأخيرة رأيت نهر لوار الذي جرت على ضفافه معركة بلاط الشهداء عام 732م. وقد كانت السفرة في حزيران سنة 1975.

وعلى أية حال، رأيت الشعب الفرنسي عن كثب فوجدت فيه الكثير من الجلافة والنزق وسرعة الهيجان لأصغر الأسباب، وذلك على النقيض مما كنا نظن. ويبدو أن الشخصية الفرنسية مصابة بخلل حاد يعطب صميمها نفسه. فلم ترقني باريس الثرية المترعة بالجنائن والمتاحف والقصور والشوارع النظيفة والعريضة. إنها مدينة غنية جداً، ولكنها بلا روح، بل هي مدينة غربة واغتراب، تشتهي أن تصادف فيها إنساناً حقيقياً ولو بالصدفة. وما من شيء فيها قد شدني إلى حد الدهشة سوى متحفها، أعني اللوفر. إنه إنجاز عظيم حقاً. ترددت عليه كثيراً وشاهدت شطراً كبيراً من محتوياته المتنوعة. ولكنني أدركت أن القرصنة الفرنسية قد نهبت الكثير من كنوز الشرق ونفائسه الرائعة.

ومن الطرائف أنني رأيت في مكان من أماكن باريس، وبالقرب من نهر السين، رجلاً مسناً يبيع كتاباً فرنسياً عنوانه "حق الكسل". وقيل لي بأنه واظب على بيع ذلك الكتاب في المكان نفسه زهاء أربعين سنة. وبلغني أن الكتاب يشرح فكرة مؤداها أن الكسل أو العطالة حق من حقوق المواطن في المجتمع البرجوازي، وذلك لأنه كلما عمل أكثر ازداد تعرضاً للنهب من قبل رأس المال. ولكم تمنيت يومئذ لو أنني أجيد اللغة الفرنسية لأبتاع ذلك الكتاب وأطالعه، ولو من قبيل إرواء نزعة الفضول.

وفي السنة التالية، سافرت إلى بولونيا وزرت فيها عدة مدن، بينها وارسو وكتوفيتس في الجنوب وغدانسْك في الشمال، وكذلك كراكوف التي كانت العاصمة القديمة لتلك البلاد. كما زرت معتقل أوشفيتس المشهور، ورأيت فيه فيلماً وثائقياً يصور جنازة بعض القتلى الذين قتلهم النازيون. وقضيت شهر تموز في ذلك الإقليم ذي الطبيعة الجميلة. وهناك أجريت لي عملية جراحية صغيرة، إذ استأصلت إحدى الطبيبات ورماً كان في يدي اليمنى بين السبابة والإبهام.

ولاحظت أن الشعب البولوني الفقير نسبياً يختلف عن شعوب الغرب المترفة والفاقدة لكل ما هو إنساني كريم. ففي الحق أن الشعب البولوني بسيط وطيب، وإن كان لا يخلو من عنجهية أهل الشمال الأوربي وخشونة طباعهم.

وبعد سنة أخرى سافرت إلى هنغاريا وتشيكوسلوفاكيا وألمانيا الشرقية وبرلين الغربية. ومن برلين سافرت بالقطار إلى بولونيا من جديد. ثم عدت إلى تشيكوسلوفاكيا، ومنها إلى هنغاريا. ثم طرت من بودابست عائداً إلى دمشق.

لم ترقني برلين بتاتاً، إذ لم أجد فيها شيئاً جذاباً سوى متحفها الذي نهبت محتوياته من بلاد الشرق. أما براغ فهي مدينة مبنية في داخل جنينة. وأما بودابست فهي ساحرة أو خلابة، بل إنها تحفة من تحف الزمان. فإذا سرت في شوارعها شممت رائحة القدم أو رائحة التاريخ. وهي مبنية على ضفتي النهر الذي ينساب بأناة وهدوء في وسط السهل الأوربي العظيم. وهو سهل خصيب ترويه الأمطار الغزيرة فتجعله قادراً على إنتاج الحبوب والخضراوات المتعددة الأصناف.

وفي داخل بودابست يصنع الدانوب جزيرة صغيرة فيها نبع مياه حارة. وذهبت إلى ذلك النبع وسبحت في تلك المياه بصحبة بعض الطلاب السوريين. كما صعدت بالسيارة إلى ذروة جبل عليه تمثال كبير تجاوره بقايا معسكر للجيش التركي، الذي احتل تلك البلاد في عهد السلطان سليمان القانوني، بعدما أبيد الجيش المجري في غضون

ساعتين فقط. ومن تلك الذروة شاهدت المدينة كلها منتشرة على ضفتي النهر ولمسافة طويلة جداً. وإنه لمشهد لا ينسى بسبب شدة بهائه وجماله. إنها برهة استشراف يطل المرء خلالها على الحقيقة نفسها مجسدة ماثلة للعيان، وقد يشعر كأنه قبض بجمّاع يده على كنه الأشياء أو على سرها المخبوء.

ومن طريف ما جرى لي حينما سافرت من بودابست إلى براغ، أنه كان في مقصورتي أربعة مواطنين وشابان عراقيان عرفتهما من لهجتهما التي كانا يتكلمان بها وأنا ساكت. وجاء شرطي ليختم جوازات السفر. وتقدم إلى الشاب العراقي الأول وسأله قائلاً: تُرك؟ (أي، هل أنت تركي؟) فأجاب الشاب بالنفي. فسأله من جديد: إراك؟ (أي، هل أنت عراقي؟) فأجاب بالإيجاب. وعندئذ أخذ الشرطي جواز السفر من الشاب وختمه ثم قذف به في وجهه. وعاد فكرر الأسئلة والفعل نفسه مع الشاب الثاني وأنا أشاهد ما يجري. وقررت أن أضرب الشرطي إذا ما فعل بي الفعل نفسه، مهما تكن النتائج. فجاء وسألني السؤالين إياهما، وأجبت عنهما بالنفي. وعند ذاك سألني باللغة الفرنسية التي لا أتقنها: من أي بلد أنت؟ فقلت بالفرنسية: فلسطين. وسمعته ينطق كلمة "فلسطين" بكثير من الدهشة. والأهم من ذلك أنه وقف أمامي باستعداد وحياني تحية عسكرية نظامية. وأدركت فوراً أن هذه التحية ليست لي وإنما هي لشهداء الشعب الفلسطيني الكريم. ثم ختم جواز السفر ومضى. ولكنه سرعان ما رجع وبصحبته بضعة من زملائه الشرطة الذين أحاطوا بي وأخذوا يؤكدون لي باللغة الفرنسية أن هنالك تعاضداً بين فلسطين وتشيكوسلوفاكيا. وقد ابتهجوا كثيراً برؤية إنسان فلسطيني يزورهم في بلادهم.

*　　　*　　　*

وفي شهر تموز سنة 1978، دهم الحر الشديد مدينة دمشق بموجة عاتية جداً. فما كان مني إلا أن سافرت إلى لندن لأتجنب تلك الجائحة. وهناك رأيت الإنجليز عن كثب، وتأكدت من هويتهم التي لا

تسر الطيبين. والعكس هو الصواب، فلقد وجدت فيهم من المثالب أكثر مما وجدت من المناقب. وأولى مثالبهم التعبد لمامون، إبليس المال والثراء، وهذه حقيقة من شأنها أن تنفر المرء منهم وتجعله يمقت تلك الشعوب التي يهيمن عليها الصمت والعبوس.

فما أحسبني إلا على صواب إذا صرحت جهرة بأنني لم أجد في الإنجليز، ولا في الألمان أو الفرنسيين ما يمكن لي أن أحبه بصدق أو بعمق. فالفرد في تلك البلدان مبني على مبدأ الأنانية، ولهذا فإنه يجهل السمة الإخائية جهلاً مطبقاً، وهذا شأن قد يحرمه من الدخول في فصيلة البشر. ولست تجد البتة في تلك الأصقاع من ينوه بأي تآزر بين بلاده وبين فلسطين المنكوبة طوال عشرات السنين. والعكس هو الواقع، إذ إن الفلسطيني في نظرهم ليس سوى قاتل محترف، بل هو قاتل بالفطرة. نعم، الضحية عندهم هي المتهمة، بل المدانة سلفاً. والجميع هنالك ينسون أن بلادهم لم تمارس على الشعوب إلا القرصنة والنهب وسفك الدماء. نحن قتلة، مع أننا ضحايا جشعهم الذي يجهل الإشباع، أما هم فملائكة هبطت من السماء.

وفي أكسفورد التقيت الكاتب السوري كمال أبو ديب الذي سبق لي أن تعرفت عليه في دمشق. وأمضينا معاً بضعة أيام جميلة جداً. وكانت معه زوجته الإنجليزية روث التي تكتب الشعر بلغة بلادها. أما ابنتاه، فلا زلت أذكر اسم الكبرى منهما، وهو أمية، ولكنني نسيت اسم الصغرى التي لم يكن عمرها يومئذ يزيد عن سنة واحدةٍ.

ولقد ذهبنا جميعاً في نزهة إلى الريف المجاور الخلاب وذلك لشدة اخضراره وينع نباتاته وأشجاره. وبلغنا إلى مكان قريب جداً من ضريح بلفور الذي أسهم أيما إسهام في نكبتنا الفاجعة. وقد سوّلت لي نفسي أن أذهب إلى الضريح الذي لم يكن يبعد أكثر من مائتي متر، وأن أظل أبصق عليه حتى أمل. فهو صاحب الوعد المشؤوم الذي حكم علينا بموجبه أن نصير لاجئين مشردين تحت كل سماء، وبذلك حرمنا من أن نكون مواطنين في أرضنا العزيزة على أفئدتنا إلى حد التقديس. إنه

رجل شديد النجاسة، فقد أعطى ما لا يملك لأناس لا يستحقون. ولكنني سرعان ما سفهت تلك الفكرة السخيفة، وجزمت بأنها حماقة لا تجدي أيما جداء مهما يك نوعه.

وفي اليوم التالي ذهبنا معاً إلى الريف كرة أخرى، لنشاهد فرقاً شعبية راحت تمثل واحدة من كبريات المعارك التي جرت في الحرب الأهلية خلال عهد كرومول، وذلك عند انتصاف القرن السابع عشر. ولقد تم التمثيل في الأرض السهلية المنداحة التي جرت فيها تلك المعركة نفسها. وكانوا يلبسون الملابس الزاهية التي تنتسب إلى طراز هاتيك الأيام الغابرة، ويتسلحون بأسلحة شديدة الشبه بأسلحة ذلك العهد إياه. واللافت للانتباه أن لديهم من الخيول المسَوّمة الكثيرة ما يملك أن يؤكد للمرء أبهة ذلك الزمان الغابر. وفي الحق أنه يوم مدهش منعش لا ينسى..

وسافرت من أكسفورد إلى ستراتفورد حيث زرت قبر شكسبير العظيم، وهو في داخل كنيسة صغيرة وعلى مستوى أرضيتها، وقد كتبت عليه عبارة ترجو عابر السبيل ألا يزعج تلك العظام المدفونة في ذلك المكان.

ورأيت هنالك أناساً من جميع الملل والنحل، إذ كان يقام على مسرح تلك المدينة الضخم مهرجان لمسرحيات ذلك الكاتب الشهير، وكان الحصول على بطاقة لمشاهدة مسرحية من تلك المسرحيات أمراً يشبه المحال، إذ كانت المقاعد كلها محجوزة لمدة شهر كامل، واشتهيت أن أرى اثنين في ذلك الزحام يتكلمان اللغة العربية، ولكن هذا لم يحدث قط، فعشت في مدينة شكسبير، سيد الكتاب الأدبيين في أوروبا، وحيداً أكابد العزلة بين أناس لا يحصى لهم عدد، ومكثت ثلاثة أيام زرت خلالها بيته وبيت ابنته، والجسر القديم الذي كان على نهر الآفون في أيامه، كما تجولت في البرية المجاورة للبلدة، وهي أرض يملؤها نوع من الأزهار جميل جداً، ولكنني نسيت اسمه.

ولقد تعمدت أن أغفل ملتن الذي يراه الكثيرون بوصفه الشاعر الإنجليزي الثاني بعد شكسبير، والذي لم يسحرني في أي يوم من الأيام، فهو ليس أربد متجهماً وحسب، بل إنه يعتمد في شعره على ذلك الكتاب الرمادي الذي يسمى " التوراة "، والذي أحسبه محروماً من الشاعرية إلى حد الجفاف.

وسافرت من ستراتفورد إلى منطقة البحيرات الباهرة الجمال، فزرت ضريح وردزورث الذي أحبه حباً جماً، وقضيت هنالك ثلاث ليال أتجول في ذلك الريف الفتان، وزرت بيت الشاعر وتجولت فيه، كما زرت الكوخ الذي كان يجتمع فيه الشعراء الرومانسيون، وعلى رأسهم وردزورث وكولرج، والذي كانت دروثي، أخت الشاعر، تشرف على ترتيبه.

ثم رحلت نحو أدنبرة الباردة جداً، حيث عشت بضعة أيام وأنا أتجول في تلك المدينة الصغيرة، ورأيت وسطها جنينة جميلة جداً، فيها زهور يانعة نادرة، ولقد اجتذبتني تلك الزهور كثيراً فصرت أتردد غليها ومعي كتاب، فأجلس على أحد المقاعد وأطالع الكتاب ثم أعود إلى حيث أبيت، بعدما أتناول وجبة طعام دسمة أو مشبعة.

وعدت من أدنبرة إلى لندن بقطار سريع يسير مسافة مائة ميل في الساعة، فاستغرقت الرحلة أربع ساعات وحسب، وذلك لأن المسافة كانت أربعمائة ميل. وفي لندن عشت زهاء أسبوع هذه المرة، وزرت المتحف الوطني ورأيت الكثير من محتوياته المنهوبة من الشرق، ولا سيما من مصر والهند والعراق، فإذا ما زرت متحف لندن ثبت لديك أن القرصنة هي الصفة الأولى للإنجليز الأوباش، أو خدم اليهود، بل عبيدهم، الذين نهبوا ثروات الأرض طوال مئات السنين، كما شاهدت نهر التيمز وجسر لندن وساعة بغ بن.

ويا طالما استهجنت وجود كتاب إنسانيين عظام في تراث تلك الأمم الموغلة في توثين المال، وفي ممارسة العدوان على الأغيار، ولا سيما شكسبير، وغوتة، وفكتور هوغو صاحب " البؤساء" التي أراها رواية

بطلها الضمير البشري مجسداً في شخصية جان فالجان. ومن العجائب أن تتمكن إنجلترا، مباءة القراصنة، ومعقلهم الحصين، من أن تنجب شاعراً باسقاً وحساساً تجاه الطبيعة، مثل وردزورث، الذي أراه الشاعر الإنجليزي الثاني بعد شكسبير. ماذا؟ قراصنة وشعراء؟ إن هذا من العجائب. فيا لهذه الدنيا المنسوجة من المفارقات! فلكم هو أمر مثير للاستهجان، أن يعيش شكسبير، سيد الشعراء، في الطور التاريخي الذي بلغت فيه القرصنة أعلى ذراها على الإطلاق منذ نشوء الملاحة حتى اليوم.

* * *

وفي سنة 1979 سافرت إلى أثينا حيث قضيت أسبوعاً، أو زهاء ذلك، زرت خلاله آثار الأكربول الذي هو معبدها الشهير، والذي لم يبقَ منه سوى القليل، ولكن المدينة قد دهمتها موجة حر شرسة، فقررت الارتحال إلى الشمال أملاً بأن يكون المناخ أفضل، فسافرت إلى سالونيك، حيث قضيت ليلة واحدة، ثم غادرتها إلى بلغراد عاصمة يوغوسلافيا في ذلك الزمن. ولم أمكث طويلاً في تلك المدينة، إذ حاولت السفر إلى بوخارست، فذهبت إلى السفارة الرومانية لأحصل على تأشيرة دخول، فبلغوني بأن في ميسوري أن أحصل على التأشيرة عند الحدود. فأخذت القطار وسافرت. وتعرفت أثناء سفري على فلسطيني يكبرني بعشر سنوات، وأخبرني بأنه ذهب إلى السفارة الرومانية في بلغراد للحصول على تأشيرة فقالوا له مثلما قالوا لي، وعبرنا نهر الدانوب فبدا لي أكبر بكثير مما كان عليه في بلغراد أو في بودبست التي زرتها قبل سنتين من تلك الرحلة. ولكن ما السبب الذي حال دون نشوء حضارة متطورة كالحضارة النيلية على ضفاف الدانوب العملاق، وفي سهوله الخصيبة، خلال الأزمنة الموغلة في القدم؟

وعلى أية حال، فإن الشرطة قد اعتقلتنا حين وصلنا إلى الحدود الرومانية، وزجتنا في السجن، لأننا لا نحمل تأشيرات الدخول إلى رومانيا، وتبين لي أنهم لا يسمحون للفلسطينيين بالقدوم إلى تلك البلاد إلا في حالات قليلة جداً. وفي صبيحة اليوم التالي أخرجونا من السجن، فركبنا القطار العائد إلى بلغراد.

أما الفلسطيني الذي صادفته في تلك المدينة، والذي نسيت اسمه بسبب طول العهد، فهو بحار وله امرأة يونانية، ومع ذلك فإنه كان كلما غادر اليونان لا يسمحون له بالعودة إليها إلا إذا حصل على تأشيرة دخول. ويبدو لي أن المرأة لم تكن زوجته الرسمية، وإلا لمنحوه إقامة في اليونان، أو ربما جنسية يونانية. والمهم أن السفارات اليونانية لم تمنحه التأشيرة لسبب لا أدريه، فراح يطوف في البلقان وينتقل من عاصمة إلى أخرى لعل إحدى السفارات اليونانية أن تتصدق عليه بتأشيرة من شأنها أن تجمعه بالمرأة التي أخذ يراسلها من الخارج، ولقد ودعته في بلغراد ولم يبلغني أي خبر عنه بعد ذلك اليوم.

وفي مذهبي، أن هذه الحادثة وأمثالها ينبغي أن تقنعنا نحن الفلسطينيين، بعدما تنكر لنا هذا العالم المأفون، بأن علينا أن نتصف بصفات شخصية أو روحية من شأنها أن تضعنا فوق أعدائنا الجشعين، كما تحثني على الاقتناع بأن علينا أن نمارس الازدراء أو الاحتقار على أكثر الكائنات والموجودات، ثم ينبغي أن نلقنه لأطفالنا منذ الولادة بحيث يرضعونه مع حليب أمهاتهم، وبذلك نغرس فيهم شعوراً بالعزة والأنفة والاعتقاد بأنهم ينزعون صوب الأعلى بينما ينزع الكون بأسره صوب الأسفل. فكيف يضفي القيمة على الكائنات إنسان بلا قيمة في هذا العالم الخسيس السفيه؟ فحريتنا مستباحة ودماؤنا مهدورة، وبيوتنا عرضة للهدم يومياً، وأطفالنا يقتلون دون رحمة، فهل تظل هنالك قيمة لأي شيء بعد هذا كله؟؟

ومما هو مثير للذهول، إن لم يكن مثيراً للتقزز، أن هنالك من يقف ضدنا في هذا العالم، فيدعم الصهاينة ويمنحهم الحق الكامل في

إنزال أعنف الكوارث بنا، بذريعة مفادها أنهم يدافعون عن أنفسهم، أما نحن فنناضل عن الشيطان. ويا طالما صرخنا في وجه العالم وقلنا بأننا مضطهدون، ولكن عبثاً تمسح الريال عن أشداق الممرورين.

ومما هو من هذا الفصيل أنني، في سنة 1980، طالعت باللغة الانكليزية شطراً من شعر بترارك، الشاعر الايطالي الشهير، فراقني كثيراً جداً. ولهذا، قررت أن أترجمه إلى العربية، ولكن من لغته الأصلية التي لا أعرف منها كلمة واحدة. فاقترحت على أحد الأصدقاء أن يصحبني إلى القنصل الإيطالي، أو ربما الملحق الثقافي، في دمشق، وهو من كانت له به معرفة، وذلك ابتغاء الحصول على تأشيرة لدخول ايطاليا. وحين قدمني ذلك الصاحب للرجل، وأبلغه أنني فلسطيني، تجهم الايطالي وعبس، كما لو أنه في مواجهة مع الشيطان.

ولكنه، مع ذلك، سألني بالإنكليزية: لماذا تريد الذهاب إلى روما؟ قلت: لأتعلم الايطالية. فقال: ولماذا تريد أن تتعلم لغتنا؟ فأجبته: لكي أترجم بترارك إلى العربية. وحينئذ فاجأني بهذا السؤال: ومن بترارك هذا؟ فعرّفته بشاعرهم الكبير. ولكنه عاد إلى تجهمه وعبوسه. ثم راح يؤكد لي أنه لا وجود لأي مكان في ايطاليا برمتها متخصص بتدريس اللغة الايطالية للأجانب. وأنا جازم بأنه كاذب. ولكنني عبست مثله وتوليت، أو غادرت المكان ساخطاً، ودون أن أصافحه أو أقدم له أية تحية.

واقتنعت بأن الفلسطيني كائن لا يؤبه له لدى الغربيين إلا لماماً، كما اقتنعت بأنه لا وجود لأية ارهاصات من شأنها أن ترهص بأن الأمور سوف تتحسن على المدى المنظور. ومما يحز في نفسي أن العالم يوم ولادتي قد كان أفضل مما هو عليه الآن بكثير.

ترى، هل من قوة على الأرض تملك أن تحرر الجنس البشري من طغيان اليهود ومن زعارة الغربيين، أدوات اليهود وذوي الوجدان المترمّد؟

*　　　　*　　　　*

وعلى أية حال، فقد لبثت في بلغراد يومين فقط حصلت خلالهما على تأشيرة لزيارة بلغاريا، أو مدينة صوفيا حصراً حيث مكثت زهاء أسبوعين. وإلى جوار تلك المدينة ثمة جبل اسمه فتشو، وقد ذهبت مع شاب فلسطيني اسمه خالد درويش إلى سفح ذلك الجبل بواسطة الباص. أما بقية الجبل فصعدتها وحدي بواسطة التلفريك. وكان ذلك المصعد يرفعك إلى الذروة ثم لا يظل صالحاً للهبوط بك إلى المكان الذي انطلقت منه. وهذا يعني أن عليك أن تنزل مشياً على الأقدام، وفي طريق ترابي أو غير معبد. وسرعان ما وجدت نفسي وحيداً على ذروة جبل أعلى من جبل قاسيون. كنت وحيداً تماماً ودون أي زميل. وانتابني فجأة وجد باليقين أو بالحقيقة، وراح ذلك الشعور يساورني ويمور في صدري ويتدفق لاعجاً كأنه يفور. وشعرت بأنني أذوب شوقاً ورغبة في الاتصال بلباب الأشياء، بل بأنني التغمت في جوف الحقيقة أو اندمجت بها حتى لم يعد هنالك أي فرق بيني وبينها. وعندئذ فهمت معنى الوقفة على جبل عرفات. إنه الاستشراف والرؤية بالبصر والبصيرة في آن واحد. ويبدو أن كل استشراف شرف أو تزكية للنفس وتطهير.

ومن تلك الذروة التي تشبه مطلاً على الدنيا، مع أنها لم تكن شامخة كثيراً، رأيت مدينة صوفيا في وسط سهل فسيح شاسع منداح، ورأيت مشهداً صافياً جميلاً من شأنه أن ينعش الروح بسبب سعته وقدرته على تسريح العين الذي هو تأسيس لتسريح النفس أيضاً. وفي تلك البرهة الصوفية، برهة السجو الساكن، والمغلغل في جميع الكائنات، شعرت وكأن الأشياء بأسرها ليست سوى تجسيد للخير وحده وبأن الشر لا وجود له بتاتاً في هذه الدنيا الرائعة.

وعندي أن صعود الجبال هو استجمام فاعل أو متحرك. وتأتي أهميته من أنه يرينا ما يرصع الأرض من جمال أو فتون. ولعل كل

تذوق للطبيعة أو لجمالها أن يكون من فصيلة الأخلاق، وذلك لأنه يسهم في تنمية نزعة السمو الراخمة في صميم الروح.

ونزلت وحدي ماشياً مسافة لا تزيد عن كيلو متر واحد، أو زهاء هذا، وذلك على الطريق الترابي الواضح تماماً. ولاحظت أن النباتات في ذلك الجبل شديدة الشبه بنباتات بلادنا فلسطين.

وزرت كذلك وادياً ليس ببعيد عن تلك المدينة اسمه بنشريفو، وهو مكان يانع كثير الأشجار وشديد الاخضرار، ولهذا فإنه يبهج النفس ويمتعها ويشحنها بالطاقة، أو يزودها بزوادة قد تغتذي بها طوال أزمنة قادمة. ومن مزاياه أنه يحتوي على الكثير من المطاعم الواسعة أو الكبيرة، وكانت زيارتنا لذلك الوادي في يوم من أيام الأحد. ولهذا فقد رأينا الناس يرقصون رقصهم الشعبي المحلي المبهج.

ولقد ذهبت إلى ذلك المكان بصحبة شاعرين فلسطينيين كانا يدرسان في صوفيا، وهما خالد درويش وعز الدين المناصرة. ولولا ارتقاء الجبل وزيارة الوادي الفاتن، وكذلك لولا اصطحاب ذينك الشاعرين الودودين، لما كان لتلك السفرة إلى صوفيا أي معنى أو قيمة، إذ لم تكن تلك المدينة يومئذ سوى قرية كبيرة يؤمها السائحون، ولاسيما العراقيين، بسبب رخص المعيشة فيها.

* * *

وعلى أية حال، فقد صرت عضواً في اتحاد الكتاب العرب سنة 1976، وبعد ذلك بسنة واحدة سافرت مع وفد من الاتحاد إلى تونس للمشاركة في مؤتمر ابن رشيق للنقاد العرب الذي عقد في مدينة القيروان، وألقيت مداخلة عنوانها " النقد العربي المعاصر "، أبديت من خلالها وجهة نظر خلاصتها أن النقد عندنا لم ينضج بعد لأن جامعاتنا لم تنضج حتى اليوم.

وأمضيت أكثر من أسبوعين في بلاد تونس الجميلة، حيث استمتعت بالبحر والسمك الطازج الشهي. ولقد أخذونا إلى بلدة تسمى الحمّامات (بتشديد الميم الأولى) حيث قضينا بضعة أيام في مستنبت يكاد أن يلامس البحر البسام الشديد الزرقة لأن الشمس الساطعة كانت تضاحكه طوال النهار. وكان المستنبت بمثابة حديقة فيها أصناف من الزهر والشجر والنباتات اليانعة الخضراء ما لم أعرف له مثيلاً من قبل. أما المباني فقد أنشئت على الطراز الأندلسي. وكان هناك حمام أندلسي ينم عن ذوق رفيع ما رأيت له شبيهاً في أي مكان. ولقد استمتعت بالاستحمام فيه عدة مرات.

*　　　*　　　*

حين زرت مدينة برايتون الواقعة بجوار البحر إلى الجنوب من لندن، سكنت في نزل يتألف من عدة غرف مؤجرة لنزلاء كلهم إنجليز إلا أنا. وذات مرة جلست في دفء تموز (1978) على مقعد أمام النزل مع اثنين من النزلاء، ورحنا نتحدث في شؤون هذه الدنيا وهمومها التي لا تنتهي. وفي تلك اللحظة رأيت عجوزاً فانية تسدير على الرصيف بالقرب منا، وفجأة سقطت المسكينة على الأرض، ولم تستطع الانتصاب على رجليها بغير عونٍ من أحد، فما كان مني إلا أن وقفت بحركة آلية وركضت نحوها، ورفعتها إلى الأعلى بيديّ كلتيهما، فانتصبت على رجليها ومشت بعد أن سألتها عن حالها وتأكدت من سلامتها، وكذلك بعدما شكرتني بصدق ولطف وامتنان.

ثم عدت إلى الإنجليزيين وسألتهما عن السبب الذي منعهما من الإسراع إلى المرأة لإقالتها من عثارها. ولكنني دهشت حين قدم لي أحد الشابين هذا الجواب المعيب: من ذا الذي يدفع لنا لكي نعتني بالبشر؟ فما كان مني إلا أن وجمت لهنيهة ثم انسحبت إلى غرفتي وأنا أشعر بأن العالم كله قد أصيب بالخسوف. فآثرت العزلة وانقباضها على مجالسة

الأوباش الذين مات الإنسان في قلوبهم. وههنا بالضبط يتبدى الفرق بيننا وبينهم، لقد تخثر الروح في داخلهم، أو تقلص وضمر حتى قارب الإمحاء. إنها أمم تتعبد لإبليس المال، ولهذا فإنها لا تصلح للكمال بتاتاً.

اقذفوا بهذه الحضارة إلى سلال القمامة، وذلك لأنها خسرت اللباب، ولم يبق فيها سوى القشور، ولعل في ميسور الألباء أن يلمحوا كسفة الزوال بادية على وجهها الكامد المسفوع. واغلب ظنّي أن الإنسان الطيب موجود في معظم الأماكن والأزمان، وأنه يظهر عند شدة الحاجة إليه، ولكنني لست متأكداً من وجوده في أوروبا الغربية المترمدة القاحلة على صعيد الروح، فتربيتهم فردية وأنانية بإفراط، ولهذا فإنهم قوم بور.

فيا لأولئك الإنجليز الذين يتصفون بالتنفج والحرن والعناد والتطرف في عبادة المال وإبليس الثراء، الأمر الذي من شأنه أن يجعلك تشعر بأنك بين كائنات هي في حال الوساطة بين البشر والبقر.

*　　　*　　　*

لقد سافرت إلى لندن على إحدى طائرات الشركة المصرية، وذلك لأن تلك الشركة هي الأرخص بين جميع الشركات في تلك الفترة. وكان عليّ أن أبدل الطائرة في مطار القاهرة مرتين، مرة في الذهاب وأخرى في الإياب. أما في المرة الأولى فقد توجب عليّ أن أنتظر ساعة واحدة فقط في قاعة المرور. وهذا أمر هيّن جداً. وأما في العودة فقد تبيّن لي أن مدة الانتظار هي اثنتا عشرة ساعة كاملة غير منقوصة. وهذا يعني الضجر والإرهاق في آن واحد.

حين هبطت بنا الطائرة عند الرجوع من لندن إلى القاهرة، واصطففنا كي نختم جوازات السفر، تمكنّ جميع الركاب غير المصريين أن يأخذوا تأشيرة دخول إلى المدينة مدتها أربع وعشرون ساعة. وبذلك فإنهم يستطيعون رؤيتها، كما يتيسر لهم أن يناموا في فندق مريح. وكنت أنا المسافر الوحيد الذي رفضت الشرطة أن تمنحه تلك التأشيرة. لقد كان

في ميسور أي خنزير أن يدخل مصر، أما الفلسطيني فمصر محرّمة عليه يومئذ حرمة لا تقبل المراجعة. وعرضت رشوة صغيرة، كما هي العادة، ولكن رجال الشرطة أصروا على الرفض دون أن يعتذروا بتاتاً. فقد كنا في فترة المفاوضات والمداولات في مخيم داود، وهي التي أسفرت عن إبرام اتفاقية أفضت إلى إخراج مصر من التاريخ، أو الى تحييدها حتى لكأنها ليست من العالم العربي المنهوب. وفي ذلك الظرف، أعني ظرف استسلام مصر، فإن الفلسطيني القادم إلى تلك الديار سوف يكون موضع ريبة وتوجس وظنون.

وتوجب عليّ أن أبيت تلك الليلة من ليالي آب في قاعة المرور، جالساً على مقعد خشبي بلا مسند للظهر. وإثر دخولي جاء شاب عمره زهاء ثلاثين سنة أو أقل، ووصل إلى مقعدي وهو يضع مسدساً تحت نطاق بنطاله من الجهة اليسرى. وحين رأيته أدركت فوراً أنه واحد من الإنكشاريين الجدد الذين رمدوا العالم العربي وأرغموه على الركوع أمام الأغيار، تماماً مثلما استطاع الانكشاريون القدماء أن يرمدوا السلطنة العثمانية، أو يزيلوها من الوجود. وفي قناعتي أن لكل عصر رذيلته، وأن رذيلة عصرنا هذا هي أولئك الانكشاريون الذين أراهم برهاناً على اصفرار وجه تاريخنا وامتقاع لونه في هذه الأيام.

وراح الإنكشاري يفتش الحقيبتين الصغيرتين اللتين كانتا معي، أي حقيبة اليد وحقيبة الكتف المحشوة بالكتب، كما فتش جيوبي وتحت إبطيّ. وبعدما انتهى غادر المكان دون أن يبدي أيما اعتذار، ولكنه ما غاب سوى بضع دقائق، ثم عاد من جديد، فألقى عليّ نظرة وخرج مرة أخرى. وأمضى معظم الليل وهو يفعل ذلك دون أن يكل أو يمل.

ولم يكن في القاعة أحد سواي وسوى رجل يعمل في البوفيه التي كانت تتوسط المكان. وعندما جعت إثر انتصاف الليل ورغبت في احتساء الشاي والقهوة اللذين تربطهما بالتدخين صلة وثيقة، وأنا مدخن شديد الشراهة، فقد طلبت من الرجل أن يبيعني فنجان قهوة بالعملة الاسترلينية التي لم يكن معي سواها، فرفض أن يعاملني إلا بالعملة

المحليـة، مـع أن قاعـات المـرور فـي العـالم لا تعامـل أحـداً إلا بـالعملـة الأجنبية، اللهم إلا أن يكون هنالك بعض الاستثناءات القليلة. ولم يبـد أيـة نخـوة أو شـهامة فيقـدم لـي فنجـان قهـوة، أو أي شـيء آخـر، مـن قبيـل الضيافة. فلا غلو إذا ما زعم المرء بأن هـذه الحيـاة الحديثـة التـي تجهـل الإخاء البشري هي بنية داثرة لا خير فيهـا ولا حيـاة. أمـا المفارقـة التـي تعيشها فهي هذه: عمار في الخـارج ودمـار فـي الـداخل. ولهـذا فـإنني لا أراها سوى جوف منخور.

وعندئذ سألت الرجل عن الحل، فقـال: هنالـك مصـرف فـي القاعـة، ولكنه الآن مغلق، وسوف يفتح كوته الصغيرة عما قليل.

وبالفعـل فتحـت كـوة المصـرف، فصـرفت جنيهـاً اسـترلينياً واحـداً واشـتريت سندويشـاً وشـاياً. وبينمـا رحـت آكـل طعـامي البسـيط، جـاء الإنكشاري نفسه وسألني قـائلاً: كيـف حصـلت علـى الطعـام والشـراب؟ فقلت له: بدلت بجنيه استرليني واحد ما يكفـي مـن العملـة المصـرية، ثـم اشتريت حاجتي من البوفيه. فأبدى شيئاً من الامتعـاض، بـل مـن السـخط والغيظ، وقال: لا يجـوز لـك أن تفعـل هـذا الفعـل دون علمـي، وإيـاك أن تكرره الليلة كلها. يجب أن أعرف جميع حركاتك في القاعة.

وعندئذ شعرت بأن صاعقة كاوية أو حارقة أصابت دماغي، ولكنني وجمت إذ لم يخطر في بالي أي قول مهما يـك نوعـه. وصـار الـدم يغلـي في عروقي بسبب شدة التوتر. وتيقنت مـن أننـي فـي حالـة اعتقـال حتـى الصباح. ولكنني كظمت غيظي لقناعتي بـأن العنـف لا يجـدي نفعـاً بتاتـاً فـي تلـك البرهـة العصـيبة، بـل لعلـه أن يكـون وخـيم العواقـب وبـاهظ التكاليف. ولكنني أدركت فـي الوقـت نفسـه أنـه لشـرف عظـيم للمـرء أن يكون فلسطينياً، مع أن ذلك متعب، بـل مرهـق. ولكـن، أي ذنـب اقترفنـا فسلط علينا التاريخ جميع هذه القوى اللئيمة والمثيرة للتقزز والرغبة فـي الاحتقار؟ إن أعداءنا يخشوننا مع أننا مهزومون على نحو لـم يعـرف لـه التاريخ مثيلاً.

وذهب الإنكشاري كعادته، فشعرت بالحاجة إلى دخول الكنيف بعد ذهابه بقليل. وكان هنالك كنيف تحت الأرض أرشدني إليه رجل البوفيه، ويفضي إليه درج رخامي ينم عن ترف وإتقان وذوق. فدخلته ورأيته نظيفاً، بل لامعاً جداً ومصوناً على خير وجه ممكن. وبعدما انتهيت فتحت الباب لأخرج، فشاهدت الإنكشاري إياه واقفاً أمام وجهي ومسدسه مصوب باتجاه صدري. وقال لي: هيا، أخرج إلى القاعة. فطلبت منه أن يمهلني ريثما أغسل يدي. فتراجع قليلاً إلى الخلف، وانتظر حتى انتهيت من الغسل. وصعدت الدرج باتجاه القاعة، وهو لا يزال يشهر مسدسه ويسير خلفي.

ما أسخف هذه الكائنات الشبيهة بالبشر. فلعلهم يحسبون أنني سوف أفجر المطار وأزعزع أمن مصر وأحبط اتفاقية مخيم داود. وغاب عن بالهم أن مصر ما عادت سوى كومة من رماد، تتعاورها القوى الدخيلة وتغتصبها منذ زمن طويل. وعندي أن مصر الفاروق أشرف من مصر الربع الأخير من القرن العشرين، وكذلك من مصر الراهنة.

ولكن الإنكشاري وضع المسدس في موضعه، ثم هم بالخروج وهو ينظر إليّ كأنما يتوقع أن أرد الفعل بشكل وبآخر. وعندئذ، وبعدما فقدت السيطرة على كوابح نفسي، وصرت مستعداً للموت تمام الاستعداد، بل بعدما تيقنت من أن هذه الحياة التافهة لا تستحق أن تعاش، تقدمت منه باندفاع، بل بتهور، وقلت له: إنك لا تزيد عن كلب صغير حقير أنت وحكومتك برمتها، ومعك السادات الخائن العميل.

كنت قبل هذه البرهة المتفجرة أخاطبه باللهجة المصرية، أو بلهجة ليست بعيدة عن لهجة القاهرة التي تعلمناها من السينما المصرية. أما الآن، أثناء الانفجار والتوتر، بل أثناء التأهب للموت، فقد صرت أخاطبه بلهجة لوبيا الجبلية الشديدة الخشونة، أو الوعورة، بل ذات النبر القاسي المنفر الغليظ الذي يشبه صوت المطارق الشديدة الحدة. وشتان بين لوبيا والقاهرة ذات اللهجة التي ترن كما ترن الفضة. وأخذ الرجلان الآخران، أقصد عامل البوفيه وموظف المصرف، ينظران بإمعانٍ

ويحدقان باهتمامٍ. وعلا صوتي، وشتمت كثيراً، وأصاب الشتم مصر والمصريين والنيل والفرعون، بل لقد شتمت هذا العالم الحقير كله لأنه لم يعد سوى حذاء مهترئ ينتعله اليهود ويتصرفون به كما شاءت لهم أهواؤهم. أو يعقل ألا يكون لجميع هذه الدول من همّ يهمها قبل السهر على أمن الغيتو الصهيوني الذي لا يساوي قشرة بصلة؟

وشعرت بأن تلك الحادثة قد أكدت لي صحة فكرتي التي أحملها منذ سنين طويلة، والتي تتلخص بأن انهزام الإنسان هو واقعة لا بد لها من أن تسبق انتصار اليهودي وتشرطه لتجعله ممكناً. فمن المحال أن ينتصر ذلك الكائن الهزيل الروح، وذو اللون الداخلي الشاحب، قبل أن يهزم الإنسان في داخل معظم البشر. فصار اليهود هم المالكين والأسياد. كما أقنعتني تلك الحادثة بأن جميع قوى الدنيا هي احتياطي للإمبريالية والصهيونية. وما دامت جميع هذه القوى في خدمة اليهود فإن الغيتو الصهيوني سوف لن يزول من الوجود. وبما أنه ينبع من نفط العرب، فإنه باق ما بقي النفط يتفور ويفيض، والعرب لن يحرقوا نفطهم المحروس حراسة فولاذية. ولهذا فإنه سوف يظل الشرط الشارط لوجود الغيتو الصهيوني، بل حامله الأول بالفعل. فلو كانت هنالك قوى وطنية عربية قادرة على احراق النفط لتغير التاريخ البشري المعاصر من جذوره.

وعلى أية حال، فإن الإنكشاري قد حل به الاستهجان حين أفرطت في الشتم والاحتقار والصراخ. وأظنه قد لاحظ أهبتي للموت الوشيك، كما أدرك أنني لو انقضضت عليه لخنقته حتى يلفظ أنفاسه الأخيرة خلال هنيهة وجيزة. وربما كان هذا هو السبب الذي جعله يلوذ بالصمت فلم تخرج من فمه أية كلمة.

ولا أبالغ إذا ما زعمت بأنني كنت سوف أعدمه أو أحيله إلى نثار لو أنه أقدم على فعل أي شيء من شأنه أن يستفزني أو يحفزني على الضرب أو على ممارسة العنف. وقلت له: اسأل السادات عن حصة اليهود من نفط مصر الجائعة. أيتهما أكبر، حصة مصر أم حصة الغيتو

الصـهيوني مـن الـنفط المصـري؟ هـل لأجهـزتكم مـن وظيفـة سـوى أن تضمن تدفق نفطكم إلى جيوب اليهود؟ أنتم تجوعون لكي يصـاب بعـض اليهود وبعض الغربيين بالتخمة البالغة حد التعفن.

وأضـفت قـائلاً: إن مـوقفكم السـافل هـو شـرف عظـيم لنـا، نحـن الفلسطينيين، لأنه دليل على أنكم تخشوننا وتحسبون لنا ألف حساب. ولـو لم نكن أقوياء وخطيرين على أسيادكم اليهود لما خفتم منا إلـى هـذا الحـد الشائن. كنت يومئذ في أوج العمر، وصحتي ممتازة في ذلك الطـور مـن أطوار حياتي، بل هي لم تكن في أي يوم من الأيام أحسن مما كانت عليه في تلـك الآونـة، أو حصـراً بـين سـنة 1976 وسـنة 1983. فكنـت قويـاً بحيث أستطيع أن أجهز على ذلك التويفـه الرعديـد خـلال دقيقـة واحـدة. وعلى النقـيض مـن عـادة أولئك الأوغـاد، فإنـه لـم يبـد أي حـراك بتاتـاً. وعجبت لسكوته وهدوئه البليد الشبيه بهدوء البقر.

ومع أنه وقف متفرجاً فقد خطر لي أنه سوف يشهر مسدسه ويطلق النــار علــي، ولــو فـي فخـذي أو سـاقي. وبالتأكيـد كنـت، مـع غضـبي وهيجاني، شديد الحذر، بل كنـت جـاهزاً تمامـاً للامسـاك بتلابيبـه إذا مـا حرك يده باتجاه المسدس. ولكنه لم يفعل شيئاً البتة سوى أنه غادر القاعة برزانــة وهـدوء. وظننـت أنــه سـوف يـؤوب ومعـه مفـرزة مـن رفاقـه الإنكشـاريين الأوبـاش، وأنهـم سـوف يأخـذونني إلـى أحـد الأقبيـة حيـث يجلدونني حتى العياء، إن لم يكن حتـى الغثيـان. ولكـن شـيئاً مـن هـذا لـم يحدث قط. وعاد الإنكشاري وحده بعد قليل، وفوجئـت بأنـه صـار جـد لطيف هذه المرة، بل صار له من الهدوء ما يشبه هـدوء القطـط الداجنـة. ولاطفني ببعض الكلمات كأنما أراد أن يطيب خاطري. ثم ذهب ولـم أره بعد تلك المرة بتاتاً. أما أنا فجلست أرقب الفجر وبـزوغ الشـمس وسـاعة الإقلاع والخلاص من ذلك المكان اللعين.

اعلم أنك إذا عادتك اليهود عادتك البشرية برمتها. وهذا أمـر مـذهل بقـدر مـا هـو مثيـر للاشـمئزاز فـي آن واحـد. فمـا الـذي فعلـه أولئـك الظلاميون بأبناء هذه الأرض البؤساء؟ وكيف لم ينتبـه النـاس حين راح

شايلوك يتسلل باتجاه سدة القرار الذي يملك أن يحسم مصير العالم كله؟ كيف تمكنوا من إحكام قبضتهم على هذه الكرة المسكينة والملعونة بلعنة المال والتلوث والايدز واليهود، وجميع أصناف البذاءة؟

وفي الصباح الباكر أعلن مكبر الصوت عن الرحلة إلى دمشق. فصعدت إلى متن الطائرة وأنا أتنفس الصعداء، وطرت بسلام، ولكن بعدما فتشوا الحقيبتين الصغيرتين اللتين كانتا معي مرة أخرى بالقرب من سلم الطائرة.

بعد ذلك بسنة أو بسنتين، أرسل إليّ الدكتور عز الدين إسماعيل، وهو كاتب مصري مشهور، رسالة فحواها أن مجلة متخصصة بالنقد الأدبي، اسمها "فصول" سوف تصدر في القاهرة عما قريب، وأنه يريدني أن أسهم في تزويدها بالمقالات والدراسات الأدبية. ولكنني لم أجب قط، ولم أرسل أية مقالة إلى مصر في تلك الفترة. وفي سنة 1988 أرسلت إليّ كلية الآداب في جامعة القاهرة رسالة غايتها أن أشترك بمداخلة أو محاضرة في الندوة التي أزمعت تلك الكلية أن تقيمها بمناسبة مرور مائة سنة على ولادة طه حسين. فما كان مني إلا أن تجاهلت الأمر تجاهلاً تاماً، إذ قررت ألا أدخل مصر ما حييت، حتى لو كان الدخول إليها يهيء المرء للدخول إلى الجنة. هذا عدا عن أنني لا أحترم طه حسين الذي لم يكتب سطراً واحداً يخص القضية الفلسطينية، مع أنه شاهد جيش بلاده، جيش مصر نفسها، وهو يهزم ثلاث مرات أمام الصهاينة في مؤامرة قذرة.

وفي سنة 2004 وصلتني رسالة من مؤسسة مصرية اسمها "المجلس الأعلى للثقافة والعلوم" لكي أشارك في مؤتمر الرواية الذي عقد في شباط سنة 2005، فما كان مني إلا أن كتبت مقالة حول الرواية التاريخية وأرسلتها بواسطة البريد الالكتروني، ولكنني ما سافرت قط.

*   *   *

إثر عودتي من لندن إلى دمشق في أواسط آب سنة 1978، أتيحت لي فرصة التعرف إلى أتباع ابن عربي الذين رأيت فيهم طيبة ودماثة، بل سمات إنسانية إخائية قلما يصادفها المرء في الناس هذه الأيام. وكانوا يتحلقون حول شيخ جليل اسمه الشيخ إبراهيم، ويجتمعون مساء كل خميس في بيته الواقع في حي الفحامة. وقد اعتاد ذلك الرجل الكريم أن يشرح بضع صفحات من "الفتوحات المكية" كل سهرة أو جلسة. وهنالك من أخبرني أن الشيخ إبراهيم قد أخذ فهمه لذلك الكتاب من شيخ سابق، كما أن السابق أخذ الفهم نفسه من شيخ أسبق، وهكذا حتى تصل السلسلة إلى ابن عربي نفسه، وهو من قضى الشطر الأخير من عمره في عاصمة بلاد الشام.

والحقيقة أن الشيخ إبراهيم كان على دراية جيدة بفتوحات الشيخ الأكبر، أي إنه خبير بالاستسرار أو بالمعارف ذات السمة السرية. كما أن رجال حلقته كانوا إخائيين وطيبين إلى حد من شأنه أن يجعل المرء يشعر بالسعادة الغامرة، أو بفرح الاتصال بأناس من هذه المرتبة، فهم يعودونك إذا مرضت، ويسامحونك إذا غلطت، ويساعدونك إذا لزمتك المساعدة.

ومع ذلك كله، فإنني لم أواظب على حضور اجتماعاتهم إلا لبضعة أشهر وحسب. ولا أدري لماذا فارقتهم وهجرتهم حتى اليوم، ولا مسوّغ يسوغ ذلك الانسحاب. ولقد حزنت كثيراً حينما علمت أن الشيخ فارق الحياة، وأرجح أنه لم يبلغ الستين من سنوات عمره. وللحق أن وفاته قد أنزلت بالمعرفة السرية خسارة فادحة، وذلك لأن المعلم لا بد منه في كل إيقاع ثقافي أو معرفي.

* * *

كانت السبعينيات طيبة مريحة، والأحوال فيها رخية هادئة، والدخل يكافئ المصروف تماماً أو تقريباً. ولهذا السبب تمكنت من السفر إلى

أوربا أربع مرات على نفقتي الخاصة. أما الثمانينيات (وبخاصة نصفها الثاني الذي فاض فيه النفط كثيراً) فكانت مأزومة على الصعيد السياسي والاقتصادي، إذ التهم التضخم المالي كل شيء، فلم يعد في إمكاني أن أدخر ليرة سورية واحدة، بل لم أعد قادراً على تغطية نفقاتنا إلا بشق النفس.

وأياً ما كان الأمر، فقد سافرت ثلاث مرات خلال عقد الثمانينيات، بينها مرة واحدة فقط على حسابي الخاص، وهي تلك السفرة التي قمت بها إلى تركيا في شهر تموز سنة 1982. ولكن سبق أن استدعيت إلى بيروت للمشاركة في ندوة أقيمت بمناسبة مرور خمسين سنة على وفاة جبران خليل جبران، وذلك في أيلول سنة 1981. وألقيت يومئذ مداخلة وجيزة موضوعها كتاب "يسوع ابن الإنسان"، وكيف فهم المؤلف شخصية السيد المسيح بوصفه الكلمة الإنسانية أو الروحية في تواجهها مع السيف الروماني البتار. وقد أتيح لي يومئذ أن أقابل منير بعلبكي، المترجم المشهور، إذ سبق لي أن طالعت مجموعة من الروايات الأوربية والأمريكية التي قام بترجمتها في الخمسينيات والستينيات.

وفي تلك السفرة، دعيت الوفود القادمة إلى الندوة لتشارك في مهرجان أقامه الحزب السوري القومي في بلدة ضهور الشوير الراخمة على السفح الغربي لجبل صنين الشامخ العملاق. وهناك تناولنا غداءً شهياً واستمتعنا بمشاهدة أمداء مفتوحة وخلابة ترى من مكان شاهق. وكانت تلك آخر سفرة قمت بها إلى بيروت حتى الآن. ولكنني كثيراً ما سافرت إلى العاصمة اللبنانية بين سنة 1970 وسنة 1981. وكانت إحدى سفراتي (نيسان 1974) للمشاركة كناقد أدبي في مهرجان الشعر العربي.

أما السفرة إلى تركيا فقد أنعشتني كثيراً، إذ بحثت عن بقايا معبد أرتميس في افسس، حيث عاش هيرقليط، الفيلسوف اليوناني المشهور. كما زرت آثار مليتس التي لا تبعد عن إزمير كثيراً. وأعجبتني مدينة إستنبول إلى حد الدهشة، فشعرت بأنها أجمل المدن التي رأيتها طوال حياتي. وأظنني صادقاً إذا ما

صرّحت بأنها أعجبتني أكثر من باريس ولندن وبرلين التي قضيت فيها أسبوعاً كاملاً سنة 1977.

ولعل أروع ما رأيت في استنبول أن يكون جوامعها ومتاحفها، وكذلك القصر الملكي المسمى طوب قبو. ولقد زرت جامع السليمانية، وهو إنجاز تاريخي رائع بناه فنان تركي اسمه سنان. كما دخلت الجامع الأزرق أو جامع السلطان إبراهيم، ولاحظت أن العمود التركي، الذي لم أشاهد عموداً يشبهه قط، يتصف بغلاظة وثقل لا تعرفهما الأعمدة في أية حضارة من الحضارات السالفة. إنه نقيض العمود العربي الأهيف النحيل الرشيق. وفي زعمي أن عمود كل حضارة هو الرمز الحقيقي لشخصيتها، أو المفتاح الذي يفتح كنهها أو سرها أمام الذهن النازع إلى الفهم والاستيعاء. وعندي أن عصراً بغير عمود هو عصر بغير مزايا من شأنها أن تؤكد خصوصيته أو شخصيته. كما أن جمال العمود هو البرهان على نضج الحس الجمالي في أية دائرة من الدوائر الحضارية على الأرض.

ويبدو أن عصر الصناعة المهموم بالإنتاج والاستهلاك محروم من العمود الذي أنتجته البشرية يوم اكتمل شبابها قبل خمسة آلاف سنة من الآن، أو زهاء ذلك. وهذا يعني أن كل حديث يقدمه زماننا عن الجمال لا يعدو كونه تلمظاً ممجوجاً، أو جنوحاً للتعويض عن الغياب بالأوهام. فليس من الإجحاف أن يصف المرء عصرنا بأنه غوغائي، بل همجي، في الصميم، لأنه لا يقيم للجمال أيما وزن. وعندي أن كل فقه هو فقه الصميم حصراً.

ثم إن البحار الزرقاء المحيطة بمدينة استنبول من شأنها أن تجعل المشهد فاتناً خلاباً وشديد القدرة على الإنعاش. وأخص بالذكر بحر مرمرة الذي تمخره السفن ليلاً ونهاراً، والذي تطفو على سطحه جملة من الجزر الساحرة، كما تنتشر على شاطئه الغربي المطاعم ذات الأطعمة الشهية، ولا سيما السمك الطازج اللذيذ. أما الشمس فتسطع متألقة طوال النهار لتنير سماء صافية رائقة. ويصير لونها برتقالياً عند الأصيل، أو قبيل الغروب، وهذه مزية لا تتوفر لأوروبا الشمالية ذات الغمام المتراكم الكثيف. وإذا ما أضفت النسيم البليل الموغل في الرقة واللطف، فإنك سوف تدرك الروعة التي تغلغل في ذلك

المكان البهيج، أو في بيئة تلك المدينة المنقطعة النظير. ولا ريب في أن هذه الأُخذة الاستيلائية هي التي دفعت بايرن إلى مدحه لتلك المدينة في كتابيه، "دون جوان" و"رحلة تشايلد هارلد". (إنه بايرون، صديق اليهود في "الأغاني العبرانية".)

وذهبت بالسفينة إلى البحر الأسود بصحبة بعض الأتراك، أو بصحبة فتاتين، إحداهما إستنبوليه فاتنة، والثانية من أنطاكيا. وكلتاهما تتكلم الإنجليزية على نحو جيد. وكان مع الإسطنبولية خطيبها الشاب، وهو استنبولي أيضاً، ولكنه لا يتكلم الإنجليزية بتاتاً. وكل منهم مختص بهندسة الميكانيك. وكانت الروابي والآكام الخضراء على ضفتي البسفور جميلة وتكثر عليها الأشجار الشامخة وذات الأفياء الوارفة. وهذا يعني أن المشهد الطبيعي أخاذ إلى حد الدهشة. وبالقرب من البحر الأسود، أو عند طرفه الجنوبي الغربي، جلسنا في أحد المطاعم حيث تناولنا سمكاً شهياً في مكان هادئ على الشاطئ الأوربي، وقضينا يوماً ممتعاً جداً، بل هو واحد من تلك الأيام القليلة التي لا تبارح الذاكرة طوال العمر كله. وفي طريق العودة غادرنا السفينة عند نقطة على الشاطئ الآسيوي، وصعدنا تلاً مغطى بأشجار الصنوبر الباسقة، ودخلنا إلى مقهى كان على ذروة تل أو رابية عالية، حيث احتسينا الشاي الذي هو مشروب تركيا الأول. ثم عدنا إلى استنبول بالسفينة في مساء ذلك اليوم نفسه. ولهذا فإنني أشعر دائماً بأن حنيناً غنائياً موغلاً في العذوبة، ولكنه لا يخلو من حزن شفيف، يوجهني صوب تلك المدينة التي لا أعرف أية مدينة أخرى أقدر منها على اجتذاب الروح. ولعل أهم ما في الأمر أن الأتراك أناس طيبون، وذلك على النقيض من الفكرة المغروسة في أوهامنا منذ زمن بعيد.

أما الجسر العملاق الذي رأيته معلقاً على البوسفور، والذي يربط آسيا بأوربا، أو استنبول الأوربية بإستنبول الآسيوية، التي كان اسمها خلقيدونيا في الأحقاب البيزنطية، فلم أشاهد له مثيلاً طوال حياتي كلها. وإني لأرى فيه رمزاً للإخاء البشري الحميم ولرغبة الإنسان في الوصال أو في توحيد الأجزاء المتفاصلة وشدها إلى الكلية. وثمة جسور أخرى على القرن الذهبي الذي يسميه الأتراك باسم الخليج، والذي يفصل بين بيزنطة وبين ضاحيتها المسماة باسم

غَلَطَة (بفتح ففتح). ولكن هذه الجسور، وأظنها ثلاثة، ليست لها ضخامة جسر البسفور، وذلك لأن الخليج ليس عريضاً مثل ذلك المضيق المائي الذي يربط البحر الأسود ببحر مرمرة.

وذات يوم قرأت في "رحلات ابن بطوطة"، وهو واحد من أمتع الكتب التي طالعتها في حياتي، أنه شاهد صخرة كبيرة جداً في بلدة اسمها أفيون قره حصار، وهي إلى الشرق من إزمير وعلى مسافة مقدارها مائة وثمانون كيلو متر. فذهبت إلى تلك البلدة وشاهدت تلك الصخرة، وهي تشبه تلاً صغيراً لشدة ضخامتها. وذكر ابن بطوطة كذلك أن الطريق العام لا يمر بالبلدة بل هو إلى جوارها. وبالفعل تفصله عنها مسافة لا تقل عن كيلو مترين. أما الدرب الذي يربط البلدة بالطريق فقد ذكر ابن بطوطة أنه يعبر حقلاً شاسعاً من نبات القصب، ولكنني لم أشاهد نبتة قصب واحدة على أي من جانبي ذلك الدرب.

لقد أتيت إلى أفيون من مدينة قونيا حيث أمضيت يومين زرت خلالهما ضريح مولانا جلال الدين الرومي الذي هو إنجاز معماري شرقي فاتن، وأظنه مبنياً على الطراز الفارسي. كما رأيت بعض المباني القديمة المبنية وفقاً لطراز العمارة التركية التي تخلو من الرشاقة، والتي يهيمن عليها الثقل وشيء من الغلاظة والجمود. وأظن أن واحداً من تلك الأبنية كان قصر السلطان يوم كانت قونيا مدينة تاريخية مجيدة.

وبينما كنت أتجول وحيداً في شوارع تلك المدينة، فإنني قد رحت أتذكر كلاً من جلال الدين الرومي، ذلك الصوفي الجليل والشاعر الكبير المفعم بخصوبة الروح، ومحي الدين بن عربي، سلطان العارفين، الذي عاش فيها لفترة من الزمن. وبعدما وهبه السلطان داراً كبيرة تشبه القصر فقد منحها لأحد المتسولين ورحل إلى سوريا. كما رحت أتذكر شمس الدين التبريزي الذي قتل في تلك المدينة على أيدي أبناء جلال الدين، وذلك لأنهم ظنوا به الظنون. وتقول إحدى الخرافات بأنه بعدما ذبح هناك حمل رأسه بيده وسار إلى تبريز الواقعة في الشمال الغربي من إيران.

ويمكن للمرء حين يكون في قونيا أن يتذكر صدر الدين القونوي الذي تزوج الشيخ الأكبر والدته في تلك المدينة، وهي أميرة تركية رفيعة المقام،

فصار صدر الدين واحداً من المريدين، بل صار مريد ابن عربي وربيبه في آن معاً. كما يمكن للمرء أن يتذكر ذلك السلطان القوي، قليج أرسلان الثاني، الذي هزم مانول إمبراطور بيزنطة في معركة ميريو كفالون، وذلك سنة 1176 م/ 572 هـ. والجدير بالتنويه أن تلك المعركة التي جرت إلى الغرب من قونيا، والتي كانت بمثابة مذبحة للجيش البيزنطي، قد حسمت مصير الإمبراطورية البيزنطية، أو مهدت لسقوط بيزنطة على يد محمد الفاتح سنة 1453م.

وفي صلب الحق أن مدينة قونيا الصغيرة الهادئة هي مكان جذاب لا ينسى، وذلك لما يثيره في النفس من إلهام صوفي شديد السمو، وكذلك لما يخلق في المرء من شعور بروعة الماضي وامتلائه بالفحوى والدلالة وقوة الحضور. فكثيراً ما تكون لهذه المدينة أو تلك شخصية تميزها عن أية مدينة أخرى في العالم

وسافرت من أفيون إلى إزمير، وهي مدينة كبيرة جداً، ويغلب عليها الطابع الحديث، ولهذا فإنها ما أوحت لي بأي إيحاء ولا أومت إليّ بأي شيء جواني يخص الداخل وحده. وفي الطريق إليها شاهدت آثار مدينة سارديس، عاصمة بلاد ليديا القديمة، وقد صار اسمها سرت في هذه الأيام. وهي تقع على نهر هرمس، الذي كانوا يستخرجون الذهب من رماله، وهذا ما جعلها مدينة غنية جداً. وربما كان قارون المذكور في القرآن الكريم واحداً من ملوكها الأثرياء قبل أن يحتلها كورش الفارسي بزمن يسير.

وقد لاحظت أن ثمة شبهاً بين عمارة سارديس والعمارة اليونانية، وهذه ملاحظة من شأنها أن تعزز الظن بأن اليونان متأثرة بالأناضول الغربي، وبأن ذلك الإقليم كان محطة للحضارة البابلية وهي تنتشر باتجاه أوربا. فهي تمر أولاً ببلاد آشور في شمال العراق، ثم تنتقل إلى بلاد الحثيين في الأناضول الشرقي، ومنها إلى الأناضول الغربي حيث تعبر مضيق الدردنيل صوب بلاد اليونان.

ومن ازمير سافرت إلى مليتس الواقعة إلى الجنوب على البحر، والتي بدأت فيها الفلسفة اليونانية على يد طاليس زهاء سنة 600 ق.م. ومن المصادفات أنني التقيت بين أطلال مليتس برجل ألماني يكبرني بعشر سنوات، فسألني قائلاً: من أين أنت؟ فقلت: من دمشق. وعندئذ قال: من المحال أن تكون

من دمشق. فسألته: إذن، من أين أنا في تقديرك؟ فأجاب بلهجة جازمة قاطعة: لا يمكن لك إلا أن تكون من شمال فلسطين. وبالفعل بهت دماغي وذهلت. فسألته: وكيف عرفت ذلك؟ قال: إن وجهك شديد الشبه بوجوه الناس في الجليل. ثم سألته: هل سبق لك أن زرت دمشق؟ فأكد لي أنه لم يزرها قط.

وتحاورت مع الألماني كثيراً، ولا سيما في السياسة. وزرت بصحبته آثار مدينة يونانية قديمة، صغيرة، وقريبة من مليتس. وتناولنا الغداء معاً، كل على نفقته الخاصة، في مطعم قريب من آثار تلك المدينة أو أطلالها الواقعة في ايونيا، وهي الإقليم المنتشر إلى الجنوب من إزمير، والمجاور لبحر ايجه، بل الذي منح اسمه لبلاد اليونان كلها في اللغة الفينيقية، ثم في اللغة العربية بعد ذلك.

ومما هو ذو دلالة أن ذلك الإقليم كان قد عرف حضارة بحرية متقدمة قبل ظهور الإغريق على مسرح التاريخ في القرن العاشر قبل الميلاد. وربما كان هومر واحداً من مواليد ذلك الإقليم الذي كان يسمى كاريا قبل أن يسمى ايونيا. ومن المؤكد أن هزيود، الشاعر اليوناني المشهور، قد ولد في تلك الأرض العذية الندية بسبب مجاورتها للبحر، ولأن نهر مندريس يسقيها على خير وجه ممكن.

ومعنى هذا كله أن الحضارة الإغريقية لم تتشكل في خلاء تاريخي، ولكنها اشتقت نفسها مما سلف، إذ ما من قطيعة وإنما استمرار واتصال، أو استنباط واشتقاق يستخلص من الناجز ما لم ينجز بعد. ففي الحق أنك إذا ما أعطيت ما قد صار فإنك تكون قد أخذت ما سوف يصير، أي ما هو مضمر في باطن المعطى. ولهذا، فإن ثمة سؤالاً يخص تاريخ المعرفة والأفكار: لماذا ولدت الثقافة اليونانية في الأناضول الغربي ولم تولد في بلاد الإغريق نفسها، أي في أثينا، أو في سواها من المدن اليونانية الواقعة في أوربا؟

ومما هو مثير للاستهجان أن يكون هنالك علم بالفلك في بلاد الإغريق مع أن تلك البلاد لم تعرف مرصداً واحداً يرصد الكواكب. وهذه حقيقة من شأنها أن تشجع المرء على الاقتناع بأن ما سمي الفلك اليوناني هو ترجمة لجزء من الفلك البابلي. فقد اعتاد فيلون السكندري على أن يسمي علم الفلك باسم "علم

الكلدان". ويبدو أن الطب اليوناني هو الطب البابلي والفرعوني بعدما نقل إلى لغة الإغريق، وأن ابقراط لم يكن أبا الطب، بل تلميذ على مصر والهلال الخصيب. إن مؤرخاً يونانياً اسمه بوزنياس قد وصف بابل بأنها "أعظم مدينة تشرق عليها الشمس." فقد تبين مؤخراً أن أسوار بابل المربعة قد بلغ طولها ثمانية وثمانين كيلو متراً. ومن المعلوم أن الجبر اليوناني هزيل جداً، وكذلك الكيمياء اليونانية، وأغلب ظني أن البابليين والمصريين القدماء أخفوا هذين العلمين عن الإغريق عمداً.

ومن السخف والجهل وصغار العقل أن يقبل المرء بأن يضع روما أو أثينا فوق بابل التي كانت بمثابة منارة تشع النور على الدنيا بأسدرها. إن بابل، وليس باريس، هي التي تستحق أن تسمى مدينة النور عن جدارة.

أما أسخف رأي سمعته طوال حياتي فهو رأي ديورانت، صاحب "قصة الحضارة "، الذي وضع اليهود فوق البابليين وجعل منهم أنداداً للفراعنة والاغريق. نعم، اليهود الذين ليس لديهم سوى الخبال والتخريف والانتحال أرقى من بابل عاصمة العلوم والفنون والآداب في الأزمنة القديمة كلها. وعندي أن مثل هذا الرأي هو نتاج عصاب وسقام ورغبة في انتهاك حرمة الحقيقة، إن لم يكن نتاج جهل وعدم دراية بواقع الحال. فما شاء الله كان.

وعلى ضفتي الدردنيل كان يعيش شعب اسمه الشعب البيلاسدجي الذي ينتسب إلى الحضارة الايجية. وكان ذلك الشعب بحاراً ماهراً وخبيراً بشؤون الملاحة. وأغلب ظني أن البيلاسجيين هم الذين كتبوا الأوديسة المنسوبة إلى هومر. ففي تقديري أن تلك القصة الشعرية لا يكتبها إلا شعب ملاح، وذلك لأن أحداثها تدور في البحر وفي جزر البحر. ومن المعلوم أن الإغريق لم يكونوا قد صاروا شعباً يتقن فن الملاحة يوم كتبت الأوديسة في زمن لا يعرفه أحد معرفة يقينية.

وعلى أية حال، فقد أسفت أشد الأسف لأنني لم أزر مدينة هاليكارناس القريبة من مليتس (التي يسميها الأتراك اليوم باسم بلاط.) والحقيقة أن هاليكارناس هي مسقط رأس هيرودت الذي يسمونه أبا التاريخ، مع أن ثمة من يسميه (أبا الكذب). وقد أخبرني الألماني الآنف الذكر أن ثمة بقايا معبد جميل

للإله أبولو في تلك المدينة. وأغلب ظني أن أبولو نفسه إنجاز من إنجازات الكاريين، وقد تبناه الإغريق بعدما فتحوا ذلك الإقليم في القرن العاشر قبل الميلاد. أما باخوس، أوديونيز، فهو مستعار من إقليم فريجيا الواقع إلى الشمال من كاريا، وذلك باعتراف المؤرخين الاغريق أنفسهم. إن الغربيين قد "صرصعوا" الدنيا بيهودهم واغريقهم فقدّموهم بوصفهم جملة ما تحتويه الأزمنة القديمة بأسرها. وراحوا يطعمون أنفسهم جوزاً فارغاً، كما يقول أحد أمثالنا الشعبية، وذلك عندما أطلقوا عبارة "المعجزة اليونانية" الزائفة. فهل من معجزة على الأرض بعد الحضارة الفرعونية؟

* * *

وعندما كنت صغيراً في فلسطين كانت هنالك مجموعة من المسنين تتجمع حول جدي علي في المدّان وتتحدث عن الحرب العالمية الأولى، وبخاصة عن مكان يسمونه شنا قلعة. ولهذا، فقد بحثت في الخريطة عن ذلك المكان ووجدته على الشاطئ الأوروبي من الدردنيل الذي هو مضيق يربط بحر مرمرة ببحر ايجه. وركبت الباص من إزمير إلى شنا قلعة، وذلك إثر عودتي من مليتس. وفي الصباح عبرت المضيق بالسفينة (ربما من حيث عبر الاسكندر المكدوني) وصعدت إلى القلعة، حيث رأيت المدافع التي اشتركت في الحرب. والجدير بالذكر أنني مررت بالقرب من موقع طروادة وأنا في الطريق إلى الدردنيل. ولم أزر ذلك الموقع لأن الألماني قد أكد لي أنني لن أشاهد شيئاً ذا بال إذا ما ذهبت إلى تلك الأطلال الداثرة، وذلك لأن المتاحف قد تخاطفت الآثار كلها بحيث لم يبق سوى التراب وبعض الحجارة.

ولقد رجعت إلى أحد كتب التاريخ فأنبأني بأن معارك ضروساً قد جرت على شطيّ الدردنيل خلال الحرب العالمية الأولى وأسفرت عن مقتل نصف مليون جندي نصفهم من الأتراك ونصفهم الآخر من الإنجليز والفرنسيين. وكانت النتيجة النهائية أن اخترق الحلفاء خطوط الدفاع التركية ودخلوا إستانبول.

ثم سافرت من شنا قلعة إلى العاصمة الإمبراطورية العظيمة التي تكاد أن تكون تجسيداً لسر الوجود، وذلك على طريق يحاذي الدردنيل وبحر مرمرة من جهتهما الغربية، أي هو يسير على أرض الروملي التي هي الشطر الأوربي من تركيا. والحقيقة أن الروملي قد كان في الزمن القديم جزءاً من إقليم يسمى تراكيا، وهو الذي ينتسب إليه اورفيوس، ذاك الكائن الأسطوري الذي يعزف للجمادات فتسيل وتجري خلفه. ومن شأن هذه الأسطورة – كغيرها من الأساطير – أن تؤكد ما فحواه أن المثولوجيا اليونانية ليست يونانية في حقيقة أمرها، وإنما هي مستعارة من "البرابرة".

ولعل أروع وأمتع ما في ذلك الطريق الذي يبلغ طوله زهاء ثلاثمائة وخمسين كيلو متر، هو أنه محاط بحقول عباد الشمس ذات الأقراص الصفراء اليانعة الجميلة، والتي تنداح على امتداد العين والبصر، كما يقول أحد التعابير الشعبية، وفضلاً عن ذلك، فإن المناخ في تراقيا منعش أو ممتع، إذ لا حر بتاتاً مع أنني كنت هناك في تموز

ومكثت في استنبول وحدها عشرة أيام ظللت أتجول خلالها حتى أنهكني المسير. وأحببت تلك المدينة حباً جماً. وإنني أتمنى لو أن صحتي تسمح لي بأن أزورها مرة ثانية. ولكن هيهات، فبعد الأمراض الطويلة لم يعد بالإمكان أن أزور مدينة حمص أو درعا. فأنا إذ أكتب هذه الصفحات ألهث بسبب ذلك الاضطراب الدائم في صدري، وكذلك بسبب النوبة القلبية التي أصابتني في الحادي عشر من شهر كانون الثاني، سنة ألفين وسبعة.

ثم طرت جواً ذات صباح باكر من استنبول إلى أضنة، وسافرت براً من أضنة إلى دمشق، ولكن على مراحل، إذ نمت ليلة في أنطاكيا، وأخرى في حمص لدى أحد الأصدقاء.

* * *

أما السفرة الثانية فكانت إلى الجزائر، سنة 1987، وذلك لحضور مؤتمر عقده اتحاد الكتاب الفلسطينيين. ولقد فتنتني الطبيعة، ولا سيما طبيعة الجبال، في بلاد الجزائر الخلابة اليانعة. وأما المدينة نفسها فقد رأيتها شاحبة

فاترة، فلا تتمتع بالتلألؤ الذي تتمتع به المدن الأخرى، بل هي لم تكن تتفور بالحياة كما هو حال دمشق الراهنة. وربما كان الشتاء مسؤولاً عن ذلك الركود، إذ تمت تلك الرحلة في أوائل شهر شباط الذي هو شهر شتائي كامد بطبيعة الحال.

وأما السفرة الثالثة فكانت إلى المغرب، وذلك في أواخر تشرين الأول سنة 1988، والغرض منها حضور مؤتمر الإبداع العربي الذي عقد في مدينة أغادير. وكنت عضواً في وفد من سوريا يضم تسعة أشخاص. وبما أننا سافرنا على طائرة تابعة للشركة الفرنسية، فقد توجب علينا أن نبدل الطائرة في باريس، سواء في الذهاب أو في الإياب.

وفي مطار أورلي القريب من العاصمة الفرنسية كان لا بد من الحصول على تأشيرة مرور، وذلك لننتظر الطائرة التي سوف تقلع بنا إلى المغرب في اليوم التالي. وبينما كنا في قاعة المرور ننتظر الحصول على التأشيرة، رأيت امرأة شابة، ولكنها قبيحة دميمة على نحو مقزز، تجلس على مقعد وتضع حول عنقها سلسلة ترتبط بها نجمة سداسية. وكانت إلى جانبها امرأة بيضاء في مثل سنها. وراحت اليهودية تتحدث إلى الثانية باللغة الإنجليزية عن الجو في مدينة حيفا التي قالت إنها قد غادرتها في ذلك الصباح نفسه. نعم، كانت تتحدث عن حيفا الكنعانية التي اغتصبها اليهود بدعم من الغربيين والشرقيين على السواء وحرموا ورثتها الشرعيين منها بعدما شردوهم تحت كل أفق. إنهم ملة صفيقة تنتحل كل شيء انتحالاً ولا تبالي بالشرف. حتى اللغة الكنعانية انتحلوها وسموها اللغة العبرانية زوراً وبهتاناً.

وفهمت من الحوار الدائر بين المرأتين أن القبيحة أو الشبيهة بالغولة هي يهودية أمريكية تنتظر الطائرة للإقلاع إلى أميركا، وأن الصدفة هي التي جمعتها بتلك البيضاء، وهي أمريكية أيضاً، وتنتظر الطائرة نفسها. ولاحظت أن مع اليهودية طفلين أشد منها قبحاً، كما كان معها أربعة رجال كلهم شناعة وبشاعة. ولا أدري من أين جاء هذا الصنف من البشر الموغلين في الدمامة والقبح. وكان ثلاثة من الرجال شباناً، أما الرابع فعمره مثل عمري، إذ كنت يومئذ في عامي الخمسين تماماً.

وأسوأ ما في تلك الجماعة هو لون بشرتهم الذي لا أعرف كيف أصفه، فلو مزجت التراب الأغبر بالسخام الأسود لأنتجت مادة قد يكون لونها مثل لون وجوههم الكالحة الكئيبة. ولقد سلف أن رأيت يهوداً كثيرين في بولونيا وفرنسا، ولكنهم ما كانوا في مثل تلك الدرجة من القردية. وعجبت كثيراً لأن طاقات العالم كلها مستنفرة لتخدم هذا الاصفرار أو هذا الامتقاع والذبول. أي عالم هو هذا الذي لا وظيفة له غير السهر على أمن الغيتو الصهيوني!

حتى الطفلان كانا يفتقران إلى أي جمال. وهذه حقيقة تخالف قول دستويفسكي: ما من طفل قبيح. ومما هو معلوم أن قسماً كبيراً من اليهود لا يتمتعون بأي جمال، بل إن سيماء اليهودي أو سحنته شائهة في معظم الأحيان. وليس بالصدفة أن يصرح العملاقان دستويفسكي وشكسبير بأنهما معاديان لليهود. إنهما يكرهان تلك الملة لأنها قبيحة من الداخل، إذ لا عمل لمعتنقي مذهبها سوى أن يستولوا على جهود الناس بالغش والربا والابتزاز والتسلل إلى مراكز صنع القرار.

وكان الرجل الذي في مثل سني يلبس قفطاناً شرقي الطراز، كما أن الرجال الثلاثة الآخرين يرتدون ملابس سوداء، وكذلك كانت المرأة والطفلان. ولا أدري لماذا راحوا يرتدون الأسود على ذلك النحو اللافت للانتباه. ووقف كبيرهم مستنداً إلى جدار وأحاط به الرجال الثلاثة، وأخذوا يتلون شيئاً ما من شأنه أن يوحي بأنهم يصلون. وهكذا عرف كل من في القاعة أنهم يهود. لقد أعلنوا عن وجودهم، وذلك من باب الدعاية لأنفسهم. أما اللغة التي راحوا يصلون بها فهي اللغة الكنعانية التي يسمونها العبرانية، والتي تعلمتها حين كنت جندياً في حرستا، ولكنني نسيت تسعة أعشارها بسبب الانقطاع الطويل.

وأتاني رجل من وفدنا وقال لي: هلم نهجم على هؤلاء اليهود الأنجاس المناكيد ونضربهم ضرباً مبرحاً انتقاماً لما فعلوه بالشعب الفلسطيني. فقلت له: إنني لم أعد شاباً، ولهذا لا أحسبني قادراً على خوض مشاجرة بالأيدي. وأضفت قائلاً: آتني ببندقية وسترى ما سأفعل. سأقتلهم جميعاً، وحينئذ سوف أعتقد بأن حياتي لها هدف عظيم، وهو تخليص البشرية من بضعة أشرار.

ورحت أتذكر أيام جنديتي التي كان قد مضى عليها أكثر من ربع قرن. وأخذت أتلمس كتفي الأيمن لأتأكد مما إذا كانت بندقيتي الروسية الصنع ما زالت معلقة هناك. وصارت روحي تتفتت من أجل قطعة سلاح، حتى كدت أن أطلب من شرطي فرنسي كان في القاعة أن يعيرني مسدسه لدقيقة واحدة وحسب. إن مسدساً في تلك البرهة هو أثمن من الدنيا ومن فيها. وما قيمة دنيا لا يربحها سوى اليهود وأعوانهم ومن هو على شاكلتهم؟

أما كان في الميسور أن تحدث معجزة فيهبط ملاك من السماء وفي يده بندقية روسية أستعيرها منه ريثما أنجز تلك المهمة الصغيرة الشديدة القدرة على أن تزود حياتي بالمعنى والقيمة والدلالة؟ كنت مستعداً لدفع بقية عمري مقابل مسدس أو أية قطعة سلاح. وعند ذاك كان في الإمكان أن يصير لحياتي هدف نبيل، وهو أن أخلص الإنسانية من بعض الكائنات الشريرة التي تؤمن – مستنده إلى كتاب أترع بالخزعبلات والترهات والأباطيل - بأن بقية الجنس البشري ما وجدت على الأرض إلا لتخدم اليهود، ولا شيء سوى ذلك. إنه عش حيّات تنبغي إبادته فوراً، ودون ريث أو إبطاء، وذلك لصالح الإنسانية التي لا أعرف من َأحبها في أي يوم من الأيام.

ورحت أتذكر شبان كفرعنان الذين التقيناهم في جبل الجرمق، والذين أباد اليهود بعضهم في الثلاثين من تشرين الأول سنة 1948. بل تخيلت جميع الأبرياء والنساء والأطفال الذين جزرهم اليهود منذ عام النكبة وحتى مجزرة صبرا وشاتيلا في أيلول سنة 1982. ومع ذلك كله، فهم يزعمون بأنهم ما فعلوا شيئاً شريراً قط، إذ إن كل ما في الأمر انهم عادوا إلى أرض أجدادهم، وأنهم يدافعون عن أنفسهم وحسب.

إن الازدراء هو ما ينبغي أن يكون الأس أو المدماك الأول في تربية الإنسان الفلسطيني وبناء شخصيته التي كلفها التاريخ بإزالة الصهيونية من الوجود إلى أبد الآبدين. نعم، الازدراء بأبعاده كافة والاحتقار بكل ما يندرج في هذه الكلمة من معنى.

وهنالك من يعتقد بأن مثل هذا الموقف من شأنه أن يسيء لسمعتنا في العالم كله، ولاسيما في أوروبا وأمريكا. ومما هو محتمل أن فلسطينياً لاجئاً

مثلك سوف يشتمك بفظاظة وفجاجة، إذا ما شتمت اليهود، لا لأنه يحبهم، إذ ما من فلسطيني يحب أولئك اللئام الأخساء قط، بل لأن اللؤم داء مثل داء السكري، أو داء السرطان، لا شفاء منه بتاتاً، أي لأنه وجد ذريعة يتذرع بها للنيل منك. فنحن الفلسطينيين علينا أن نذبح يومياً دون أن تصدر عنا أية نأمة أو أي رد من ردود الأفعال. وكل مقاومة نبديها لدرء الخطر عن رقاب أطفالنا ومستقبلهم الحر ليست، في نظر أعدائنا، سوى صنف من أصناف الإرهاب، وذلك لأنهم لا يعترفون بأن كل عدوان من شأنه أن يستفز رداً خاصاً به. فالعقلانية في نظرهم هي أن ينهبوا الشعوب دون أن يكون لها أيما حق في إبداء أي دفاع عن النفس. إن العدوان يجهل المنطق، فالغربيون كانوا ملائكة، أو أقله إنهم لم يكونوا إرهابيين بتاتاً، يوم أبادوا الهنود الحمر ويوم قصفوا اليابان بالأسلحة النووية.

* * *

وأما في العقد الأخير من القرن العشرين فما سافرت إلا سفرة واحدة فقط. إنها تلك الرحلة المنعشة التي قمت بها إلى السويد والدانمرك لزيارة ابني مروان وزوجته سهى وطفله يوسف، الذي لم يكن لديه أي طفل آخر سواه في ذلك الحين، أي في سنة 1994. فلقد أمضيت شهر تموز وآب بطولهما التام في ذينك القطرين الجميلين، إذ زرت الدانمرك مرتين انطلاقاً من السويد، أو حصراً من مدينة مالمو الراخمة على الشاطئ قبالة كوبنهاغن. والحقيقة أن زيارتي للدانمرك قد تمت، في المرتين، دون أية تأشيرة دخول رسمية، لأن القنصلية الدنمركية في مالمو رفضت أن تمنحني تلك التأشيرة بسبب كوني فلسطينياً، فكل فلسطيني إرهابي إلى أن يثبت العكس. أليس من حقنا، بل من واجبنا، أن نحتقر عالماً وضع نفسه في خدمة اليهود بغير خجل أو حياء؟

كان المناخ ممتعاً خلال شطر من تلك الفترة، ولكنني عانيت أشد المعاناة من الحر الذي اجتاح السويد والدانمرك في تموز، على نحو لم يعرف في تلك الأصقاع منذ ثلاثة قرون وبعض القرن، حسب تصريحات أجهزة الإعلام. أما المشهد الطبيعي فهو خلاب، ولو لبرهة وجيزة فقط، إذ إن السويد غابة واحدة

تفتقر إلى التنوع، وكل ما يفتقر إلى التنوع لا بد له من أن يكون رتيباً، أو مملاً بعض الشيء. بيد أن ذلك الإقليم تكثر فيه البحيرات التي يؤمها الناس للنزهة والسباحة في آن واحد. وزرت جملة من تلك البحيرات ورأيت الناس وهم يتكدسون على الشطآن بالآلاف، وجلهم يلبسون ملابس السباحة.

ومما يستحق التسجيل أن بعض المدن السويدية مكسوّة بغلالة من فتون ساحر أخاذ. ولقد رأيت مدينة صغيرة اسمها جون شبنغ، وهي على الشاطئ الجنوبي الشرقي لإحدى البحيرات الكبرى، فلا أبالغ إذا ما زعمت بأنها لوحة رسمها فنان ذواقة يتعبد للجمال. وقد خيّل إليّ وأنا أعبرها أنها ليست من هذا العالم الساقط إلى الأبد، إذ تغلغل فيها السكينة والسحر وهدأة البال حتى لتحسبها فلذة افتلذت من جنان الخلد ثم ألقيت على هذه الأرض التي وصفها لوثر بأنها (فندق إبليس).

ولقد شاهدت كنيسة قديمة وعظيمة في مدينة اسمها روسكله، وهي في شمال الدانمرك، ولا تبعد كثيراً عن العاصمة. وأظنها بنيت وفقاً لطراز العمارة القوطية الجميلة والرشيقة إلى الحد المثير للدهشة، أو المتخلصة من الثقل والبدانة والرهل والغلاظة، وكل ما يحول دون الهيف وخفة الروح. وهذا هو طراز كنيسة نوتردام التي رأيتها في باريس، وكذلك طراز تلك الكنيسة الرائعة التي شاهدتها في مدينة غدانسك البولونية.

وفي كنيسة روسكله هذه تتوضع أضرحة ملوك الدانمرك وبعض آثارهم أو مخلفاتهم. ورسمت على بعض الجدران الداخلية صور لبعض أولئك الملوك أيضاً. ولقد شاهدت كنيسة أخرى في مدينة يوتبوري السويدية. ومع أنها بنيت في القرن التاسع عشر، إلا أن لها الطراز القوطي المتحدر من القرون الوسطى.

إني امرؤ مغرم بالآثار المعمارية، كما أنني أؤمن بأن الريازة هي المجلى الأول لشخصية أية أمة من الأمم أو أي عصر من العصور. ففي المعمار، الذي هو ضرب من ضروب الخلق أو الإنشاء، يحاول الإنسان أن يدمج نزعتين من أقوى نزعاته في ملغمة واحدة: ميله إلى الجمال وميله إلى الديمومة أو إلى الخلود. وعندي أنه ما من قطر في الدنيا كلها قد أنتج من الأبنية

العظيمة والرصينة، أو القادرة على مجابهة الزمن وصده، مثل ما أنتجت مصر، ولاسيما في الحقبة الممتدة بين بناء الأهرام وبين بناء الكرنك. وهذه مدة زمنية لا تقل عن ألف وخمسمائة سنة. (إنني شديد الإعجاب بالحضارة الفرعونية التي لم يقيض لي البتة أن أشاهد آثارها عن كثب.)

*   *   *

وعلمت أن مدينة روسكله كانت عاصمة الدانمرك في الأزمنة الغابرة. وهذا يعني أنها المدينة التي زارها، سنة 854م، سفير أندلسي اسمه يحيى بن الحكم الملقب بالغزال لشدة جماله. والرجل شاعر سبق له أن زار بغداد ليتعرف على ما فيها من شعر. لقد ذهب ذلك السفير على رأس وفد دبلوماسي رسمي إلى هودريك، ملك الدنمرك في تلك الأيام، لإبرام اتفاقية سلام مع تلك البلاد، وذلك إثر هجوم قام به القراصنة الدانمركيون على مدينة قرطبة في زمن الأمير عبد الرحمن الثاني.

وهذا يعني أن الغزال وصل إلى روسكله قبلي بألف ومائة وأربعين سنة بالتمام والكمال. ويبدو لي أنني استيقظت متأخراً جداً، فجئت إلى هذه الدنيا بعد ما شاخت وباخت واستهلكتها الأجيال الغابرة حتى لم يبق منها سوى القبح والإجرام والقرصنة والأسلحة الفتاكة. ولكم كان المتنبي صادقاً حين قال:

أتى الزمان بنوه في شبيبته
فسرهم، وأتيناه على الهرم.

ومما هو ناصع، أن المعري قد صدر عن هذا البيت حصراً حين وضع الفحوى نفسه بهذه الصيغة:

تمتع أبناء الزمان بأيده
وجئنا بوهن بعد ما خرف الدهر

ويبدو أن بكارة الدنيا قد استنزفت منذ زمن بعيد، فلم يبق فيها سوى العكر والرسابات الثقيلة الشبيهة بالحثالة. وربما جاز القول بأن ثمة تشيخاً كونياً يجتاح كل شيء دون استثناء.

وعندما كنت في كوبنهاغن أول مرة، وذلك في شهر تموز، يوم كانت موجة الحر في ريعانها وأوج عرامها، بحثت طويلاً، وأنا أنضح عرقاً مالحاً، عن ضريح سورين كيركجور، الفيلسوف الدنمركي الذائع الصيت. وظللت جاداً في الطلب والتنقيب حتى وصلت إليه. وكنت قد طالعت بعض كتبه من قبل، وبخاصة (إما أو)، وهو الذي قرأته باللغة الإنجليزية قبل ذهابي إلى الدانمرك بعشر سنوات أو زهاء ذلك.

ومما راقني في ذلك الفيلسوف الحي ثورته على فريدرك هيغل، الذي أثر عليّ كثيراً في الستينيات والسبعينيات. وأقنعتني تلك الثورة بأن فلسفة هيغل ليست سوى قرقعة أوان مطبخية فارغة. ولعل أهم ما يثلب مذهبه أنه يمنهج الحياة ويحيلها إلى تجريدات خاوية شاحبة، ويسجنها داخل زنزانة مغلقة، مع أنها انداح مفتوح مطلق السراح، يند عن كل تحديد أو تقييد. إن الحياة لا تقبل التعليب، لأنها بحر بلا سواحل، وهي تنبو عن كل نظرية مهماتك شديدة الضبط والدقة. فلكم أصاب كيركجور، الذي وقفت على ضريحه مبهور الأنفاس، حينما قال: "عند عتبة الإنسان تتعطل النواميس". ولهذا، يجوز لي أن أنعت ذلك الفيلسوف الدنمركي بأنه ثورة الروح على كل جمود، بل ثورة السيولة والمرونة على التحجر وضيق الرؤية الذي من شأنه أن يقلص مساحة الوجدان. لقد جسّد كير كجور ثورة الحرارة الباطنية على كل تفيهق وتلمظ وعبث بالمجردات المكدودة الخالية من كل حيوية وحياة.

ودهشت فتاة النزل عندما سألتها عن ضريح الفيلسوف، كما دهشت أنا حين تيقنت من أنها لم تسمع باسمه قط. سألتني قائلة: من أين أنت؟ قلت: من سوريا. قالت: أنت إذن عربي؟ فأجبت بالإيجاب. وحينئذ قالت: كثيراً ما يجئ العرب إلى هذا المكان بحثاً عن نساء متسيبات، وكذلك عن خمور وحشيش، فلماذا تغايرهم جميعاً وتسأل عن فيلسوف، بل حتى عن ضريح؟ فأجبتها بأن

لكل إنسان طبعه الخاص الذي يحدد ميوله واهتماماته، وما من أحد يملك أن يخالف طبعه أو محتواه الصميمي أو التأسيسي.

وفي الحق أنني وجدت روحي أقرب إلى الفيلسوف الدانمركي منها إلى الألماني. ففلسفة الدانمركي شبيهة بالصّوفية ذات النزعة الذاتية. ولقد أسلفت بأن ميولي الصوفية قد بدأت تتشكل وتتنامى منذ سنة 1968، يوم قرأت رسائل ابن عربي، أو حتى منذ سنة 1966، يوم طالعت (ترجمان الأشواق).

*   *   *

وبعد تلك الرحلات التي قمت بها أملك أن أؤكد على أنني لم ترقني تلك المجتمعات الأوروبية التي يهيمن الصمت والعبوس على إنسانها الغارق في حياة مادية وجسدية لم يعرف لها التاريخ مثيلاً من قبل. فالناس هناك يظلون هادئين، بل رصينين، ما لم يشربوا الخمور، فإذا شربوا وأفرطوا في الشراب، ولاسيما يومي السبت والأحد، انقلبوا إلى غوغاء، أو حتى إلى حيوانات صاخبة، وأحياناً ضارية، أو ميالة إلى العنف والجريمة. وقد لاحظت أن نساءهم مسترجلات إلا ما ندر. وبإيجاز، إنني لم أجد الإنسان في أوروبا، أو لا أذكر أنني رأيته.

ومما أثار استهجاني أن ثمانياً من النساء السويديات الشابات قد راودنني عن نفسي، مع أنني كنت في السادسة والخمسين من سنوات عمري، وأمارات الشيخوخة بادية على وجهي لا تخفى. ولقد رفضتهن جميعاً وذلك لما في تلك المراودات من ابتذال وفجاجة أو بذاءة ينتجها السكر.

وذات مرة كنا نتناول العشاء في أحد المطاعم في مدينة فكشو. وحينما انتهينا سبقت جماعتي وخرجت، بسبب الحر، أنتظرهم على الرصيف قرب الباب، وذلك عند منتصف الليل تماماً. وعلى حين غرّة دهمتني امرأة شابة ثملة وأخذت تعانقني وتقبلني وتتكلم باللغة السويدية التي لا أفهمها. أما أنا فلم أنبس ببنت شفة قط. كما أنني لم أقم بأية مقاومة بتاتاً. وطالت تلك البرهة، وخفت أن يخرج أصحابي ويشاهدوني في ذلك الوضع المخجل. ولكن لحسن الحظ أنهم

تأخروا بعض الشيء. فملّت المرأة من صمتي العنيد، وغادرتني بغير ضوضاء. وعندئذ تنفست الصعداء لأنني نجوت من فضيحة لست مسؤولاً عنها بتاتاً.

وكان مروان يسكن في بناية من أربعة طوابق، وتعيش فيها اثنتا عشرة أسرة، أو زهاء ذلك. وقد رأيت الكبار يحيون بعضهم بعضاً حين يلتقون على الدرج، أما الشبان والشابات الذين هم دون الأربعين، فما كان أي منهم يأبه بوجود الآخرين بتاتاً. وصادفت في البناية رجلاً عجوزاً عمره أكثر من ثمانين سنة. وقد اعتاد أن يجلس في الحديقة المحيطة بالمبنى، كما اعتدت أن أفعل ذلك بسبب موجة الحر. وكنا نتحدث معاً في بعض الأحيان. فأخبرني العجوز بأنني الإنسان الوحيد الذي يجالسه ويتحدث إليه في الدنيا كلها. ترى، ما قيمة هذه الحضارة التي ربح فيها الإنسان كل شيء وخسر نفسه؟

ولكن طبيعة السويد جميلة جداً. ولست أنسى الدرس الذي لقنني إياه وردزورث، وخلاصته أن جمال الطبيعة من شأنه أن يعلم المرء الأخلاق، فضلاً عن أن الطبيعة تجسيد للبهجة والطيبة في آن واحد. ولا ريب عندي أن كل جمال أخلاق وأن كل أخلاق جمال، وأن جمال الطبيعة يحض المرء على السمو والنقاء وصفاء السريرة والارتقاء الى مستوى الروح.

ولئن كان الإنجليز يعبدون المال، فإن الألمان والفرنسيين والدانمركيين يعانون من حماقة لا تخفى على النبيه. ولا أدري لماذا يتبدى النزق أحياناً على الشخصية الفرنسية التي لاحظت أنها سريعة الغضب والهيجان. كما أن الإنسان الفرنسي نادراً ما يكون جذاباً، وذلك بسبب ميله إلى الانغلاق. وربما جاز لي أن أزعم بأن الشعب السويدي هو الألطف بين الشعوب الأوروبية كلها، مع أنني رأيت الناس في السويد يتحولون إلى بهائم حين يشربون الكحول حتى الثمالة.

ومع هذه المثالب، فإن تلك الشعوب تؤمن بأنها أنجزت المثل الأعلى الإنساني، أو بأن الكون قد راح يتطور طوال آلاف السنين لينتج شخصيتها التي يحسبونها كمال الوجود. فكيف يكون الكمال حصة أناس سمموا الهواء الذي يتنفسون؟ إن تلك الأمم التي تعبد المال وتوثنه وتحله محل الروح لا يسعها البتة

أن تصلح للكمال الذي هو مقولة جوانية صرفة، لأن من شأنه أن يخرج الإنسان من أنانيته التي تتجذر في كنهه ويقين أمره، وذلك ليجعله إنساناً إخائياً مسؤولاً أمام ضميره عن مصير الآخرين. ولكن الأثرة المضادة للإيثار التي يتصف بها الإنسان الأوروبي سوف تفضي إلى ترمد المجتمعات الأوروبية نفسها. ففي الصلب من مذهبي أن مصير كل حضارة تحدده التربية التي تمارسها على الفرد، ولاسيما تربية الضمير وتنميته أو إغفاله وتركه بغواً يجهل كل نضج.

*　　　*　　　*

وعندي أن حضارة أوروبا كلها قد تشكلت عبر التأثر بالشرق. فالحضارة اليونانية، مثلاً، ما كان لها أن تجئ إلى الوجود من دون مادة الورق. والورق ابتكار صيني تم انجازه في القرن الثامن قبل الميلاد. وقد عممه الفينيقيون على حوض البحر المتوسط يوم راحوا يلحمون العوالم بعضها ببعض خلال النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد. نعم، إن السفينة الفينيقية هي التي أسست بلاد اليونان، ثم بلاد الرومان، بل السواحل الأوروبية بأسرها. ولم تكتف السفينة الفينيقية بحمل الورق إلى تلك البلدان، بل حملت الأبجدية التي هي الشرط الشارط لكل كتابة متقدمة. فلولا صناعة الورق والاتجار به، ولولا الأبجدية التي صنعها الفينيقيون، لما سمع أحد بالمسرح اليوناني، ولا بالفلسفة اليونانية، ولما بلغنا أي اسم من أسماء المؤرخين الإغريق، دون استثناء هيرودت أو توسيديد. فما من قطيعة بتاتاً، بل تواصل وتناسل واشتقاق دائم.

في سنة 1985 بدأت بتأليف كتاب عنوانه (خرافة المعجزة اليونانية)، أردت أن أبرهن من خلاله أن الحضارة الإغريقية ذات الخصوصية التي لا يجوز إنكارها، قد تشكلت بفضل احتكاكها بالحضارات الشرقية. وأكدت على أنه ليس من قبيل الصدفة أن تزدهر الحضارة اليونانية بعد مضي أربعة قرون على بداية فوران النشاط التجاري الفينيقي الذي ابتدأ في القرن الحادي عشر قبل الميلاد، والذي امتد من الصين والهند حتى الجزر البريطانية.

وفي بداية ذلك الكتاب أكدت على أنني لا أعرف أحداً في العالم العربي قد حاول أن يفحص الأدبين اليوناني واللاتيني فحصاً نقدياً سابراً ومهموماً بالقيمة المرتكزة على المعيار. ففي تقديري أنه ليس هنالك شعر يوناني أو لاتيني يصح تصنيفه كإنجاز أدبي جيد، ولاسيما بعد استثناء كاتولس، ولكن دون استثناء بندار. أما المسرح اليوناني فلا يروقني منه سوى مسرحيتين اثنتين فقط، وهما " أوديب ملكاً " و" أنتيغوني ". وعندي أن الأوديسة نص أدبي جيد. أما الالياذة والانيادة فأشعر بالملل حين أطالع أياً منهما. مع أنهما تنطويان على القليل من الشعر الجيد في بعض صفحاتهما.

وقد بينت أن أول فلسفة ناضجة هي فلسفة أفلاطون، وأن الفلسفة اليونانية السابقة على ذلك الفيلسوف لا تكفي لإنتاج فيلسوف بهذا الحجم، إذ إن كل حياة مسار وتدرج نحو النضج أو نمو داخلي متساوق. فكيف جاءت فلسفة أفلاطون بمثابة وثبة في تاريخ الفلسفة؟ ما الذي يفسر تلك الوثبة؟ لا يفسرها شيء سوى ذلك الخبر الذي يقول بأن أفلاطون قد عاش فترة طويلة في مصر. وقد ذكر استرابون الذي عاش في القرن الأول قبل الميلاد بأن بيت أفلاطون في مصر قد ظل معروفاً حتى عصره. ثم إن مقولة العدالة، التي هي مركز الفلسفة السياسية الأفلاطونية، قد كانت مركز الديانة الفرعونية، إذ إن ماعت ربة العدالة في تلك الديانة هي واحدة من كبار الآلهة. ومثال الخير الذي جعل أفلاطون من الشمس رمزاً له يذكر بديانة أخناتون. وحتى اسم أفلاطون Platon قد يكون وثيق الصلة باسم الإله أتون الذي عبده أخناتون، والذي اتخذ من قرص الشمس شكله الظاهر.

وفي الوقت نفسه نشرت مقالة في إحدى الصحف عنوانها (أفلاطون، يوناني أم مصري؟) وأكدت على أن الرجل إغريقي من جهة الدم دون ريب، ولكنه مصري من جهة الثقافة. واستندت إلى مؤلفات أفلاطون التي أحببتها كثيراً، ولاسيما (الثئتس) و (الشرائع)، لأبين اطلاع الفيلسوف اليوناني على الحضارة الفرعونية ودرايته المباشرة بها، مما يؤكد أنه وقع تحت تأثيرها. ومما يشجع المرء على الظن بهذه الفكرة أن فكر أفلاطون هو فكر ديني وصوفي وأسطوري، تماماً كالديانة الفرعونية.

وبعد صدور المقالة جاءت ردود غوغائية لا ترقى البتة إلى المستوى المطلوب لدى مناقشة موضوع كبير كهذا الموضوع. فهذا الذي شتم أمي وذاك الذي شتم أبي، وهنالك من اتهمني بالتعصب القومي وبالإساءة عمداً إلى الأمم الراقية. وعندئذ أدركت أن عقدة الخواجا لا تسمح لنا بأن نكتب أيما شيء مما يخص تاريخ الثقافة.

وقد أتاح لي رئيس التحرير يومئذ أن أقرأ بعضاً من الردود التي أبى أن ينشرها لسفاهتها، أو لتماديها في البذاء وقلة الحياء. ولكنه نشر ردوداً سخيفة تنم عن افتقار كتابها إلى أية خبرة بهذا الموضوع. ويبدو أن الصحافة لا تملك إلا أن تكون ظاهرة غوغائية، في الغالب الأعم، كما أن علاج اللؤم أمر ميؤوس منه جزماً.

ولقد تكررت هذه الحادثة نفسها حين نشرت كتاباً عنوانه (مقال في الرواية) /2002/، وهو الذي رفضت على صفحاته عدداً من الروايات الأوروبية والأمريكية، كما أعلنت انحطاط الرواية في العالم كله ابتداء من وفاة لورنس سنة 1930. وعندئذ تفجرت عقدة الخواجا من جديد، وذلك في الردود على الكتاب الذي سفهته بطريقة تدعو إلى الشفقة على أولئك الممرورين. ويبدو أن اللؤم وضمور الذهن معاً هما المسؤولان أو المحرضان على اتخاذ تلك المواقف الغوغائية الممجوجة. ومرة أخرى يناقشك الحساب أناس أميون لا صلة لهم البتة بالموضوع الذي يتنطعون له بغير وجه حق.

* * *

وأياً ما كان الشأن، فإن بودي أن أؤكد على أن حضارة أوروبا قد بنتها القرصنة حصراً. فهذه هي الحقيقة الموضوعية الخالصة، ولست أريد أن أهين تلك الأمم بتاتاً، بل أن أصفها بوصفها الصحيح. أما الولايات المتحدة فلئن فتشت عن حقيقتها فسوف تجد أنها آفة الزمن المعاصر، أو البلاء الذي ابتليت به الأرض كلها منذ الحرب العالمية الثانية حتى اليوم. وعندي أن كل بؤس في العالم الراهن سببه تلك الولايات الإرهابية، بل قل إنها السم الذي يسمم الحياة

المعاصرة على هذا الكوكب المنكوب بالنذالة والإجرام. ولهذا، فإن من المتعذر أن يزول شقاء البشر وبؤسهم قبل أن تنكمش تلك الولايات ويركد نشاطها المسعور. ومن الواضح أنها تتسلط اليوم على البلدان الإسلامية، وأنها تحاول أن تعزل تلك البلدان وتحجر عليها وتفك الارتباط بينها وبين بقية العالم. ولكنها تشدد على البلدان العربية أكثر مما تشدد على سواها من البلدان.

ولهذا، أرى أن على الحساسين أن ينتجوا شعوراً بالازدراء والاشمئزاز من هذه العصور الحديثة المخموجة باليهود ورعاة البقر والقراصنة ومن لف لفهم من خونة البلدان المعتدى عليها. وهاهنا أتذكر شعار ابن سبعين، ذلك الصوفي المهيب، وهو ما كان يخاطب به أتباعه: (اكفروا بحقيقة عصركم). فعلينا أن نكفر بحقيقة عصرنا ونزدريها، وما تلك الحقيقة سوى اليهود والغربيين أو القراصنة، وسوى المال والسلاح والعدوان والنهب والمجازر واللامعقول وإمحاء قيمة الإنسان التي تهبط مع هبوط الوحدات المالية وتدنّي قدرتها على الشراء.

وكثيراً ما أتخيل أن الدنيا لم تعد سوى مزبلة كبيرة جداً، مزبلة بحجم جبال هملايا، وأن كبير ملوكها الذي يتعذر عليه إلا أن يكون غبياً، بل ممروراً أو معتوهاً، أو لا يخلو من البلاهة، يجلس على ذروتها ويصيح مثل الديك (الأطوز)، وهو الذي لا عرف له ولا ذيل. ولكن أهم ما في الأمر أن قيمتك عندي تتحدد استناداً إلى موقفك من هذه الحضارة الحديثة المجدبة الماحلة. فلا يحترمها إلا من كان خديجاً بغواً لم ينضج بعد، ولا يزدريها إلا من هو كبير الروح أو عظيم المقدار، مع أنها تشبه السحر، بل هي قد جعلت السحر واقعاً مرئياً بالعين المجردة.

ومن المفارقات أن تلك الأمم الموغلة في توثين المال واللذائذ الجسمية، قد تمكنت من إنتاج بعض الفلسفة السامية، وإن يكن قليلاً. ويبدو أنه لا يحدث إلا ما هو مركوز سلفاً في طبع الأشياء، أو مضمر داخل بناها، وإن كان مخبوءاً عن كل عين أو نظر. أجل، لن يحدث إلا ما يستقر سلفاً في نوايا الكائنات أو في نسيجها حصراً، بل في رحمها القادر على الإنجاب دون توقف. فأنا استهجن كيف تمكن الشعب الفرنسي المضطرب الشخصية والمتهافت على

الغرائز البدنية، أن ينسج فلسفة روحية من شأنها أن تخاطب صميم الإنسان الحي. إن فيلسوفاً مثل مين دي بيران هو الفيلسوف الروحي الأوروبي النموذجي الذي قلما يدانيه أي فيلسوف آخر. فكم كان لطيفاً حين رأى للحياة ثلاثة مستويات، أدناها الحياة الجسمية، وثانيها الوعي المدرك للحقائق الموضوعية، أما أرقاها فهو (تدفق النعمة في الروح). وهذه الفكرة الأخيرة هي ماهية الصوفية الأصيلة، أو غير الزائفة، وكنهها وجوهر حقيقتها أو صميم أمرها. ولكنها، دون ريب، مأخوذة من صلب المسيحية، أو من رعشها الحميم. وهذا مذهب من شأنه أن يؤكد ما فحواه أن كل ما هو أصلي في الغرب قد أتاه من الشرق بكل نصوع.

وبما أنني أقبل المتعارضات والمتباينات، ففي استطاعتي أن احترم فلسفة دي بيران، مع أنني أرى هذا البيت الآتي من المعرة أصح وأصدق:

تعب كلها الحياة، فما أعجب إلا من راغب في ازدياد.

إن هذا البيت هو الفلسفة بأل التعريف. ثم إنه لا يصدر إلا عن كائن حي، إذ لا ينفي الحياة على هذا النحو الحاسم الجازم إلا من تطفح الحيوية في روحه وتفيض. وعندي أن الشعراء ينسجون أخيلة ومشاعر فوّارة ذات عرامة، كما أن من شأنها أن تبذ تجريدات الفلاسفة الناشفة في معظم الأحيان.

*   *   *

أما في القرن الحادي والعشرين، أو في الشطر الذي انقضى منه، فلم يقيّض لي أن أسافر سوى سفرتين صغيرتين. أما الأولى فهي تلك التي قمت بها إلى عمان في أواخر تموز سنة 2001، وذلك ابتغاء المشاركة في النشاط الثقافي لمهرجان جرش، إذ ألقيت مداخلة عنوانها (الشعر المقاوم)، تحدثت فيها عن الشعراء الفلسطينيين الذين ازدهروا بين سنة 1917 وسنة 1948.

ووجدت عمان مدينة واسعة الانتشار، وذات شوارع جيدة الهندسة، كما أن أبنيتها حجرية جميلة. وهي نظيفة حقاً، والتجول فيها مريح للنفس، وذلك لنزاهتها ونظافة هوائها. وإذا ما سار فيها المرء شعر بأنه يسير في شوارع

مدينة من مدن السويد، وذلك لحسن ترتيبها وتخلصها من وحش الازدحام. إنها لم تعد تلك القرية التي رأيتها في شهر تموز سنة 1965. فلا مرية في أن فورة النفط التي بدأت سنة 1972، أو زهاء ذلك، قد غيرت وجه الكرة الأرضية بأسرها.

ولكنني لاحظت أن عمان مدينة بلا معالم ولا شخصية ولا مزايا من الفصيلة الأصلية تميزها على نحو خاص، وذلك على النقيض من مدينة دمشق المزودة بالكثير من السجايا أو المنجزات التي تملك أن تصنع لها هوية خاصة، ولاسيما الجامع الأموي الذي من شأنه أن يمغنط الروح أو يصوّفها، وكذلك قصر العظم والسور والقلعة والمعرض والغوطة المنعشة للنفس، ثم ضريح ابن عربي وضريح الشيخ النابلسي وضريح العفيف التلمساني الذين يزودونها بسورة تأتي من خلد قصي. وليس للمرء أن ينسى ضريح نور الدين وضريح صلاح الدين وضريح ابن عساكر، وما إلى ذلك من المعالم الصانعة للمزية والفضل والتفرد، والدالة على أن الزمان قد كان هنا ذات يوم. ففي الحق أن هذه الموروثات تضفي على دمشق شيئاً من الروحانية والاستسرار، فتجعل لها هوية تخصها وحدها دون سائر مدن العالم. ولكن عمان مدينة بلا قسمات من هذا الفصيل. ويبدو أن الماضي لم يعرفها قط.

وأما السفرة الثانية فهي تلك التي قمت بها إلى دولة الإمارات العربية، في أواخر تشرين الثاني سنة 2004، وذلك للمشاركة في واحد من المهرجانات التي تقام للشعر أحياناً، إذ كنت مكلفاً بإلقاء محاضرة عنوانها (ماهية الشعر العظيم). ولكنني حين وصلت إلى مدينة الشارقة علمت أن المهرجان قد تأجل لمدة شهر، أو أكثر بقليل، وذلك بسبب وفاة الأمير زايد، فرجعت أدراجي إلى دمشق بعد ما قضيت ليلتين في ذلك القطر. ولكنني لم أرجع إلى الشارقة مرة أخرى للاشتراك في المهرجان نفسه حين صار موعده المؤكد، وذلك في كانون الثاني سنة 2005، فقد اشمأزت نفسي من معاودة الالتقاء بكائنات لم تتحمل أن تتصل بي عبر الهاتف لتبلغني بأن المهرجان قد تأجل. إن تلك القبائل البدوية لا تستحق أفكاراً لها صلة بالحساسية والجمال. أقول هذا دون أدنى ميل إلى التنفج

أو إلى الازدهاء، بل دون أية رغبة في إهانة أحد، ولكن فقط في وصف الأشياء كما هي بالضبط.

ومع أن مدن الإمارات، ولاسيما دبي التي لم أشاهد لمطارها مثيلاً قط، مبنية على نحو أرقى من بناء المدن في أوروبا، إلا أنها مدن يباب خاوية على عروشها، وذلك لأنها مستودعات مال وحسب. فلست إلا صادقاً إذا ما أعلنت بأنني كنت أسير في مقبرة هامدة عند ما رحت أتجول في شوارع الشارقة الخالية من الدفء الباطني والحيوية الجوانية. أن تصير الحياة مالاً وكفى، تلك مصيبة لا عزاء لها ولا سلوان بتاتاً.

*　　　*　　　*

وأياً ما كان جوهر الحال، فإنني اليوم لا أسافر ولا أرغب في السفر، بل أشعر بميل شديد إلى السكون والاستتباب واختزال كل حراك. ولكن هذا الميل إلى الخمول يناقض ما كنت عليه في طور الشباب العارم مناقضة فورية صريحة. فوا لهفي على الشباب الذي كان يمور بالحيوية وبالرغبة في النزوح إلى النائيات التي تصدر عنها نداءات آمرة طاغية. ومما هو محسوم أن دمائي قد فترت وخسرت الكثير من زخمها وحرارتها، أو من حيويتها المختصة بأن تجعل العيش هنيئاً مبهجاً حتى في سواء المحن، وأن تزوده بنكهة عسلية شهية، مما يدفع النفس صوب الانحياز إلى خندق الوجود وليس إلى خندق العدم. وقد يحالفني الرشد إذا ما صرّحت بأن الحياة قد تتلخص بكلمة واحدة وهي النضارة، أعني اخضلال الروح والجسد في آن واحد.

وأنى تكون له نضارة أو اخضلال واخضرار ذاك الذي يشعر بأن الوقت يسير بطيئاً، بليداً، خاوياً إلا من قشور ناشفة تغلفه من الخارج، حتى تتقلص المسافة الفاصلة بين الوجود والعدم، بحيث يكاد الشيئان أن يستويا تمام الاستواء ثم ينحلان في اللافرق الذي هو الاسم الآخر للاقيمة.

بيد أن أخشى ما أخشاه من المحدثات في هذه الأيام أن أصير إلى أرذل العمر، إذ في مثل هذه الحال يكون المرء قد دخل إلى الجحيم نفسه وهو لم يزل

على قيد الحياة. ولكن ما لا يقل سوءاً عن التردي إلى أرذل العمر هو أنه ما من شيء إلا ويخل بواجبه تجاه روحي، وأنه لا وجود لأي مصدر يملك أن يزودني بأية جرعة شهية من شأنها أن تنعش وتبهج.

يا الله! لماذا كانت الدنيا على هذه الحال، ولم تكن على حال أجود؟

الفصل الرابع
الشعور والتجربة:

ها أنا ذا في هذه الأيام محاط بفراغ عريض، بل جد عريض، وله من القدرة على الضغط والخنق ما يملك أن يجعل منه كابوساً شنيعاً أو رهاباً فظيعاً. وبسبب شدة حضور هذا الفراغ فإنه يخلق في داخلي يأساً من أية محاولة تبتغي اختراقه أو الخروج منه، لأنها لا جدوى منها بتاتاً. فهو ينداح في جميع الاتجاهات وفوق أمداء لا نهاية لها قط.

ولقد امتلأت بشعور مركب يتألف من المرارة والاشمئزاز في آن واحد، كما اقتنعت تماماً بأن كل تفكير أصيل بالوجود يقتضي الشعور بشيء من الازدراء والاحتقار والتقزز، وإلا فإن الحساسية لم تنضج بعد. وعندي أن فجاجة الحساسية هي عيب من أكبر العيوب التي تثلب شخصية الإنسان.

وكثيراً ما أشعر بأن الأشياء المعطاة لمقلة العين لا تزيد عن كونها عدماً تمكن من أن يتجسد ويأخذ شكلاً محسوساً أو ملموساً. ولهذا أراني أشعر دائماً بأن كل شيء يخل بواجبه تجاه روحي. فما من كائن إلا ويحدني أو يشرطني ويجعل مني عبداً لحياتي التي لا أرى لها البتة لزوماً، بل لا حاجة لي بها قط. وعبثاً أرنو إلى الخلاص، إذ تتعذر الاستقالة من اللعنة تعذراً يند عن كل مساومة أو مهادنة. وما من يدٍ في سواء هذا السعير المتأجج تمتد لتمسح الأرق عن جفوني.

ولهذا فإنني أعرّف الإنسان الحساس بأنه ذلك الكائن الروحي الذي يكابد الاغتراب والتشيؤ والنفي، حتى وإن كان بين ذويه. ومن لا يكابد الاغتراب في هذه الأيام لا يسعه البتة أن يكون إنساناً أصلياً على الحقيقة، أو أن يكون ناجياً من التزوير. ثم إنني اعتقد بأن كل إنسان من الفصيلة الاغترابية هو بالضرورة شاعر حتى لو لم يكتب بيتاً واحداً من الشعر.

ولم أجد لهذا الشعور المغترب، أو لهذه المرارة الدائمة، من علالة سوى الكتاب الذي رافقني منذ اليفاعة حتى اليوم، إذ لا بد من مرجع يفيء إليه المرء باستمرار، بل يبدو أن للأشياء بأسرها مركزاً لا محيد لها عن الإنابة إليه بحكم

القسر والضرورة. فكان أن أعجبت أشد الإعجاب بشوبنهور، وذلك لحساسيته وأصالة شعوره، بل أعجبت بالخط الفكري التحسسي الذي يبدأ بالبودا ويمر بالمعري ليصل إلى شوبنهور، ثم إلى سواه من كبار الحساسين وغير القادرين على التكيف مع الشر، ولا سيما توماس هاردي الذي لم يجد أي عزاء في هذه الحياة. وإنني مثلهم جميعاً أرفض حياة لا يربحها ولا ينجح فيها إلا من كان شريراً أو نذلاً على هذا النحو أو ذاك.

ومما هو صادق في ذهني أن شوبنهور لا يتذهن بل يتحسس، شأنه في ذلك شأن دستويفسكي الذي لا يضاهيه أحد في مضمار الأدب سوى شكسبير وحده، وهو من رأى البشر وهم يعومون في أثباج الجحيم، بينما استطاع دستويفسكي أن يشاهد الجحيم وهو يغلي ويفور داخل النفس البشرية. وعندي أن التحسس هو أرقى نمط من أنماط العلاقة بين الروح والأشياء. ومما يثير استهجاني حقاً أن تتمكن الشخصية الألمانية السادرة في بحران التجريد الناشف من إفراز وجدان حساس كوجدان شوبنهور.

وبفعل هذا الشعور بالاغتراب والاشمئزاز، فإنني أشعر بأن حياتي لها بعدان متباينان: حياة عامة أكابد فيها ضياعي وهَواني على كل سلطة مهما يك نوعها، وحياة جد خاصة محبوسة داخل جلدي أو في تلافيف دماغي، أعني أنها لا تجد لها أيما درب إلى الوجود العيني الفعلي. وربما كانت حاجة هذه الحياة الخاصة الزاخرة بـالمحتوى الوجداني قد مالت إلى التخارج في نصوص مكتوبة، أي أن تلك الطاقة هي التي حتمت أن أكتب باستمرار طوال عشرات السنين.

وبسبب هذا الكابوس الدائم، فإن الكلمة التي تتواتر على لساني دون كلل أو ملل هي كلمة (لماذا)، أقصد لماذا هذا العناء كله؟ ولست لأبالغ إذا ما زعمت بأن هذه الكلمة إياها ترجني رجاً في بعض الأحيان كما لو أنها زلزال صغير يزلزل كياني ويهز وجداني من جذوره السحيقة الغور. فما دامت هذه الحياة لا غاية لها ولا لزوم بتاتاً وما دمت سوف أموت عاجلاً أم آجلاً، فلماذا أتيت إلى هذه الدنيا الاضطهادية المترعة بالشرور.

ومع ذلك، فإنني كثيراً ما استمرئ هدأة التأمل الرائق العميق، وكثيراً ما أشعر بأنني أبحث عن كائن بشري محدوس في جوف سريرتي الخاصة، وأحسبه أكبر مني وأقدر. ولكنني كثيراً ما أهرع إلى داخل روحي كلما تبدت لي فظاعة الحياة التي ينتشر فيها الشر كما لو أنه اخطبوط، أو حين أدرك أن الهزيمة هي قدر الأرواح المطهمة النبيلة (هنيبال، مثلاً)، أما النصر فهو نصير الفاسدين أو نصيبهم في معظم الأحيان. ولما كنت ساذجاً فإن في استطاعة أي خبيث ماكر أن ينطلي عليّ وأن يبتزني ما يريد، ولا أنجو من فخ كهذا إلا على ندرة فقط. ومع أن لدي خوفاً غريزياً من الأنذال فإنهم كثيراً ما يجرونني إلى مآزق كثيراً ما أكون فيها الخاسر الوحيد. بيد أنني لا أزدري أحداً بقدر ما أزدري أولئك الذين حصلوا على ما لا يستحقون، بل الذين نالوا أيما شيء بالغش والاحتيال والانتهاز، أو عن طريق الخداع والتملق والمداهنة. وأشعر دائماً بأن في سريرتي غريزة نفسية من شأنها أن تشم رائحة النذالة في أي كائن بشري، بل أن تحدد مستوى لؤمه ونسبة خسّته مهماتك طفيفة المقدار.

ولست أمقت أحداً كما أمقت أولئك الذين يتخذون مني وسيلة لغاياتهم، سواء أكانت نفيسة أم خسيسة. ويعز عليّ كثيراً أن أصنع معروفاً لأناس ليس من شيمتهم أن يقدروه تمام التقدير. ولقد أحسنت إلى كثيرين فما كان منهم إلا أن أساؤوا إليّ، بل ما صنعت جميلاً لأحد وكافأني عليه، مع أنني لا أنسى فضل من أعارني عود ثقاب. وربما جاز لي أن أزعم بأن خير الأقوال المأثورة هو هذا القول الذي أراه في منتهى الصدق: (اتق شر من أحسنت إليه.)

لقد دخلت سلك التعليم سنة 1962 كمعلم يكدح في غرفة الصف ويشقى، وخرجت من ذلك العمل المنهك بعد ثلاثين سنة، وأنا معلم مدرسة، تماماً كما كنت يوم باشرت التعليم أول مرة. ولكن بعض الذين علمتهم الحرف قد جاؤوا إلى غرفة صفي ليعلموني كيف يجب أن أعلم التلاميذ. صاروا مفتشين ومديرين وأصحاب مناصب عالية لأنهم انتهازيون ومنافقون لا تأبى نفوسهم أيما ضيم، بينما بقيت أنا على حالي لأنني أنفت من الذي لم يأنفوا منه ولم يستنكفوا عنه. وما كنت أعمى عن الدرب التي تفضي إلى المناصب العليا. ولكن غريزتي تأبى السلوك على الدروب الملتوية وتتقزز منها كما لو أنها النتن

بأم عينه. ومع درايتي التامة بأنه ما من أحد سوف يقدر هذا الموقف الذي اتخذت، فإنه يعني لي الكثير، وذلك لأنه يمنحني الشعور بالكرامة الروحية واحترام الذات. فالأهم هو أن أرضي ضميري، وليس مهماً أن أنال رضا الآخرين، لأن الآخرين لن يرضوا عنك إلا إذا رأوك جثماناً جاهزاً للدفن. إنني لا أملك أن أواجه الشر ولكنني أملك أن أنأى بنفسي عنه، أو أمنعه من أن يكدنني في خدمته حتى ولو كانت المكافأة جبالاً من ذهب.

وفي مذهبي أن كلاً من الشهامة والنخوة في الدم، وكذلك الحساسية والشرف والمروءة. ثم إن الأنفة هي أس الفضائل كلها أو جمّاعها ونقطة ازدلافها واحتشادها في برهة تركيبية واحدة. فلم أكن كفيف البصر بحيث لا أرى نهج الانتهاز اللاحب، ولكن الكائنات لا تملك أن تخالف طباعها. إنني أومن بأن الأنفة واحدة من أعظم القيم. أما حدها فهو النفور من كل فعل دنيء، ولا سيما النفور من الرضوخ لإرادة المعتدين، وكذلك لأولئك الذين يبتغون تغميسك في الابتذال. وأغلب ظني أن هذه الكلمة وقف على اللغة العربية وحدها إذ هي تشتقها من الأنف الذي هو أول أعضاء التنفس، أي أول أعضاء الحياة.

وبما أن هذا العالم لا يكسبه إلا أصحاب الضمائر الموحلة، وقلما ينجح فيه الطيبون والأبرياء وذوو السرائر النظيفة، فإن من واجبات الفرد الأصيل أن يطرح على نفسه هذا السؤال باستمرار: هل تستحق هذه الحياة أن تعاش، مع أنها مفعمة بالشرور؟ أو هذا: هل يحق للمرء أن يمارس الهناء الغنائي الجذلان في سواء هذه المذبحة الغشوم؟ ثم إن من لم يناقش هذه المعضلات مع نفسه، وبرصانة جادة، هو كائن لم يبلغ إلى طور البلوغ الوجداني بعد.

فالحقيقة العليا أو الأكثر رفعة بين جميع الحقائق هي الضمير الذي من شأنه أن يجعل المرء يأنف من كونه وحشاً مفترساً يشقى به إخوانه البشر ولا يسعدون. فالضمير هو القوة الباطنية التي تحث كل فرد على بذل الجهد ابتغاء وقاية الإنسانية من استشراء التآكل الذي يفتك بها منذ أن أشرقت الشمس أول مرة على هذه الأرض البائسة. إن الضمير المفعم بالنسغ الحي هو ما يلزمك بإنسانية الإنسان، وما يجعلك مسؤولاً عن الجنس البشري كله، بل يجعل هموم العالم همومك الخاصة، ويخلصك من أنانيتك الممروضة، ويدفعك إلى تقديس

الإيثار ونبذ الأثرة السوداء. فإن أنت أكرمت إنساناً أكرمت نفسك، بل أكرمت الإنسانية بأسرها في شخصه الذي يستحق التكريم، وذلك لأن كل امرئ هو كائن شريف كريم حتى تثبت رداءته وسوء أخلاقه. وعندي أن أزمتنا هي أزمة أخلاق وليست أزمة أرزاق. ولهذا فقد توجب على الإنسان الطيب أن يكافح ويجاهد من أجل تثبيت منظومة من القيم الروحية في هذه الدنيا التي يلتهمها الأشرار والأنذال. ولا قيمة أعلى من الضمير الذي أراه نافذة تطل من المنفى على الملكوت، وبذلك تتاح للإنسان فرصة كافية ليتلاقى بكنهه أو بأصالته الخاصة.

* * *

ما زلت أقيم في مخيم اليرموك منذ سنة 1956، أي منذ ريّق العمر وحتى هذا الطور الشائخ السقيم.
أما الصفات الأربع التي يتصف بها هذا المخيم فهي أنه مزبلة ومحشر وسوق ومرآب. وهو يقع في الطرف الجنوبي الشرقي من مدينة دمشق. والقمامة تلوث شوارعه كثيراً جداً فتجعل منه مباءة قذرة تصلح للبقر أكثر مما تصلح للبشر. ولهذا فإنني كثيراً ما أشعر بأننا داجنون، ذابلون، شاحبون، نشبه الأشباح أكثر مما نشبه الناس أو الأحياء بوجه عام. فها نحن أولاء نعيش في هذه السجون التي تسمى المخيمات، أو في هذه الأماكن الخمجة المذرة التي تشبه الإسطبلات، مع أن لنا وطناً شاسعاً واسعاً خصيباً عذياً ندياً ليس كمثله وطن آخر.

وإني لتغثى نفسي حين أسير في شوارع هذا المخيم التعيس. وحين أشاهد أوساخه وأشم روائحه المنتنة، فإني ألعن حظي الذي حتم عليّ أن أحيا معظم سنوات عمري في مكان ملعون يتركب من الوسخ والزحام والضجيج. إنه الازدحام السديمي الذي يجعل جميع الناس سواسية كأسنان المشط. فنحن اليوم محشورون في مباءات تحتم علينا أن نتنفس أنفاس بعضنا بعضاً، وذلك لضيقها وشدة اكتظاظها بالسكان. وإننا لنقاسي هذه المقاساة كلها من أجل يهودي

لا يساوي قشرة بصلة. الجحيم؟ ذاك هو العيش في مخيم للاجئين، أو في أي مكان خمج مثل مخيماتنا البائسة.

ومنذ بضع سنوات، أو في 1999/9/9، أصبت بنوبة قلبية ونمت ثلاث ليال في غرفة العناية المشددة الشبيهة بزنزانة في أحد المشافي. وقبل ذلك بسنتين أصابني داء السكري الذي أخذ يتفاقم في الفترة الأخيرة، ربما بسبب التأثير النفسي لما جرى في جنين ونابلس وبيت لحم وغزة والمدن الفلسطينية الأخرى منذ سنة 2002 حتى اليوم، وكذلك لما يجري في العراق طوال السنوات الأربع الأخيرة. ولقد تكررت النوبة القلبية مرة ثانية في السادس من تشرين الأول سنة 2006، فلجأت إلى غرفة العناية المشددة في أحد المشافي لأنقذ نفسي. كما أصبت بأزمة قلبية جديدة صبيحة الحادي عشر من كانون الثاني سنة 2007, مما أرغمني على الإنابة إلى غرفة العناية المشددة كرة أخرى.

أما السكري فهو آفة تنحت الجسم وتضنيه حتى العياء، بل تجعل الحياة عبئاً باهظاً لا يطاق، وذلك لأن من أصيب به يظل جائعاً وظامئاً على الدوام. فحقيقة السكري أن الجسم يرفض الطاقة، ولكن على نحو نسبي. وبما أن الطاقة هي الحياة، فإن السكري هو رفض الجسم للحياة نفسها. فلا أبالغ إذا ما قلت بأنني أحشرج طوال السنوات العشر الأخيرة وأكابد انفجارات المرض بين الفينة والأخرى.

وبينما كنت أرقد في الفراش إثر النوبة القلبية الأولى توفيت أمي، ومنعني الطبيب من مغادرة السرير للمشاركة في جنازتها أو في استقبال المعزين. وسبق لأخي محمد أن توفي سنة 1991، فحزنت عليه كثيراً لأنه كان لي صديقاً فضلاً عن أنه أخ شقيق. وبكيت عليه دمعاً ساخناً مدراراً لا يضارعه إلا ما ذرفت من دموع غزيرة يوم مات والدي سنة 1954. ومنذ أن غادرت طفولتي حتى اليوم لم أذرف الدموع إلا مرتين وحسب، مرة حين مات أبي ومرة حين مات أخي.

ولكن، يا إلهي! لقد توفي صديقي داود يعقوب المذيع، منذ زمن بعيد، وتوفي الشاعر فواز عيد، صديقي الآخر، كما توفي غازي حجو، ابن عمتي

فاطمة، الذي يتصف بحسن الشمائل، ولاسيما الذكاء والطيبة والدماثة. بل توفيت عمتي فاطمة نفسها في الشهر الأول من سنة 1997. لقد توفي معظم أصدقائي الذين جعلوني قادراً على التكيف مع هذه الدنيا الكالحة الدميمة. فهل هنالك ما أعول عليه اليوم بعد ما أفنى الفناء جميع الذين أحببتهم في غابر الزمان؟

وههنا أتذكر قول بوشكين: "الورود تذرف بتلاتها، وجميع الطيبين يتساقطون أمواتاً. "فيا إلهي! إن الألم، وليس الحب، هو المقولة الأولى في الحياة البشرية. ولا غلو إذا ما زعمت بأن آلامنا هي المجلى الأسمى لأصالة روح الانسان. وعندي أن أرقى الآداب ليست سوى صورة لآلام الروح وأوجاعه وسعيه وراء الحميم المفقود. وههنا تتبدى العلاقة واضحة بين القيمة والوجدان.

*　　　*　　　*

وليس المكان وحده هو ما يثير ضغينتي وشعوري بخواء الأشياء وقبحها، بل إن الزمان نفسه منفر ومرفوض، لأنه لا يقل عن كونه حالة حصار مثيرة لتوتر النفس. فيا طالما تمنيت لو أنني عشت في زمن غير هذا الزمن المقيت، الذي لا أراه إلا طور إرهاب وإراقة للدماء لا لزوم لها بتاتاً. فليتني عشت قبل عشرين ألف سنة من الآن، يوم كان الإنسان حراً مكشوفاً أمام الشمس والنسيم العليل، ويوم لم تكن هنالك أسلحة لئيمة ولا أموال تستعبد روح الإنسان.

أجل، إن في داخلي حنيناً عارماً إلى طور حجري غابر، أو إلى طور الكهوف الذي أحسبه طور الحرية بامتياز، بل أظنه الفردوس المفقود حصراً، وذلك يوم كانت البشرية تعيش في طفولة دائمة لا تخلو من عنصر الدهشة. ولهذا أراني أكثر من ترديد قول المتنبي:

دهر يمر، وعمر ليت مدته   في غير أمته من سالف الأمم.

ولكنني أرضى أن أكون قد عشت قبل ألف سنة، بل حتى قبل عصر الكهرباء الذي أفقد الحياة سلاستها وعذوبتها وأحالها إلى هلام لأنها صارت وجوداً بغير قواعد ولا أصول.

*   *   *

لست أبتغي غير الصدق إذا ما أعلنت أنني شديد التعاطف مع الاغترابيين والمتألمين ومن يكابدون لوعة الاضطهاد والنفي والتشيؤ والتنحية أو التهميش، وكذلك أولئك الذين يعانون مرارة اللوبان على الفحوى، أو على أية قيمة مثلى من شأنها أن تسبغ على الحياة نكهة مستساغة. ففي اعتقادي أن الأخلاق هي الوعي بوجود الآخر واحترام هويته. أما اللاأخلاق فهي تسوية الإنسان بالأرض، أو النظر إلى الناس والبهائم من موقع اللافرق.
والإنسان تفسده أنانيته وترغمه على أن يكون بلا أخلاق. ولكنه لا يستطيع التخلي عنها لأنها القوة التي يصون بها نفسه أو كيانه، فلو خلا من الأنانية خلوّاً كلياً لزال من الوجود. وإذا ما أضفت إلى الأنانية ميل الإنسان إلى التفوق أو إلى عبادة القوة، حكمت عليه بأنه شرير بحكم طبعه نفسه، وتيقنت مما فحواه أنه لن يتخلص من صفاته الشريرة بتاتاً.

في الماضي كانت كلمة (الطيبة) أو كلمة (العذوبة) التي يتصف بها الإنسان الجيد هي وحدها الأغلى على فؤادي بين جميع كلمات المعجم. أما اليوم فقد أضفت إليها كلمة أخرى وهي (الغربة) أو (الاغتراب). فأنا أشعر بالغربة حتى عندما أكون في بيتي، أو بين أصدقائي وأقربائي. وإن هذا الشعور القارض القاضم لشديد الفتك بروحي، وذلك لأنه لا يمنحني إلا القليل من الإجازات. ولعله أن يكون مما لا يقال، أو من فصيلة المستورات التي تند عن كل شرح أو توضيح.

وأظن أن في داخلي حنينا نصف مكتوم إلى الموت والعدم، وأنه رافقني منذ نشأتي حتى هذه السن العالية، بل إن أزخم رغبة في أعماق نفسي هي أن أموت. نعم، تلكم هي أقوى رغبة ساورتني منذ بداية شبابي. وإنني لأستهجن أيما استهجان كيف استطعت أن أطيق الحياة حتى اليوم. ويبدو أنه ما من شيء قد مكّنني من تحمل الحياة سوى ذلك الوهم الذي يجعل المرء يظن أن الموت أشنع منها وأبشع. إن الخوف من الموت هو حارس الحياة.

ومن الأدلة على حنيني إلى الموت أنني، منذ زمن طويل، أشعر بخواء الكون وافتقاره إلى أي محمول ذي بال، مع أنني تذوقت بعض اللقيمات من وليمة هذه الدنيا التي لا تخلو من سعادة وهناء وأناقة فاتنة. فلعل في الجواز أن يقال بأن ثمة مسحة من الملاحة قد طلي بها جلد هذا العالم الذي يأهله الكثير من الشر. وما تلك المسحة سوى الغلاف السكري الحلو الذي يغلف حبة الدواء المريرة كالعلقم. وإن تلك المسحة طُعم للفرائس البشرية وحسب.

ولكم راقني أن تبجيل الفراغ أو تقديسه هو شيمة من شيم البوذية التي ترفض الحياة لما يندرج فيها من بؤس وشر وشقاء. ولعل هذا الموقف الذي أتخذه من تلك الديانة الهندية أن يكون نتاجاً لما أكابده من ألم خلقته النكبة التي تعرضنا لها نحن الفلسطينيين والتي وضعتنا في حالة انعدام الوزن، أو جعلت منا ريشة في مهب الريح. ومما يحز في نفسي أن الذين هزمونا هم اليهود، أهل تلك الملة اللابطولية التي لا تملك أن تهزم قطاً داجناً أليفاً.

أما رغبتي الأقل عمقاً من الرغبة السالفة فهي أن اترك وحيداً مهجوراً في مكان معزول عن البشر وبعيد، وبغير جليس ولا أنيس. إن هذا الشعور كثيراً ما يخطر في بالي، بشيء من السرعة، ولكنني أقاومه بشدة في بعض الأحيان.

ولست بكاذب إذا ما زعمت بأنني أتعاطف كثيراً مع المرضى الممددين على الأسرة في أي مكان من أماكن العالم. كما أتعاطف كذلك مع المسجونين حتى وإن كانت أفعالهم تستوجب العقاب. ولكنني أتعاطف أكثر مع الأطفال المشردين الذين يعيشون بغير عائلات ليكونوا فرائس سهلة للأشرار من جميع الأصناف. أن يقذف بك إلى العراء في هذه المدن البربرية، ودون أية وقاية أو

غطاء، وأنت طفل لا حول لك ولا طول، ذلك هو أبأس أنواع البؤس وأشقى أجناس الشقاء. فلقد عشت هذا الصنف من أصناف الاغتراب يوم كنت أنتقل من الطفولة إلى الصبا، فوجدته أكثرها مرارة وشقاء وسوء حال. فيا طالما نمت في الأزقة، وعلى الأرصفة في تلك الآونة.

وفي شرط التشرد هذا لا بد للمرء من الشعور بأن العالم وحش مفترس، ولهذا فإنه لا يستحق إلا الازدراء. وربما كان هذا الشعور هو ما جعلني أعتقد بأنني ولدت مزوداً بغريزة خاصة اسمها غريزة الاحتقار. ولكنني أرى نفسي محظوظاً لأنني مثل أهل النسك والزهد، أزدري عالماً لا يكسد به إلا العدوانيون والانتهازيون وجميع أصناف الأشرار والأنذال. فهل يصلح هذا العالم الذي تحكمه الجريمة والنذالة مضافة لروح الانسان؟

أن تكون طفلاً وحيداً في مدينة من المدن، وبغير أية علاقة، لا يحيط بك شيء سوى اللاشيء وحده، بل سوى عرام الشر الذي ينز من جميع ثقوب الكينونة، وأن يفتك بك الجوع والحر والبرد والغربة والعزلة دون أن يأبه لك أحد، إن ذلك بؤس قد لا يبذه أي بؤس آخر، اللهم إلا المرض وحده، إذ المرض عندي هو السلب الذي ما بعده سلب. ولهذا فإنني أدعوه صليب الصلبوت لشدة ما قاسيته وعانيت من أهواله.

ولهذا لا أحسبني أستطيع أن أتحسس صفة على نحو فوري كما أتحسس الخسة أو النذالة. وفي الحق أن شكسبير ودستويفسكي، وهما فلتتان من فلتات الدهر، قد أسهما في ترسيخ هذه السمة داخل ذاتي. ويبدو لي أن محتوى كل منهما يتساوق مع مجرى حياتي تمام التساوق على وجه التقريب. فالكاتب الأدبي الجيد هو ذاك الذي يشعر ويجعل الآخرين يشعرون. وانطلاقاً من هذا المبدأ سمي الشاعر شاعراً.

ولكن المصيبة التي حلت بنا في عام النكبة هي المكوّن الأول والأكبر لبنيتي النفسية ولموقفي من الوجود كله. أن تجيء كائنات طفيلية من أوروبا الشرقية إلى بلادنا وأن تزعم بأن فلسطيننا الغالية هي أرض أجدادهم، ثم تدعمها قوى لا قبل لنا بها البتة، فنطرد من ديارنا ونتشرد صوب كل أفق وتحت كل سماء، أليس ذلك هو اللامعقول نفسه عارياً صريحاً وبغير لبس؟

وفي ظني أن ذلك الحادث الاجتثاثي الكارث هو ما دفعني إلى المواظبة على قراءة التاريخ الذي لا تستوعبه أية قوة ذاتية سوى قوة الحدس أو قوة الخيال. كما واظبت على مطالعة الكتب الفلسفية التي من شأنها أن تأخذ صوب العمق، وكذلك صوب تحسس الحياة والالتقاء بحقيقتها أو بنبضها الحي.

وفي تقديري أن النكبة هي التي فجرت الموهبة الفلسطينية، فأنتجت شعراً جيداً ونقداً أدبياً متميزاً وسوى ذلك من المنجزات الثقافية الأخرى، ولاسيما الرسم. وبودي أن أشير ههنا إلى رسام فلسطيني يروقني كثيرا، وهو محمد الوهيبي الذي أراه واحداً من الانجازات الطيبة لعصرنا الشحيح. ففي قناعتي أن الوهيبي رسام أصيل أو موهوب وذلك لأنه يتمتع بقدرة نادرة في هذه الأيام على تحسس الأشياء وتلمسها، ثم تشكيلها في صيغة شبيهة بالشعر الذي هو الشعور حصراً. ويلوح لي أن الكاتب الفلسطيني يجتهد بضراوة كي يبلغ إلى معنى لا يذبل في سواء هذه الزائلات، كما أنه يبذل جهداً ملموساً كي يرسخ مقولة المكان، أو مقولة الوطن، بوصفها القيمة التي تحتوي على جميع القيم الايجابية الأخرى. وإني لأحسب أن كتابي هذا ولاسيما جزئه الأول هو محاولة أقوم بها من أجل الاتصال بالمكان بقدر ما هو جهد يبذل من أجل صيانة الزمن الماضي من الزوال، أو في سبيل ترسيخ العابرات وإحالتها إلى ديمومة مطلقة.

وكثيراً ما أطرح على نفسي هذا السؤال الذي لا أجد له البتة أيما إجابة مقنعة: لماذا فضل الجنس البشري الوجود على الزوال والانقراض، مع أن تاريخه ليس سوى مسلسل من الكوارث الكربلائية والهيجانات الاستئصالية المريعة التي لا تلوح لها أية نهاية في الأفق المنظور حتى الآن؟ فكيف تحمل الإنسان هذا الجحيم الجاحم الذي يسمى التاريخ، مع أن مقدار البؤس أكبر من مقدار السعادة بفارق كبير جداً؟

ما السر الذي تتكتم عليه هذا التجربة المأسوية وتخفيه؟ ما الأمر؟ ماذا هناك؟ ما المقصود، إن كان هنالك أي مقصود؟ ومن أنا؟ وأين أنا؟ ولماذا ولدت أو أتيت إلى هنا؟ ولماذا أعطيت هذه الكومة الضخمة من السنين؟ ماذا أصنع

بها كلها مع خلوّها من كل سعادة أو فرح؟ فلا ريب في أن الزمن قوام الإنسان ونسيجه.

ترى، أهذه يقظة بغير موضوع، أم وعي بغير محتوى؟

وعلى أية حال، فإن كل شيء ينبغي أن يستدعى ليمثل أمام محكمة الحساسية، التي هي أنبل وأعمق من محكمة العقل. ثم إن من حق الإنسان أن يبحث عن أسانيد وجوده الأصلي، وإلا فإن الفرق بين البشر والبقر سوف يتلاشى. فأين يمكن لي أن ألاقي تلك الأسانيد؟

يقيناً إن التاريخ، كالكون والنفس والحياة، هو سر أو لغز يطوف الذهن القلق حول كنهه المستور، كما يطوف الوثنيون حول كبير أوثانهم، ولكن دون أن يتمكن الذهن المتذهن من التسلل إلى مركزه المغلق المصون، حتى لكأن حجباً كثيفة قد أسدلت بينه وبين العقل. ويبدو أنه لا محيد للذهن من الارتطام بأسوار الأسرار. وحتى استطاعة اللقف الحدسي اللماح لا تملك إلا أن تتعطل أمام هذا الاستغلاق الشديد الاستعصاء، أو الإقفال الذي لا مفتاح له بتاتاً.

وعندي أن (اللماذا) هي سيدة الألفاظ الاستفهامية كلها. ولكن ما هو شديد الأهمية أن الوعي في عمومه يتألف من برهتين متباينتين، أولاهما وعي البؤس وأخراهما الوعي الذوقي، أو الجمالي، الذي من شأنه أن يلطف سعار البؤس وأن يخفض قدرته على ترميد الحياة.

*   *   *

لو أتيح لي اليوم أن أعود إلى مسقط رأسي، أو إلى لوبيا التي لم يعد لها أي وجود قط، لما شعرت بأنني انتقلت من مكان إلى آخر فقط، ولكن بأنني رجعت القهقرى من الزمن الراهن إلى الزمن الذي تصرم منذ ستين سنة تقريباً. إن لوبيا أو المكان الصرف، ليست محلاً يتيسر للمرء أن يحدده على الخريطة وكفى، إذ في الحق أن لوبيا هي طفولتي، أو لعلها أن تكون المكان الذي استحال إلى زمان، أو الزمان الذي التغم بالمكان والتحم، فصارت له صورة راسخة في المخيلة أو في عقر البال. إن لوبيا هي وحدة المكان والزمان ومصب من

مصبات الحنين الغالية على فؤادي، أو قل إنها الثالث الذي لا هو زمان ولا مكان، وإنما هوية من شأنها أن تتجاوز جميع الهويات.

ولكن لوبيا في خيالي ذكرى حزينة حقاً، وإن من طبع الذكرى أن تتناسب مرارتها مع حلاوة التجربة الماضية التي تحيل عليها الذاكرة. فلكم أشجاني أن أرى على شاشة التلفاز التلة التي كانت عليها بلدتنا الغالية، وقد أحيلت إلى غابة بعد ما هدمت بيوتها وأزيل كل معلم من معالمها باستثناء المقبرة وحدها. فلقد ذهب مروان، ابني، إلى لوبيا وعاد بفلم يصور مكانها كما يصور الأماكن المجاورة لها من الجهة الغربية والجنوبية، ويظهر في الفلم جزء صغير جداً من الجدار الشرقي لمنزل جدي علي، وهو المحاذي للمدّان تمام المحاذاة، والذي كان في الطرف الجنوبي الشرقي من لوبيا أو في نقطة التماس بين التلة والأرض السهلية.

فبأي حق تقدم الطفيليات الصهيونية على هدم قريتي ومعها مئات القرى الفلسطينية وتطمس جميع معالمها حتى لا يبقى أي شيء يدل عليها أو يؤشر إليها؟ أما تقول توراتهم نفسها بأن فلسطين كانت مأهولة بغير اليهود، أو بالكنعانيين حصراً، يوم جاءتها تلك الطفيليات لأول مرة؟ أإن اعتدوا على بلادنا في الزمن الغابر، كما يزعمون، صار لهم الحق في الاعتداء عليها من جديد؟

إن الازدراء وحده لا يكفي، فلا بد من الغضب كذلك، نعم لا بد من الغضب على هذا العالم الخسيس الذي يقف مع الجلاد ضد الضحية.

*   *   *

ما كنت إلا قلقاً ومضطرباً على الدوام. وفي الحق أنني لست رجل عمل، ولكنني رجل خيال ومملكتي هي مملكة الروح، وتعوزني إرادة النجاح في الحياة، ولا أجد سعادة تكافئ السعادة التي أنالها من كتب شتى، بعضها أدبي وبعضها فكري. وما من شيء يجتذبني كما تفعل المشاعر السامية النبيلة. إن كلمة "الطيبة" أو كلمة "الشهامة" تكفي لإثارة الطرب في نفسي كما تفعل أغنية لفيروز. وما كنت إلا متسائلاً عن سر الكون وأصل المادة، إذ تتفجر في داخلي

أسئلة جذرية جارفة لها صلة بالمصير والموت وما بعد الموت. والسؤال الذي يرجني كثيراً بل يزلزل كياني، هو هذا: كيف جاءت المادة إلى الوجود؟ كما يرجني سؤال آخر هو سؤال الغاية التي وجد الكون من أجلها، أعني سؤال اللماذا حصراً. ولقد طرح المعري هذه المعضلة على هذا النحو المباشر الصريح: (أي المعاني بأهل الأرض مقصود؟) ويبدو أن الحساسية البشرية بأمس الحاجة إلى فلسفة قائمة بذاتها ومختصة بالقشعريرة التي يثيرها حرن الأسرار الحصينة المغلقة أمام الذهن والتذهن، حتى لكأن العناية الأزلية قد أصدرت أمراً بمنع التجول في هذه المنطقة المحرمة على الجميع حرمة دائمة.

لو لم يكن هنالك عقل لما كان هنالك سر أو شعور بالسر، أي أن السر حال يخلقه الذهن البشري حين يتفكر ويتفطن، أما السر في ذاته فلا وجود له بتاتاً. وهذا يعني أن الذهن بحكم طبعه الخاص محجوب عن كثير من الأسئلة التي يطرحها دون أن يحوز أية قدرة على الإجابة عنها. ويبدو أن هذه الحقيقة حصراً قد أسهمت أيما إسهام في تطوير الخيال البشري الذي هو القوة الوحيدة القادرة على أن تفك الحصار عن النفس وأن تطلق سراحها.

وأذكر، فيما أذكر، أنني كنت أدرس الحنطة على البيدر في أوائل تموز سنة 1948، فأصابتني نوبة استهجان مفاجئ شديد الحدة، إذ طرحت هذا السؤال على نفسي بكثير من الدهشة: كيف تيسر لهذه الدنيا المرئية بالعين أن تكون؟ وعندئذ سقطت على النورج وأنا في حالة إغماء نسبي ولو فحصني طبيب في تلك اللحظة لاستطاع أن يلاحظ التغير الذي طرأ على نبضي الخافت. إنها دهشة الحياة أو صدمة الوجود والتعجب المبهور لأن الأشياء ملقاة هناك أمام البصر دون خفاء.

لقد استولت عليّ دهشة الوجود أو قشعريرة المستور الذي يكتنفنا من جميع الجهات أو يغمسنا في جوفه السحيق. ولقد اعتادت أن تستولي علي بين الفينة والأخرى حتى تدفعني إلى الظن بأن حجب المستورات سوف تنزاح، وبأن الحقيقة السرية سوف تنكشف لي بعد لحظة وجيزة. كما أن هذا الصنف من أصناف القلق هو رفيق صحبني طوال عشرات السنين، إلى أن استولى عليّ الشعور بالاشمئزاز من هذا الوجود الساقط الملعون، والذي لا يملك إلا أن يفرز

الشرور بغير انقطاع، ولكن في الوقت نفسه، يفرز العسل ليكون بمثابة الطُعم المستطاب الذي يغرينا بابتلاع هذا البؤس كله.

من أين جاءت المادة؟ إن هذا السؤال الحرون سوف يظل منتصباً في مركز العقل حصراً وإن العقل لن يهدأ بتاتاً إذا ما قيل له بأن المادة أزلية، وما ذاك إلا لأنه لا يقدر على أن يتصور عدم الابتداء، إذ كيف يسع أي موجود أن يكون بغير بداية؟ ألّا تكون للأشياء بداية، ذلكم هو اللامفهوم حصراً، بل رئيس اللامعقولات كلها. والغريب أن الذهن يستطيع أن يستوعب اللانهاية، ويقبلها تمام القبول، وأن يهدأ حين يتصورها أو يفكر بها. ويبدو أن هذه الهدأة هي نتاج لرغبة الإنسان في الخلود أو في البقاء إلى الأبد، أو لعلها أن تكون نتيجة لميله إلى المفتوح والمنداح وما يجهل الحدود.

وربما كان التساؤل عن مصدر المادة سبباً من الأسباب التي دفعتني صوب الصوفية لأنها تتهجس للسر الذي يرعش في نفسي وتتجاوب أصداؤه على الدوام. وهذا الرعش هو الوجد الذي يثيره التصوف في النفس لدى الاتصال بالعمق المخبوء. ومن هذا الوجد حصراً تنبجس أهمية التجربة الصوفية، وليس من ترهات الدراويش وشطح المضطربين من أهل الرعونة والطيش. فما من شيء أنفس من أن تأخذ على كاهلك هذه المهمة الشريفة النبيلة: أن تحملق في الأشياء ابتغاء استبار يقينها حتى تخاطبك لبابها أو أكبادها بالضبط.

ترى، أليس ضرباً من ضروب البلادة أن يهدأ بال المرء وأن تطمئن نفسه إلى الحد الذي يمنعه من التساؤل عن هذه الرعشة التي تثيرها صور هذا الكون المعطى لمقلة العين؟ وما قيمة الذهن إذا لم يعش قلق الأغوار وهموم النائيات، وكل ما هو من فصيلة المستور أو المحجوب عن البصر والبصيرة في آن واحد؟

أقول هذا مع قناعتي بأن الوقائع ماكرة، مراوغة، خبيثة وتستنفر دهاءها الذي له قدرة هائلة على التمويه والخداع، فتبدي للعيان ما لا تبطنه في ظلامها الدامس المكتوم. وهذا أمر من شأنه أن يجعل البلوغ إلى الحقيقة عملاً موغلاً في العسر والمشقة وإنهاك الذهن.

ولكنني أشعر، حين أُفرط بطرح هذه الأسئلة، بأنني مثل من يحرث البحر أو يبلطه، مع أن هذا التساؤل المؤرق ليس سوى نتيجة لسورة يتعذر صدها. ولكنه في الوقت نفسه انفتاح توقيري على الوجود، واهتمام بهمه الذي لا ينضب بتاتاً.

وعلى أية حال، فإن الكائن لا ينصاع إلا لطبعه حصراً، ولا يملك البتة أن يخالف ما هو مدخر في نواة كيانه الخاص. فمع أن سؤال أصل المادة لا يقل عن كونه سوط عذاب يؤذيني بالغم والأرق، فإن ذهني لا يتوانى عن طرحه على نفسه كلما خلوت من الهموم الكبيرة الأخرى.

* * *

كانت أحلامي شديدة الصفاء قبل أن أبلغ الستين. وكان هنالك حلم يتكرر بين الفينة والأخرى. وفي ذلك الحلم المنعش كنت أسير في غابة بين الزهر والشجر، وفوقي رف من الطيور الملونة بألوان متنوعة جداً، كما أنها في الوقت نفسه فاتنة جداً. وفوق الطيور ثمة غيوم خلابة من ذلك الصنف الذي أحبه كثيراً. وأحياناً كنت أسير في الحلم على شاطئ هادئ جميل، عن شمالي البحر وعن يميني الغابة، أو العكس. أما الأنهار العملاقة فهي صور تتكرر كثيراً في تلك الأحلام التي أراها إجازات من اللعنة، أو تعويضاً عن استغلاق المستورات ورفضها لكل انكشاف.

وفي تقديري أن هذا الافتتان الحلمي بالطبيعة، بل كل توقير للطبيعة، هو صنف من أصناف الانتماء الرفيع إلى الوثنية العالية، وذلك لأن الوثنية شديدة التفطن للأسرار، وميالة إلى الجمال بأنماطه كافة. والوثنية عندي ليست عبادة حجر منحوت جامد وبغير حياة، وإنما هي الدهشة التي يثيرها في النفس بزوغ الشمس والقمر، وكذلك بهرة النجوم في ليالي الصيف الساجية الصافية، ثم الابتهاج بالاخضرار والازهرار في الربيع، وبسر الغيم والمطر في فصل الشتاء. كما أن الوثنية هي التهجس للأسرار، أو لنوايا الأشياء ومضمراتها، وللحيوية المركوزة في مكنوناتها ومدخراتها. ولذلك فإنها شديدة الشبه

بالصوفية. ولهذا كله فإنها صيانة لرعشة الدهشة في بنية النفس، أو الحفاظ على ديمومة الطفولة في روح الإنسان. وإن حياة بغير دهشة طفلية لهي حياة شائخة بائسة تعاش على حافة القبر. ولقد غادرت البشرية شبابها تماماً عندما هجرت الوثنية وأساطيرها المفعمة بالنشوة والعذوبة، والتي هي أصدق من العيني وأنبل.

ومنذ زمن طويل وأنا أراقب بزوغ البدر ليلة اكتماله، وذلك لكي أستمتع بهذا المشهد الوثني المهيب نظراً لأنه يتركب من الجمال والجلال في آن معاً، ثم لكي اكتشف السبب الذي جعل الوثنين يؤلهونه ويعبدونه. فمن فاحش الغلط أن يظن المرء بأن الأقدمين ألهوا بعض المرئيات لأنهم ساذجون، بل لعل مما هو في السداد أن يقال بأنهم ما فعلوا ذلك إلا لأن نفوسهم كانت ما تزال نقية أو غضيرة، شأنها في ذلك شأن الأطفال في الريعان. ولهذا، فأن الوثنية جديرة بالاحترام، أقله عند أهل العافية. وفضلاً عن ذلك فإن كل انتباه خاص لظواهر الطبيعة هو علامة من علائم صحة الوجدان.

وإذا ما انتبه المرء كثيراً تبين له ما فحواه أن الوثنية تضمر اعتقاداً بأن اللاعقل شريك للعقل في صياغة الوجود، بل حتى في تحريك سلوك الإنسان، ولاسيما في التجارب التي لا تتكشف دوافعها فوراً وبغير لبس. ولعل من الحصافة أن يقال بأن باطن الكينونة ليس له قعر تستتب عليه النفس وتطمئن.

* * *

وقد يجوز الذهاب إلى أن فقه الحياة، أو العلم بالتجربة الحية التي تعاش فعلاً، هو الحكمة الشريفة التي لا يحوزها إلا الخبراء بحقائق الأمور، وهم الذين يبلغون إلى ما هو حق بصنف سري من الإلهام لا يعرف له مأتى. ولكن هذه الخبرة سوف تفضي بالمرء إفضاء ضرورياً إلى الشعور بالاغتراب والانخلاع، ولاسيما إذا كان من المرهفين. فالاغتراب ضريبة الحساسية حتماً. وعندي أن مدى حساسية المرء يحدده شعوره بالاغتراب، ولاسيما في هذا القحل والرهل العالميين، أو في زمن المال والمجزرة الدائمة. بيد أن هذا

الشعور لا ينبغي له أن يدفع المرء إلى التنصل من الالتزام بإنسانية الإنسان، وإلا فإنه سوف يصير آفة بدلاً من أن يكون نبلاً يتعالى فوق كل ما هو منحط وسقيم.

وعلى آية حال، فإنني اليوم أكابد الغربة والعزلة والشعور بالضياع في سواء هذا الزحام والإغفال. ويبدو لي أن العلاقة بالآخر مثنوية هي الأخرى، شأنها في ذلك شأن كل شيء. إنه السعادة والشقاء في آن واحد. ولكنني في الظرف الراهن المتوتر أشعر بأن العلاقة بالآخر مزعجة أكثر مما هي مبهجة. ولهذا، فإنني أكاد أكون مبتور الجذور مع البيئة الاجتماعية، كما أشعر بأن الكرة الأرضية كلها منفى أو سجن كبير، بل حظيرة حيوانات شاسعة منداحة لم يعد فيها سوى مكان ضئيل المساحة لكل ما هو طيب أو أصيل. وأعتقد جازماً، بأن الحياة أزمة ناشبة على نحو ديمومي، فلا تتوقف البتة عن التوتر والتلهب والاضطراب.

ومما حرضني على هذه العزلة أن جميع الذين أحسنت إليهم قد أساؤوا إليّ. فهم سود البواطن أو منفرون مثل الشر، ولا يستحقون أية خدمة من أي إنسان. وحين يفطن المرء، ولكن بعد فوت الأوان، لما كان ينبغي أن يفعل ذات يوم، فإن عقارب الندم سوف تلدغ وتلدغ حتى تدمى الكبد وتستحيل إلى فتات، شأنها شأن كبد برومثيس الذي ينهشه أحد النسور إلى الأبد. ولات ساعة مندم.

ولست أملك شيئاً سوى جيش من الكلمات التي لا تأثير لها في هذا العالم المصنوع من الصوان أو من الفولاذ، حتى وإن تفتقت وفضت جميع ممكناتها الغزيرة الكثيفة. إنه عالم لا تؤثر به الأفعال، فما بالك بالأقوال؟ ويبدو أنني لا أجندها من أجل أي هدف سوى أن أزود نفسي بعلالة لهذا الاغتراب الشديد القدرة على الاضطهاد. هذا إن كانت الكتابة تصلح علالة لأي داء من أدواء هذا الزمان التي لا تحصى ولا تعد. ومع أنني أسرفت في ممارسة الكتابة، فقد ظللت فريسة لشعور فحواه أنني أساق إلى المقصلة باستمرار، أو كأنني سوف أصلب عما قليل، بل أشعر حتى كأنني أسير في جنازتي الخاصة على الدوام. أن تشعر بأنك تسير في جنازتك، ذاك اغتراب لا يضارعه أي اغتراب قط. ومعنى هذا الشعور أنني لم أعثر على أية علالة، حتى في هذه الكتابة التي

أهلكت جل وقتي وفتكت بعيني كلتيهما، وأنزلت وجعاً بأسفل ظهري لا برء منه دهر الداهرين. ولعل أهم ما في أمرها أنها لم تأتني إلا بالقليل من المال والكثير من الأعداء.

ومع قناعتي بأن الكتابة بغير جداء تقريباً فإنني أراها استجابة لنداء الحقيقة التي ألوب عليها كما يلوب على الماء من ضاع في الصحراء، حتى وإن يكن هذا اللوبان بغير غناء هو الآخر. ومع ذلك، فإن ذهني لا يكل ولا يمل من التنقيب عنها، بالطرق الصوفية والاستقرائية معاً، حتى لكأنه مصاب بالضّوْر الذي لا سبيل إلى إشباعه قط. وبسبب هذه المسغبة الجوانية الناشبة على نحو ديمومي، فإنني لو استحالت جميع رغباتي وأوهامي إلى حقائق حاسمة لما ارتويت بتاتاً، بل لاخترعت رغبات جديدة وأوهاماً طازجة تلح على المطالبة بحقها في المضي إلى العيني الملموس.

إذن، ها أنا ذا اليوم وحيد مثل عاصفة السهوب، وهي التي لا يرافقها مطر أو سحاب، كما أنني لا أرتاح إلا إذا أَقصيت نفسي عن الناس، أو من جوارهم. فأن تنأى بنفسك عن الأغمار والسطحيين الأغرار، ذاك هو حق من حقوقك الكبرى، إن كنت واحداً من الناضجين. فحسبي هذه النفس بلا روابط ولا جذور أو صلات، إذ صار الناس في هذه الأيام، إلا أقلهم، كائنات لا يهمها سوى مصالحها الخاصة.

ويبدو لي أن وجداني اليوم معجون بالقلق والتوتر والاضطراب، وكذلك بالاشمئزاز من الشرور المنتشرة على سطح الأرض، ولكن دون أن يشكمها شاكم أو يردعها رادع. إنها تنتشر من القطب الشمالي إلى القطب الجنوبي، دون أن يكون هنالك أي أمل في الخلاص منها سوى الصبر واستسلام الإنسان لهذا القدر الذي لا قبل لأي فرد به. وربما جاز لي أن أزعم بأن درس الاستسلام هذا هو خلاصة الشطر المأسوي من تراث شكسبير، وهو من حملق بالأشياء حتى خاطبته الأشياء من جوف صميمها حصراً.

ولكن ما من فعل يروعني أكثر مما أرتاع حين أطل على أعماقي الخاصة حيث لا وجود لشيء سوى الجيشان والعاصفة، أو ربما سوى الخلاء الذي يفعم جوفي، والذي يند عن أي امتلاء. وكثيراً ما رددت هذا القول الذي

طفر في فضاء مخيلتي ذات يوم: ((رهط من السعالي يرقص على سلاسل البروق، وأنا أريد بكارات زاغبة.)) فبدلاً من البكر اليانعة، فإنني أواجه السعلاة. فشتان بين المعطى والمطلوب، أو بين ما هو كائن وما ينبغي أن يكون.

فلو أنني عشت في أيام المعتزلة الذين رأوا الشر أكبر من الكفر، كما رأوا العقل لطفاً من ألطاف الله، لكنت معتزلاً أو منسحباً تماماً، على ما أرجح. والانسحاب آية على غياب المسوّغات التي من شأنها أن تسوّغ العيش نفسه.

وبسبب هذه الحال العاكفة على الكتاب في غرفة مغلقة، فإن الآخرين كثيراً ما يحسبون أنني غني عنهم تمام الغنى، أو أنني متكبر أو متعجرف. وهذا وهم قد يحرضهم على معاداتي، فينظر بعضهم إليّ كما ينظر إلى خصم بغيض، مع أنني لا أكن لجميع الناس سوى المحبة والإخاء، كما أتمنى لو أن في مقدوري أن أخلصهم جميعاً من شقائهم كله. فالويل والثبور لمن يجعل الآخر يشعر بأنه عديم القيمة أو طفيف الشأن، لأنك إن أزريت به على هذا النحو المثير للأحقاد والحزازات كنت كمن ألحق به ضرراً في نواة الصميم.

ففي عالم يشوهه المال حتى درجة التفسخ، مما يجعله كياناً متصحراً شبيهاً بالقفار، وفي عالم صارت لغته شبحية جوفاء شاحبة وتفتقر إلى السداد والصدق الأصيل، مما يعني أن الشخصية المعاصرة منخورة حتى ينبوعها المركزي، إن عالماً هذا شأنه لا يسعه البتة أن يرسخ بين الناس صلات إنسانية حميمة صادرة عن شعور أصلي بالمودة أو بالإخاء البشري المتأسس على مبدأ الكرامة الإنسانية. ولهذا كان من حق المرء أن يرتاب في أن النفس تمتلك اليوم أن تحوز الوضاءة والبراءة، وأن تصير إلى التفتح من الداخل، في وسط هذا السعار الكوني المحموم الذي يلتهم الأخضر واليابس.

وكثيراً ما أحسب أنه عالم لا تصفه اللغة ولا يطاله سلطانها، وذلك لشدة غموض العلاقات فيه، وكذلك لشدة اختلاط الحقائق بحيث ما عاد في الميسور أن يعرف المرء كيف يفك اشتباك الوقائع والألوان. فلقد صار التجاء المرء إلى جيش الكلمات ذات الجرعة الكثيفة، أو الموسوقة بالفحوى حتى يطفح الجمام، شأناً لا جداء منه، بل هو لا يعوّل عليه، لأنه لا يواجه إلا المماطلة والمراوغة.

فمعضلة المعنى لا حل لها البتة. والأهم من ذلك أنها ذات طابع كابوسي منهك أو مقيت. وما كان في ميسوري، مع ذلك، إلا أن أكون كاتباً، حتى وإن يك هذا لا طائل تحته بتاتاً، إذ من العسير على أي امرئ أن يخالف طبعه ومكنونات روحه.

حقاً إنه عالم تخنس أمامه اللغة حين تمسّه أو تدانيه. وربما كان الرقص والغناء أجدى من أي قول في البلوغ إلى برهة سعيدة، إذ لا غاية لهذين الفعلين سوى تسريح النفس أو فك إسارها الكابح الثقيل، تماماً كما تفعل الخمرة التي هي إجازة فورية في متناول الجميع.

فمن شأن الرقص بخاصة أن يجعل الروح والجسد كياناً واحداً، وبذلك فإنه يقضي على المثنوية وينجز الوحدة. والأهم من ذلك أنه يحيل الجسد نفسه إلى أخيولة، بل إلى قصيدة غزلية، أو إلى صورة مجازية تجاهد ضد المألوف والمعروف. فحركات الجسم كلها من مملكة المياومة، أو الرتوب، إلا الرقص، فإنه من فصيلة الصورة، أو من مملكة الدهشة والثمالة، الأمر الذي من شأنه أن يؤكد فكرة تخييل الجسد، أو تجسيد الخيال، بل حتى تجسيد الإيقاع واستحضاره وجعله من أجل مقلة العين. فلا يتماهى الجسد والخيال، أولا يصير الخيال جسداً، إلا في برهة الرقص التي من شأنها أن تجعل الفرح يتبدى من حيث هو تجاوز، أو خروج بالنفس نحو اللامألوف. ولعل في الميسور أن يؤكد المرء على أن الرقص والغناء والموسيقى هي أقدر الفاعليات البشرية على إخراج النفس من ضيق تجربتها وسأمتها وإيقاعها الرتيب. ولهذا، قال جلال الدين الرومي: "الرقص جسر يفضي إلى الله." كما قال بعض أهل التصوف:" بالغناء يزول العناء ".

* * *

بيد أن الشعور بالاغتراب، وهو ما ينطوي على قناعة بفساد الزمان واتضاع التجربة الإنسانية، ليس إفرازاً تفرزه النفس بالصدفة، وإنما هو نتاج لتغير العلاقات بين الناس، وهو ما يجيء بعد تغيرات عميقة تطرأ على بنية

المجتمع. فبالتدريج تدرك أن الناس ما عادوا بشراً، أو ما عادوا إخائيين ولا مؤنسين، إلا أقلهم، وأن الإنسان ما عاد له وجود إلا لماماً وحسب، حتى كأنه إشاعة أو شبيه بالإشاعة. ففي عالمنا الراهن حيث لا يتوتر ولا يتفجر سوى اللامعقول الآخذ بالاستفحال والتفاقم يوماً عن يوم، يغدو من الطبيعي ألّا يبقى هنالك إنسان نفيس إلا وفقاً لناموس الاستثناء العامل في كل زمان ومكان.

أما أن الإنسان إشاعة من الإشاعات الكاذبة، وأنه افتراض لا يتسنى له أن يكون خارج الوهم وحده، خلال هذا الطور الملفق الزائف، فهذه حقيقة لم تخطر لي في بال إلا أثناء الشطر الأخير من عمري. فلكم أصاب ذلك الفيلسوف اليوناني، أعني ديوجين، حين حمل مصباحاً وخرج في وضح النهار ليبحث عن إنسان. وفي زمن قريب، أو إثر انتصاف القرن العشرين، أعلنت البنيوية الفرنسية أن الإنسان قد مات. ولكن الصواب أن يقال بأن الإنسان كائن ممتنع الوجود، إلا على ندرة فقط.

ويلوح لي أن الشعور باللاجدوى، وكذلك بالبطلان والخسران، بل بأن الكون بأسره لا لزوم له بتاتاً، وأن كل شيء نافل أو باطل، ولا يملك أن يسوّغ نفسه أمام العقل الذي هو قوة النفي العظمى، أو أقله فاعلية التفتيش والتمحيص والمساءلة المعيارية ضمراً وجهراً، إذ لكل شيء أمام العقل حساب عسير. إن هذا الشعور القارض القاضم، الذي يسعك أن تسميه شعور المعري، والذي يسعه أن يرمد أو يدمر كل شيء ويحيله إلى عدم مجسد أو ماثل للعيان، هو نتاج حتمي لحساسية ذات زخم عارم كثيف، ولكنه في الوقت نفسه نتيجة لتغيرات عميقة طرأت على بنية المجتمع بوجه عام خلال السنوات الأربعين الأخيرة، وكذلك حصيلة لإحباطات تاريخية وفردية كثيرة لا يحصيها التعداد. وإنني كثيراً ما أتساءل عما إذا كان هنالك شفاء أو عزاء لهذه الآلام المزمنة كلها، أو عما إذا كان هنالك أي حل لأية معضلة من معضلات التاريخ أو النفس أو الوجود.

فمثلاً، إننا سوف نظل مصلوبين في الحاجة إلى الحب كما قال لورنس. ولهذا، فإن الناس كثيراً ما يعوذون بالأوهام كي يدفعوا عنهم بلادة الأشياء وبلاهتها وثقلها وحضورها المقذع، وكي يجعلوا لحياتهم نكهة مستساغة من

دونها يصير الوجود التهاماً للرماد. ويبدو لي أن الإنسان لا يطيق الشعور بأنه فائض عن الحاجة، كما لا يتحمل أن يكون حبيس المياومة المبتذلة الراكدة. ولهذا كان الخيال وجميع مشتقاته.

ومع أن هذا الشعور المرير يقضمني كما تفعل القوارض، حتى كأنني في مأتم دائم لا يحول ولا يزول، فإنني أفضل الإنسان النشيط على الإنسان الخامل العاطل الهزيل الروح. كما أصادق على تلك الفكرة التي أعلنتها الفلسفة الرواقية، والتي تتخلص بأن القيمة هي بذل الجهد، وكل ما تحصل عليه بغير جهدك الخاص فهو ليس لك. ((وأن ليس للإنسان إلا ما سعى)) وأزعم بأنني لا أملك أن أكون في حال من العطالة الطويلة، أو نائياً عن الحراك الدائب وعن النمو والإنتاج، وذلك لاعتقادي بأن الفعل هو النهج الوحيد لتخريج الذات والإتيان بها إلى الجهر والعلانية.

وفي الصميم من عقيدتي أن الإنسان، هذا الكائن المغمّس حتى نقْي العظام في حمأة عالم ساقط إلى غير رجعة بتاتاً، هو عقل وحب وحرية وكرامة، ولكن فقط حين يستوعي إنسانيته ونبل روحه، أو حين يميز بين الإخائي والعدائي، وينحاز إلى الأول في مواجهة الثاني. وهذا يعني أن الوعي هو بيت القصيد في عالمنا الرحيب. فبالوعي وحده يدرك المرء أنه كائن مغبون، وذلك لأن آلامه أكبر من لذائذه بكثير، حتى وإن ظن نفسه سعيداً، بل مكنوفاً بالهناء. ولكنه مع شقائه، فإن السمة التي ينبغي أن تكون الأولى بين جميع سماته هي الطيبة التي من شأنها أن تجعل الإنسان براءة وصفاءً وهدأه بال، حتى لكأن الطيبين يعيشون بصحبة الملائكة. فلكم كان زردشت إنساناً كبيراً حين أهاب بكل إنسان أن يقف في خندق الخير ضد خندق الشر، وذلك في عالم مثنوي يتركب من الأضداد والمتناقضات المتناحرة.

ولكن الوعي لن يكون نفيساً إلا إذا انحاز إلى مكارم الأخلاق، أي إلى الطيبة أو إلى الضمير. يقيناً إن الضمير، أو الصخرة التي تنبع منها الطيبة، هو أعلى الحقائق وأنفس الجواهر في التجربة البشرية كلها، بل قل إن الضمير والحقيقة يندغمان في هوية واحدة تشدهما إلى الوجود علاقة تتأبى على كل تفكك أو فصال.

وفي الحق أن موت الضمير هو المعضلة الكبرى في الحضارة الحديثة. فها هم الأمريكيون يفعمون الدنيا بالسجون التي يكدسون فيها الأسرى المجلوبين من العالم الإسلامي حتى يرغموهم على الانتحار في بعض الأحيان. ففضلاً عن سجونهم في العراق وأفغانستان، وفضلاً عن سجن غوانتانامو القائم في كوبا، فإن الأمريكيين قد فتحوا سجوناً في بضع عشرة دولة أوروبية وأترعوها بكل من اعتقلوا ممن يناضلون عن الحرية في البلدان الإسلامية. ولا ريب في أن إجرامهم لا يقل همجية عن إجرام النازيين والفاشيين. وفضلاً عن ذلك، فإن الغربيين لا يصنعون الشقاء لسواهم وحسب، بل إن حياتهم نفسها بائسة ولكنهم لا يشعرون، وذلك لأنهم لا يفحصون واقعهم ولا يمحصون أفعالهم البربرية. يقول أفلاطون في ((الدفاع)): ((إن حياة لا تفحص لهي حياة لا تستحق أن تعاش)) وعندي أن حياة الغربيين فاسدة تافهة ولا تستحق أن تعاش، تماماً كحياتنا التي أحالوها إلى مرارة، أو حتى إلى جحيم.

* * *

وعلى أية حال، فإن الإنسان في جميع البلدان كثيراً ما يتبدى من حيث هو كائن منهمك بمنظومة من القيم السامية والصاعدة إلى أوج الكون حيث الطهر الكامل النقي الذي يجهل كل فساد. فهو مهموم بالقيم، ولاسيما بقيمته الخاصة، التي يكافح طوال حياته كي يرسخها ويقتنع بها ويقنع الآخرين. فلقد كان دستويفسكي على صواب حين قال بأنه اكتشف نبلاً وطهراً في أشد الناس ميلاً إلى الإجرام. وهذه هي المثنوية بكل وضوح.

ومما يجدر بالمرء أن يلاحظه أن الإنسان معنيّ جداً بأن تظل المسافة التي تفصل بينه وبين الحيوان منداحة أيما انداح، بل لا تقبل العبور بتاتاً. والهبوط إلى الأدنى مرفوض عنده، إلا لماماً وحسب، ولكن الصعود إلى الأعلى هو شيء عزيز على فؤاده دوماً. وفي الحق أنه بحكم جبلته، أو فطرته التي فطر عليها كائن مهموم بالحب الرائق الصافي والمتطلع إلى سدرة

المنتهى، حتى حين يكون منخرطاً في تجربة الفسق والفجور. وهو قلما يحن إلى شيء قدر ما يحن إلى الهناء العسلي الذي لا وجود له البتة بمعزل عن الوصال والمحبة التي هي نسغ الروح ودورتها الدموية، لأنها القوة الوحيدة التي من شأنها أن تؤوب بالمرء إلى أصالته، أو إلى ماهيته الضائعة في ضوضاء التاريخ وعكر المياومة وأوحال التجارب العرضية. إنها سورة الروح التي تحمل الوجود إلى أكثر لحظاته كمالاً وامتلاء بالفحوى. فالإنسان محارب بالعرض ولكنه عاشق بالجوهر. فما أمتع البراءة والنقاوة والشباب والربيع!

ولا معيار للمحبة، أو للقيمة بوجه عام، سوى اللهفة وعرام الاندفاع، أي لا قيمة إلا للحرارة الباطنية وحدها. فكل ما هو ذو قيمة له معيار لا يخفى: إقبال النفس عليه بشغف وحميّة. وهذا يعني اللهفة التي لا شارط يشرطها سوى قدرة الشيء على الاجتذاب، والتي يتناسب زخمها مع زخم الحيوية الذاتية واخضلال النفس ونضارة الوجدان. ومن هنا كانت نسبية اللهفة، وذلك لأن ما تتلهف عليه أنت قد لا يعني شيئاً لسواك. ولكن اللهفة ما كان لها أن تصير معياراً للصدق إلا لأنها صنف من أصناف الجيشان الروحي أو العرامة الذاتية التي قد تدل على أن النفس ما زالت حية وناجية من الرهل والكسل، أو من البلادة والخمود.

*   *   *

يوم اكتشفت الصوفية في أواخر الستينيات، أدركت أن الإنسان ليس حنيناً إلى موجود مركزي وحسب، بل هو لهفة تندفع وتطفر صوب الأعالي والنائيات أيضاً، أو قل إنه شوق لا عج يتوجه إلى مفقود حميم لا معنى للدنيا من دونه قط. وهذا الحنين المستوري، أو هذا اللوبان الملتاع، أو الملهوف على المفقود، هو الوجد الصوفي فيما أحسب أو أخمن. ويبدو أن الصوفي المستقيم، ومثاله النفري والغزالي، هو كائن لا يتحمل غياب الملاء بتاتاً، إذ إن الخلاء الموحش هو عري لا دثار له قط، ومن شأنه أن يحيل الحياة إلى رماد كالح قبيح.

وصرت مثل جميع الصوفيين الروحانيين أنظر إلى وجودي في جسد على أنه حد أو سد ينتصب أمام اندفاعي باتجاه اللانهاية، أو من أجل احتواء سعة الوجود اللامحدودة، فلا يسمح لي بأن أصير إلى ما أشتهي وأريد. فأرتاع لأنني مقيد أو محدد أو ممنوع – بحكم طبع الأشياء – من الاندلاع الحر النازع إلى المضي صوب السرمدية، حتى كأن كل ما هو مجسد لا يستطيع أن يستوقفني إلا لهنيهة وحسب. ولهذا فإن من المنطقي أن يؤمن المرء بحق الصوفيين في الاختلاف والمغايرة، أعني الاختلاف مع السائد ومفارقته باتجاه عالم آخر يفتحه الكشف والرؤيا، وإن كان هذا الاختلاف ذا نتائج وخيمة، بل خطيرة في بعض الأحيان (صلب الحلاج، قتل السهر وردي الحلبي، سلخ ابن مشيش وهو حي، اعتقال ابن عربي في مصر ... الخ).

ولكن كلما توترت رغباتي أو جمحت تلهب خيالي وتوثب، فصار قوة اجتياح لا تأبه بالعوائق والحواجز. وعندئذ أرى الشفق الصوفي وهو يلون كل شيء. وبذلك أكون قد فهمت الصوفية – فضلاً عن أنها التفتيش عن الحقائق في العمائق - بوصفها أولاً ذلك الضيق بالمحدود والاحتباس في المادة، أو في الجسد، والنزوع نحو الإطلاق والتسريح، أو فك النفس من إسارها، أو من غيابة سجنها الدامس، وذلك كي تنفلت من المعطى إلى ما لم يعط بعد. إن الصوفية هي رغبة الإنسان في التخلص من المحدود والمألوف وكل ما يثلم سورة النفس أو يقيد جماحها أو نزوانها وميلها إلى التسريح، أو إلى التجول في المفتوح، بل حتى في اللامتاح. ولهذا، فإن في ميسورك أن ترى إلى الصوفية بوصفها نافذة تطل على الغياب، أو بوابة مفتوحة على كل ما يند عن التجسد والحضور العيني.

وبإيجاز، فإن الصوفية، أو الجاذب الأرقى بين جميع جوانب الخيال، هي الحرية بامتياز، بل الحرية كلها، إذ لا حرية خارج ممالك الخيال، اللهم إلا ما كان منها منقوصاً أو مبتسراً. ومن شأن هذا الأمر أن يتضمن الاغتذاء بلباب الأشياء عوضاً عن لحائها أو قشورها، كما يتضمن الولوج إلى أعماقها الغنية بدلاً من التجوال على سطوحها الخاوية إلا من المألوف والمعروف. وفي هذا تحرير للخيال من ركوده في مستنقع المياومة الآسن، كما ينطوي على تفجير

للغة كي تحمل ثقل المحمول الذاتي، ولاسيما الأخيلة النازحة في كل اتجاه. وربما جاز القول بأن الصوفية والخيال المجنح اسمان لشيء واحد بعينه. ومن الواضح أن ثمة جهداً باطناً يبذل ابتغاء تجاوز المسغبة الروحية التي يحتمها الوجود المصاب بالفاقة الدائمة، والذي لا يملك البتة أن يلبي حاجات الروح بسبب فقره المحايث لصميمه، أو الناشئ عن طبعه، بل عن جذوره نفسها.

ولعل من شأن الصوفية، التي هي نداء اللانهاية، أو الحنين إلى الأقاصي والأعالي، والتي تندرج فيها مثنوية المقدس والمدنس على نحو ضمني، أن تربط الكمال بنسق علوي رفيع، وأن تصون نعمة الإحساس بالحقائق الروحية الأصلية الشريفة، ثم أن تفرز في الوجدان وجداً، أو قوة حب واشتياق تتجاوز الذهن وفاعليته الذكية، وتحاول أن تستشف المجاهيل بعيداً عن كل ما هو أليف أو مألوف، وتندفع باتجاه ألف متاق ومتاق، لأنها استجابة لحنين يجهل كل إشباع أو ارتواء. وقد علمتني تجربتي الذاتية، وكذلك محتوياتي النفسية التي أحاول أن أبسطها في هذا المقام، أنه ما من شيء يملك أن يبرّح بالنفس أكثر مما يفعل الحنين، أو اللهفة التي لا تلبية لها قط.

والحنين الصوفي هو الشعور الذي نجهل مصبه بقدر ما نجهل ينبوعه أو مأتاه، وإن كان ابن عربي قد حدد غايته بأنها طي الحجب التي تحجب أنوار الله عن مقلة الفؤاد، وهي المقلة التي تهدف إلى معاينة تلك الأنوار الخالصة من كل هيئة أو شكل. وقد يظن المرء للوهلة الأولى بأن هذا الحنين ليس إلا فورة عسفية مجهولة الفحوى والمحمول، ولكنه في كنه الأمر لا يقل عن كونه قيمة جلى، وذلك لأنه التعبير عن حاجة الإنسان إلى ما يتخطى المادة ورهلها وبلادة ثقلها، أو ما يطفر من قيودها الفولاذية الجبرية الصارمة. وربما كان التفكير بالصوفية على هذا النحو الذي يجعل منها صنفاً من أصناف فقه النفس التي تُحدس ولا تعرف، والذي يقرّبها كثيراً من الفن والأدب، هو خير المناهج المؤدية إلى تحديثها وتوجيهها صوب التكيف مع طور تاريخي لا يطيق الخرافات، ولا يرضى تماماً إلا عن كل ما هو واقعي، أو ما لا يتضارب مع الذهن والمنطق الرأسي المستقيم.

ومما يقبله الكثيرون أن الله لم يعط للذهن ولا للحدس اللماح الذي يلقف الماهيات لقفاً، وإنما تبلغ إليه النفس بالوجد الديني الذي هو شكل من أشكال الاشتياق والحنين. وقد لا أحيد عن سمت السداد إذا ما زعمت بأن هذا الوجد الطافر صدوب الله هو الذي أسس الصوفية في بدء الزمان، وإن تعرضت للتشويه بعد ذلك حتى صارت أشبه بمحتويات الكشكول المتباينة.

وفي الجواز أن يقال بأن الحنين الثاوي في عقر النفس على نحو ديمومي، أكان صوفياً أم غير صوفي، هو عشق أو نزوع روحي مجذر في جوهر العشق. ولهذا فإن من شأنه أن يجعل الصوفية، أو الحب، استجابة لنداء النائيات أو الغائبات المنتسبات إلى مملكة الفراق المغمسة باللوعة والحميا، أو بالتلهف على ما لا يمتثل للإرادة ولا ينصاع. أن تروّض ما يند عن الترويض، أو لا يرضخ لأية أوامر، مهما تك درجة صرامتها وحزمها، أن تدجن المحال نفسه، ذاك هو الخيال، إن لم يكن العبث، على وجه الضبط والدقة.

ولكن من خصائص اليانعات أن يرشقن عليك نظرة ثم يمضين، وقد لا يتاح لك أن تراهن مرة أُخرى إلا بالصدفة وحسب. وهذا أمر من شأنه أن يجعل الإنسان الطيب حنيناً، في نواته الأصلية، أو أشواقاً ومتاقات تبرح بالروح في كثير من الأحيان.

وقد يصح الذهاب إلى أن الرعشة الصوفية، كالحب سواء بسواء، تملك أن تجعل الوجود إخائياً، أو حميماً وسلمياً، بدلاً من كونه عدائياً ومأهولاً بالشرور التي تحيل العالم إلى بيداء قاحلة لا يتراءى فيها شيء سوى السراب. وهذا يعني أنها شاحذ يشحذ الوجدان ويضرم نار الشوق والصبوة الكاوية. ويبدو أن هذا الشحذ هو السبب الذي جعل الصوفيين يكتبون بأسلوب طلي شفاف، وأنه هو نفسه الذي أحال الصوفي إلى صديق للأشياء دافئ وحنون، أو قل جعل منه كائناً مترعاً بالرأفة على جميع مجالي الحياة. ولئن صح هذا الزعم، صار مباحاً للمرء أن يذهب إلى أن الصوفية منهج من مناهج الأنسنة، أو جهد يبذله الإنسان ليستيقظ على جوهره الإنساني النبيل. ولهذا يسعني الذهاب إلى أن أهم عنصر في الصوفية (صوفيتنا، على الأقل) ليس تعاملها مع

الغموض، إذ هكذا فهمها الأوروبيون، بل هو السمو الذي تهدف إليه وتسعى في سبيل خلقه داخل شعور الإنسان.

ولا شطط إذا ما زعم المرء بأن الهدف الأخير للصوفية الشرقية هو إنجاز الكمال الذي من شأنه أن يجعل الإنسان كائناً أنقى من شعاع الشمس، أو أن يؤهله لمجاورة الله أو للاقتراب منه ولو في الوهم، وذلك بعد إلحاق الهزيمة بكل ما يفلّ قوة الروح ويلوث بكارتها. بيد أن هذا الفهم لا يمنع من الذهاب إلى أن التجربة الصوفية محاولة جلى يبذلها الروح لايلاج الملاء في الخلاء وإضفاء القيمة على الحياة والوجود. وبذلك يحاول الانسان أن يدحض اغترابه وخواء وجوده، بل أن يصل إلى الغبطة أو إلى العذوبة التي هي التجاوز الفعلي لكل غربة أو اغتراب.

وبين أكبر الدروس الصوفية ثمة درس فحواه أن على الهَيف أن يتحمل الجَلف، وأن الرهافة لا تكون معزولة عن الجلافة. (وعلى هذا المبدأ الصوفي الأخلاقي، نحت العمود العربي النحيل الحامل لثقل باهظ، والذي يمكن للمرء أن يراه في قصر الحمراء) ولهذا كان إنقاذ عذوبة الحياة وصفائها واحداً من أبرز أهداف التصوف.

ولما كانت الصوفية الحقيقية إشراقاً داخلياً وفتوحات في مملكة النفس، واقتراباً من جوهر البكارة، أو من فسحة اللطافة التي هي نقيض لكل كثافة أو جلافة، وذلك لأنها نتاج للضيق بكل تقييد أو تحديد، أو بهذه الدنيا الفقيرة البائسة، بل قل لما كانت غبطة روحية منعشة وسورة حنين عارم طافر صوب الأوج، فإنها محاولة جلى لملء الخلاء الرابض في الأشياء وفي جوف النفس معاً. وكل محاولة من هذه الفصيلة هي، في الوقت نفسه، جهد لحراسة الحياة من السأم والتوتر، ودرء للتشيؤ عن الروح البشري، وتعزيز لزخم العذوبة في سريرة الإنسان. ففي الحق أن الصوفيين قد استطاعوا ان يحيلوا الحرية إلى صوفية والصوفية إلى فسحة حرية منداحة شاسعة. ومن شأن هذا كله أن يفسر انتشارها الواسع وتشبث الناس بها في الأزمنة الغابرة. وكل ما يتشبث به الجمهور له وظيفة وفاعلية حتماً.

*   *   *

وبعدما يهمزني مهماز الكتب الصوفية التي قرأت بإفراط، فإنني أتوهم أحياناً، وأنا أحاول أن أنسلخ عن بشريتي، بأن روحي غادرت جسدي وراحت تعرج في أجواز الفضاء صاعدة في الأعالي باتجاه الأوج، كما أشعر أحياناً أخرى بأن نوراً شعشعانياً يتدفق في فضاء نفسي، وأحياناً يومض بسرعة ثم يتلاشى. كأنني أوشك، لشدة الوجد والرغبة في الاختراق، أن أبصر الماوراء الأسمى، ولكني لا أبصر سوى بعض الرؤى الخاطفة السريعة الزوال، والتي تفر من التعبير بسرعة البرق حتى لكأنها فوق اللغة، بل فوق كل وصال. وربما كان ذلك كله بفعل قوة الخيال وحده، وهي النازعة صوب الرحابة المنداحة الفيحاء، كما لو أن هدفها النهائي هو البلوغ إلى إقليم اللازمن واللاتغير. إن الخيال يصنع إجازات منعشة حقاً، لأنه يخلص المرء من السأم وعقم الرتوب، ويؤكد أن الإنسان سليل النعمة، حتى وإن كان محاطاً بالخلاء. ولكن، يلوح لي أن المرء لم يسمح له إلا بنظرة حسيرة كليلة يرشقها على الكائنات. فاعلم أنك لن تصل إلا إلى حيث رُخّص لك وحسب. وهذا يعني أن لك شوطاً أو أمداً أو مبلغاً سوف تبلغه ثم تتوقف عنده بحكم قوة الجبر والحتم، أو بحكم جبلتك الخاصة حصراً.

ومع ذلك أشعر أحياناً بأنني في حال انخطاف أو جذب صوفي جليل. وذلكم هو تحرير الخيال والوجدان بواسطة الرعشة الصوفية الكاشفة عن السر والصانعة للنشوة المباغتة الخاطفة والآخذة إلى البعيد، بل القادرة على إزاحة كل ما هو شائع أو مبذول من أمام مقلة العين. وذلكم هو الإلهام الوجداني أو الخيالي الصانع للومضات البارقة، وهي التي من شأنها أن تكشف الأصقاع الداخلية بوصفها أجواء للحرية ومساحات للرؤيا والجمال، تنداح فوق الكون كله، وتحاول أن تحضن أمداء الوجود التي لا تتناهى. وحينئذ تنتشي الروح بفرح صرف، وتسبح في بحيرة من الجذل والسرور. وفجأة يصير الوجود عذباً إلى الحد الذي لا يطاق، حتى لكأنه تجسيد للبهجة نفسها، أو قل انه صار حضرة نشوى بعد ما تخلص من جلافته وغلاظته وخشونة ملمسه. وعندئذ أدرك أن

الكون ليس العدم مجسداً، بل هو معطى مسحور وشديد الثراء، كما أدرك كيف كان بعض الصوفيين يثملون دون خمر، أو ينتشون برؤاهم السامية التي تفرزها أرواحهم من داخلها. وتلكم هي الإجازة بالضبط.

ولقد اعتدت طوال الشطر الثاني من عمري أن أشعر بأنني أنتمي إلى عالم سام يقع وراء جميع المرئيات، وأنني أحتاج إلى أن أخترع لغة قائمة بذاتها، أو أن أصوغ طاقماً من الكلمات غير المعروفة وألحقها باللغة القائمة سلفاً، إذا ما أردت أن أشرح ذاك العالم السامق النبيل، أو إذا ما أردت أن أنبش أعماقي وما تدخر من مضمونات.

ولهذا، أرى أن النداء الصوفي هو أصدق نداء يفرزه باطن الإنسان في برهة الصفاء الرائقة، وأن قرارة الأشياء لا يستتب فيها أي معنى سوى نزعة السمو الطافر صوب الأعالي الزرقاء، مع أن كل شيء هنا على الأرض ساقط إلى غير رجعة. ويبدو أن هذه الإشراقات والوثبات الباطنية المباغتة هي محاولات يبذلها الوجدان ابتغاء البلوغ إلى العمق أو إلى ينابيع الأنوار، أو من أجل إلقاء نظرة على الماوراء الجليل. فالإنسان بطبعه كائن استطلاعي يرغب في الكشف والإطلال من عل على مشهد مبسوط أمامه كالبساط.

ولا غلو إذا ما زعم المرء بأن الحنين الصوفي غريزة، مثله مثل غريزة الحب المتخصص بصنع الحياة، أو هو صنف من أصناف الحب فعلاً، وربما جاز الظن بأنه عميق كالحب وأصيل. فلئن كان الحب، الذي يند عن التعريف الحاشد، هو المنتج الوحيد للحياة، فإن الحنين الصوفي هو النهج الذي يسير عليه الروح لكي يتجاوز ضحالة الحياة والسمو فوقها، أي لكي يؤثل الحياة في العمق الراسخ النفيس، إذ لا يهدف الحنين الصوفي إلى شيء قبل أن يهدف إلى تناول مالا ينال ولا يطال، بل إلى ما لم يخطر على قلب بشر. ولابد لهذه النزعة الرامية إلى الخلاص من ابتذال المادة وسماجتها من أن تكون نتاجاً لخصوبة الذات ونضارتها ورونقها البهيج.

ففي قناعتي أن الصوفية كلها تنبثق من رغبة عميقة في النفس خلاصتها الاشتياق الشديد لما لا وجود له قط. إن هذه الرغبة التي تنطوي على النزوح صوب حيازة اللامحدود والمالاينقال، هي الأس الذي تنبثق منه الصوفيات التي

ظهرت في العالم منذ أقدم العصور حتى اليوم. فالصوفية خيال ينبع من التوقان إلى اللامتاح. وههنا تتبدى وظيفة الخيال ناصعة جهراً. إنها جعل اللامتاح متاحاً ولو في الوهم، أو قل إنها استجابة لنزعة الانديا ح والتسريح والبلوغ إلى ما وراء المادة وما يعلو فوقها، أي إلى تلك الصورة التي لا تحدها الحدود ولا تقيدها القيود.

فلئن كان الذهن محصوراً بأسوار المنطق، فإن الخيال قوة من شأنها أن تندلع بكل اتجاه دون أن تشكمها أيه شكيمة مهما يك نوعها. ولهذا يجوز التأكيد على أن الخيال لا ينفصل عن الصوفية، ولا الصوفية عن الخيال والفن والأدب.

ومن حسن حظي أنني عثرت على النفري يوم كنت في أوج الشباب أو قبل فوات الأوان. وقد علمني درساً نفيساً خلاصته أن الروح ما وجد إلا لكي يرى، سواء بالبصر أو بالبصيرة، أو بالشيئين معاً. ولهذا، فإنني كثيراً ما رحت أمارس الرؤى الصوفية سراً، أو في منأى عن أبصار الآخرين. ولا افتئات على الحقيقة إذا ما قلت بأن بعض أحلامي قد صارت رؤى صوفية نادرة وممتعة إلى الحد الذي من شأنه أن ينجز تفتح الروح. وهذا يعني أن الأنس تعويض عن اللامعقول الذي يهيج على الدوام في الحياة الجماعية، أي في التاريخ.

* * *

حين أحاول أن أستبطن نفسي، فإنني كثيراً ما أشعر بأن في باطني، وعلى مسافة سحيقة غائرة، يستتب، بشكل كامن أو مضمر، إنسان أحسبه جد عظيم، أو قل إنه أعظم مني بكثير. ذاك هو الإنسان الصرف الذي يحوز على العنصر الشامل، والذي لا يسمح للكمال بأن يتخارج إلا على أقساط بينها فواصل زمنية ليست بالقصيرة. بيد أن وجود هذا الأنا المحض في سريرتي المكتومة هو إشارة نصف صريحة إلى أنني متجذر في ماهيتي، أو في باطني الخاص.

ولكن أهم ما في الأمر أن ذلك الكائن حصراً هو الذي يحن إلى الأعالي ويشتاق إلى الحضرة الماورائية، ويتذوق الجمال ويتصل به على الدوام. وكثيراً

ما أسمعه وهو يحثني على الالتزام بإنسانية الإنسان وشرفه وكرامته الرفيعة المقام، ولاسيما في هذا الزمن المهدور الكرامة والمطلول الدماء. ولكن الوعي الذهني البارد (الذي يطرح عليّ هذا السؤال باستمرار: لماذا تتعب نفسك؟) كثيراً ما يلجمه ويقلص شوطه أو مسافة خياله، ويؤوب به إلى ساحة الواقع الماحل، أو الخالي من كل ما يملأ وينعش. وهذا يعني أن وعي الدلالة يشكم وعي الثمالة ويجبره على الضمور بل حتى على التلاشي، أو على الاستحالة إلى هلام. وهذه واحدة من الرذائل الكبرى لعصرنا الراهن.

كما أشعر بأن الأنا الآخر الكامن العميق، إذا حضر أحسنت، وإذا غاب أسأت، وذلك لأن الانسجام سمة من أبرز سماته. وفي الحق أنه إذا ما حضر ذوبني فأزالني بحمض كثيف. ولا مراء عندي في أنه هو الذي يكتب حين أمارس فعل الكتابة. وحين أدرك أنني لا أملك أن أقنع أحداً (مع أنني كثيراً ما أرى بعض الأردياء والسفهاء والأغرار وهم يهيمنون على ألباب الناس ويجذبونهم إليهم بيسر وسهولة)، عندئذ أقتنع بأن صاحبي الباطني الراخم في جوفي المجرد قد تخلى عني لسبب لا أدريه. وكثيراً ما حاولت أن أتعرف عليه من نقطة الكثب، ولكنني لم أفلح إلا قليلاً وحسب. وعلى أية حال، فإنني اثنان على الأقل، وربما كنت أكثر من ذلك بكثير.

إن انشطاري إلى كائنين، أولهما ينتسب إلى الثمالة وثانيهما إلى الدلالة (وأنا احترم الشيئين معاً، وعلى قدم المساواة) هو ما أهلني لأكتشف أنني متناقض إلى حد لا أصدقه أنا نفسي. ففي بعض الأحيان أرى الدنيا جذابة، يانعة، رائعة، وفي أحيان أُخرى أتمنى زوال هذه الأرض التي ((توارثها الجدوب)) على حد قول عبيد بن الأبرص، والتي تبدو لي في بعض الأوقات أنها ذاوية ذواء لا اخضرار بعده ولا ازهرار. ومع هذا الموقف المسرف في التشاؤم، فإن الجمال ما زال يغتني ويخلب لبي أو يتيمني ويخطفني إلى البعيد حتى في طوري الشائخ هذا. وفضلاً عن ذلك فإن عقلي كثيراً ما يلجمني ويصدني عن كل تطرف أو إفراط، فأنا أو من أيما إيمان بهذا المبدأ: كلما كبر العقل صغرت الأشياء.

حقاً إنني مزيج من الفطنة وعطالة الذهن، إذ كثيراً ما تنطلي عليّ الحيل فأكون سهل الاستدراج نحو المزالق الخطيرة، بل ينطلي عليّ الخبثاء الماكرون، فلا أشعر بأنني فريسة لحيلة دنيئة إلا بعد فوات الأوان، وقلما أدرك في الوقت المناسب أن ثمة مطباً ينتظرني وأنني سوف أتردى فيه عما قليل. ولأعترف بأن ذهني كثيراً ما يغيب عند شدة حاجتي إليه، ولاسيما إذا باغتني الخبث اللئيم بهجمة فجائية، فأصاب بالبهوت وانكسار الإرادة.

أجل إن ذهني يخذلني أحياناً فلا يعود له وجود بتاتاً، بحيث لا أدري ما ينبغي أن أفعل، ولاسيما في برهة الأزمة. وعندما يثوب إلي رشدي فإنني أستهجن كيف حدث ما حدث، ولماذا لم أفطن إلى أكثر الأسئلة بداهة في برهة النشوب أو الاحتدام. أن تصير فريسة لأوغاد أخساء، يستبيحون حريتك ويعبثون بمصيرك، ذاك شيء من شأنه أن يخلق أمضَّ شعور يمكن لك أن تعرفه طوال حياتك.

وإنك لتتحسر، ولكن بعد فوات الأوان، على أنك كنت أضحية لأنذال ثعلبيين أو ماكرين، خدعوك بإتقان وانتصروا عليك بخبثهم الغالب لبراءتك وبياضك الناصع كالثلج النقي. وكثرهم الذين خدعوني وابتزوا مني ما يريدون ودون أن أفطن لخداعهم في الوقت المناسب. فما كان للحياة أن تتقيح إلا بسبب المراوغة والغش والخداع والكذب. ولكنني أستهجن إلى حد الذهول كيف يقبل أي امرئ أن يفترس امرءاً آخر، أو أن يتخذه وسيلة إلى غاية، حتى وإن تكن غاية نفيسة. فليتنا نعرف نتيجة أي فعل قبل أن نمارسه. وهذا ما عبر عنه أحد الشعراء القدامى حين قال:

ألا من يريني غايتي قبل مذهبي ومن أين والغايات بعد المذاهب

* * *

ويلوح لي أن الانقسام على الذات صفة كونية لا مفر للأشياء من مقاساتها. ولكم أجاد البحتري حين رأى الدنيا كلها وهي تعاني انشطارها، أو اتصافها بصفتين متناقضتين، وذلك حين وصفها بقوله:

تراها عياناً وهي صنعة واحد فتحسبها صُنعي حكيم وأخرق

ولكنني شديد الاعجاب بالبيت الذي يسبق هذا البيت الأخير، ولا سيما بشطره الثاني، وهو:

ولن ترى كالدنيا عشيقة وامق محبٍّ، متى تحسُن بعينيه تطلق

وهذه هي المانوية أو المثنوية حصراً، وهي مذهب موضوعي تماماً، لأن ذلك هو حال الأشياء. ومما يستحق أن يعرف أن هذا المذهب القائل بوحدة الأضداد واندماجها داخل بنية واحدة، هو في الأصل مذهب بابلي، أو من جنوب العراق حصراً.

ومع أنني أومن بالعقل وأمجده حتى درجة التقديس، فإنني أشعر، ولو في قليل من الأحيان، بأن عصبة من الأشباح والكائنات الخرافية تعشش في فضاء نفسي وتتكلم وتتحرك على نحو عشوائي شديد الاضطراب. إن هذه الحقيقة هي ما ينبغي أن أؤكد عليها ما دمت في معرض تشريح الذات، أو نبش محتويات الأنا وعرضها على الملأ. وإنني أتمنى أن أنجح في هذا الاستبار بحيث أغرف الكثير من العناصر المكتومة أو المستورة في الأعماق.

وعلى أية حال، فإنني ما برحت أشعر، حتى في هذه السن العالية، بأن بعض انجازات الموسيقى الكلاسيكية الأوروبية ما زالت تجتذبني، وبأن جل أغاني فيروز لها القدرة الكافية على أن تجعل النفس تبزغ من الداخل كما تبزغ شمس الصباح النيّرة، وبأن الدبكة اللبنانية استطاعت أن تحيل الجسد البشري إلى قصيدة أو إلى رشاقة مرئية بالعين، وجعلت منه استحضاراً للخفة والحركة المنغومة، وبذلك أكدت أنها انتصار حاسم أحرزته الروح على المادة. ولهذا

فإنها تستجيب لنازع تسريح النفس وتحريرها من قوانين الثقل الباهظ البليد، وإحالتها إلى أثير أو إلى شيء يشبه الأثير. وبذلك يتبدى الفن الأصيل، وهو المنتسب إلى وعي الثمالة، وكأنه قوة تحرير رائعة. ومما هو حق، أو هكذا يخيل إلي، أن كل تحرير للباطن هو جهد أخلاقي جليل.

ولعل من شأن هذه المفاهيم كلها أن تؤكد ما فحواه أنني قلق، أو مضطرب ومتوتر، أكثر مما أنا كئيب.

وعندي أن ثمة عنصر انخطاف أثيري في كل فن أصيل، وأن الانخطاف، أو عرام النشوة، هو أعلى برهة تبلغها الذات حين تخرج من ضيق حدودها لتطفر إلى خارج الزمان بحثاً عما يغاير الرتوب. وهذا التجاوز الذي أراه يصدر عن اللامشروط، هو هدف من أكبر أهداف الفن. ولعل من شأنه أن يحتم هذا المعيار النقدي المبدئي: كل فن لا يبلغ سويداء الفؤاد هو من الدرجة الثانية، في أحسن الأحوال.

ولهذا، فلا ضير في أن أذهب إلى أن وعي الثمالة هو الذي دفعني، منذ عشرين سنة أو أكثر، إلى الاستئناس بمنهج روحي شفاف يتأسس على مبدأ التوسم والزكانة، أو على مبدأ التفطن البديهي الساعي وراء الهَيف والينع والدماثة، وذلك بدلاً من التذهن والتحليل المنطقي الناشف، إذ لا يتيسر البلوغ إلى حيوية الموجود وحرارته أو وهجه إلا إذا أتى المرء إلى الأشياء من درب الألطاف الحسنى، أو قل من الدرب المسيجة بالياسمين. وهذا هو مبدأ الصوفية حقاً. فاللطف أولاً وقبل كل شيء. والجمال هو اللطف قبل أن يكون أي شيء آخر. ولئن كان الجمال هو الهيف فذلك بالضبط لأن الهيف شكل من أشكال اللطف. نعم، إنه اللطف الذي رأته الصوفية وهو يكتنف الإنسان من جميع جهاته وطوال حياته.

بيد أنه من الحماقة والسخف أن يرفض المرء أياً من الوعيين ويتقبل الآخر. فلا ريب في أن كلا الجوهرين نفيس، وأن لكل منهما وظيفة من شأن غيابها أن يعطل الحياة. ولا أحسبني أجافي الرشد إذا ما صرّحت بأن وعي الدلالة نافع أو مفيد في تسيير شؤون العمل وما يعاش بالتجربة، وبأن وعي الثمالة من شأنه أن يجعل الأرض قصيدة غنائية منعشة. ولا تجسده في

الاساطير أية شخصية سوى شخصية أورفيس الذي يعزف للجمادات فتسيل كما تسيل المياه. إن وعي الثمالة هو الملح الذي يضاف إلى الحياة فيضفي عليها المذاق الطيب الزكي.

ويترتب الكثير على هذه الرغبة في التماسّ الغزلي مع اللطف الذي هو الاسم الآخر للأُنس والجمال معاً. فعندما أقرأ رواية جيدة، أو قصيدة عظيمة، وعندما أشاهد مسرحية ناجحة، أو لوحة أنجزها امرؤ مرهف الإحساس، أراني أشعر بأن ثمة في باطني وقاراً وجلالاً عظيمين حقاً. ويبدو أن الشعور يتشكل بتضافر الجهود الداخلية والخارجية معاً. كما أراني أجنح إلى الاعتقاد بأن الشكل النبيل والتعبير الشريف الكريم من شأنهما أن يخلقا في النفس شعوراً بالنبل والشرف والكرامة الذاتية. وهاهنا يتبدى الأساس الأخلاقي لكل فن وأدب عظيمين، أي لكل شعور إنساني أصيل.

ومما هو قريب من هذا أن الأُنس، أو الصدق الذي يدشن الأنس، هو حاجة من أعمق حاجات الإنسان الداخلية. ولكن الأنس الحقيقي شعور لا ينجزه إلا الاتصال البالغ إلى الصميم. ومما هو صادق تماماً – على ما أظن – أن الأنس يحتوي على الحب والصداقة معاً. وقلما تكون هنالك أصالة لا يمازجها الحب بالدرجة الأولى. أما مثاله الممتاز فهو أنس الطفل الغرير بحضن أمه الرؤوم. وهذا يعني أن ثمة طرفين متفاعلين: من يؤنس ومن يأنس به. وأما الهناء فحسبه طرف واحد، لأن المرء قد يهنأ بوجبة طعام شهية، أو بمشهد طبيعي، أو بأغنية. ولكن الذين يستوطنون في الهناء هم الأنقياء أو الأبرياء وحدهم. ويبدو أن النقاء متعة أصلية، كالأنس والحب والصداقة. ومرة أخرى تلاقي الأساس الأخلاقي للشعور.

ولكن عبثاً يلوب الروح على الأنس أو على الحميم المفقود في هذه الأيام التي يعيشها المرء كما لو أنه يخوّض في الوحول، وذلك على النقيض تماماً مما كان عليه الحال في تلك الأيام الموسومة بالينع ورونق الاخضلال. فالأشياء مقمطة بنواميسها، ولا يخرج منها إلا ما هو مركوز فيها سلفاً. ولهذا فإن من طبيعة زماننا أن إنسانه قلما ينجح في مضمار الاتصال بالآخر كما أنه مصاب بالعجز عن الولاء لأي شيء جمعي.

*   *   *

ومع أنني دائم التنقيب عن الأنس والنقاء والبراءة في سواء هذا الاقفرار الشامل الذي يواظب على تنحية الروح جانباً، أو على دحرها من متن الوجود إلى حاشيته الضيقة، فإنني أعيش الحياة توتراً وقلقاً منهكين، وذلك لأني محاط من جميع الجهات بفراغ هائل مرير من شأنه أن يحضني على التحول إلى ازدرائي متعنت في بعض الأحيان. وهذا كله له سبب واحد وهو أنني أعايش هموم العالم وكأنها همومي الخاصة. ومع ذلك، فإن العالم الذي يتصدع رأسي بغمه يومياً لا يبالي بي أدنى مبالاة. فلا بكتني السماء ولا حزنت عليّ الأرض. أو كل هذا التفطر في الروح وما من يد تمسح الأرق عن جفوني؟ أو يعقل أن للسخف هذي الأناقات كلها؟

فالروح يكابد حصار العزلة الذي لا فكاك منه، والجسد سادر في اشتهائه الذي لا تلبية له.

وهذا يعني أن الإنسان مبني عل مبدأ التوتر والاحتدام، وأن الحياة هي المكابدة، وأن السعادة وهم لا وجود له مع وجود العقل النافي لكل وجود. وعندي أن من لا يكابد هو كائن لم ينضج بعد ((لقد خلقنا الإنسان في كبد)) ويبدو أن هذا الأمر حتم لا مفر منه بتاتاً.

وربما جاز لي أن أزعم بأن هذا الغم الذي أنقض ظهري هو ما قد أرغم جسدي على أن يصير عرضة للأمراض المنهكة قبل أن أبلغ الستين، وخاصة السكري الذي هو داء يضني الجسم حتى العياء. فما عاد جسمي إلا عبئاً باهظاً أعتله على كاهلي منذ عام 1996، أي يوم كنت لا أزال في الخمسينيات من سنوات عمري الذي أتمنى لو عشته في زمن من الأزمنة الغابرة، أو ((في غير أمته من سالف الأمم))، كما قال أبو الطيب. ولكن ما هو جيد حقاً أن مرضي يمنحني بعض الإجازات، وإن تكن هذه الإجازات قصيرة وعابرة وسريعة الإنقضاء.

*   *   *

إنني، وأيم الحق، أخجل من وجودي في وسط هذا السخف وهذه التفاهة الشائنة التي تسمى الحياة، وهي ما يتألف من عناصر لا قيمة لها عند كل من هو ذو قيمة، أو يستوعب دلالة القيمة. فكأنما العقل رصيد يتألف من المليارات، ولكنه موظف – على المستوى الإجرائي – في مشروع لا يدر سوى حفنة صغيرة من ((الفراطة)). وعندي أن هذا الشعور بتفاهة التجربة، أو بصغرها وضآلة شأنها، هو الشعور الناضج بالضبط. وهذا الشعور نفسه هو الشعر الجيد على الأصالة. فالشاعر هو من يشعر بأرهف المشاعر. فهنالك من يكتب شعراً، أو ما يشبه الشعر، ولكن دون ان يكون شاعراً، وذلك لأنه لا يشعر. وهنالك من هو شاعر حقاً، دون أن يكتب أيما شعر، وذلك لأنه يشعر ويتحسس الموت والحياة على السواء.

وفي ظني أن الشعور بصغار العالم، او بسخف التجربة العملية، هو المنبع الأول للصوفية في كل مكان وزمان. فالصوفية جهد يبذله الروح لكي يعيش في منأى عن الصغائر وعن تفاهة العيش في عالم محدود. ومن العجائب المذهلة أن يجيء العقل أو الروح إلى هذه الدنيا القاحلة لكي يمارس هذه القماءة، أو هذه الدناءة التي قد تجعل الإنسان الأصلي يشمئز ويشعر بالخزي، بل حتى بالعار والشنار، لأنه موجود، ويتنفس كما تفعل الحشرات في سواء هذا السخف الدميم. ولكي يتجاوز الإنسان هذا الشعور بالصغار، فقد اخترع كلاً من الفن والصوفية اللذين أرى أن بينهما من الروابط والنقاط المشتركة مالا يحصى ولا يعد.

فالعقل أو الروح جوهر مجاني في عالم مجاني لا لزوم له قط. وما جاءت الصوفية، إلا ابتغاء تجاوز هذه المجانية، أو من أجل إضفاء القيمة على التجربة الإنسانية، بعد اكتشاف الأنس والحب والجمال. إن واحدة من أكبر وظائف الصوفية هي تخليص الوجود من وحشته ووحشيته، ثم جعله مجالاً مأنوساً ناجياً من عكره وادرانه وجميع منغصاته. وههنا يتبدى الفرق الكبير بين الفهم الشرقي للصوفية والفهم الغربي المبتسر. فالفهم الشرقي متعدد الدلالات، أما الفهم الغربي فمقصور على التفطن للغموض أو للامفهوم. لقد أغفلوا

العنصر الوجداني، أما نحن في الشرق، الذي اتضع كثيراً في زمن الغربيين، فلا حياة لنا بغير هذا العنصر النفيس النبيل، وإني لأشكر العناية الإلهية التي قررت ألّا تجعلنا غربيين أو كالغربيين.

كيف استطاع هذا الكون الأجوف الأشعث الملفق الشاغر من كل محتوى ذي بال، أن ينتج العقل (الروح، النفس، الشعور) الذي من شأنه أن يكشف عورة الكون نفسه، أعني أن يبين سخفه وصغاره وسقوطه السرمدي؟ فالعقل، وليس الأوديب، ولا اللاعقل أو اللاشعور، هو قاتل الوالد الذي أنجبه ورباه وأنضجه ونمّاه. ولكن العقل لا يغتال أباه إلا إذا نضج وصار قوة هتك وفضح.

ولهذا، فإنني أحترم هارتمن، تلميذ شوبنهور، لأنه شدد على أهمية الوعي وتفوقه على اللاوعي، ولأنه اعتقد بأننا نعيش ونسعد في سواء البؤس بفعل اللاوعي وحده، أما الوعي فهو الذي يوقظنا على بؤسنا وشقائنا تماماً كما قال المتنبي:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم.

إن الوعي هو القوة التي تحررنا من جهلنا بتعاستنا، أو حتى من وهم السعادة الذي قد يهيمن على نفوسنا، ولو في قليل من الأحيان. فكل وعي أصلي إنما يبدأ بوعي البؤس أو بوعي الشر. كما يروقني ليوباردي، ذلك الشاعر الإيطالي الحنون، ذو التشاؤم الطري الأهيف الكريم، والذي هو متأثر بشوبنهور على نحو لا يخفى.

ترى، هل يتمكن العقل من الاستمتاع بكماله الخاص، بعد ما يغتال الكون ويزيح الستار عن سوأة الكينونة ويكشف قلبها الأجوف الخالي من كل ما هو لأجل البالغين الناضجين؟ وإذا ما شاهد العقل الدمامة الرابضة في أجواف الأشياء، أفلا يكون قد اغتال نفسه قبل سواها. ولئن لم يبصر في الآخرين سوى كائنات شريرة، أفلا يكون قد نسي أن الحاجة إلى الاتصال بالناس هي مبتدأ الذات وخبرها ونسغها ومحمولها الأكبر والأعظم؟ إن العقل إذا اغتال الأشياء اغتال نفسه. فما فقأ اوديب عينيه إلا لأنه أبصر شناعة الحقيقة وبشاعتها.

ولكن الروح قوه حب وحنين مختصة باللطف، ولهذا فإنها انفتاح على الآخر، وكذلك على الحياة وما يندرج فيها من جمال وقيم إيجابية تصنعها الروح نفسها. ومن هنا فإنها معنية بالبحث عن واحات طيبة في سواء هذا اليباب الناشف. ولكن هذا البحث هو، في كنه الأمر، إنتاج لمشاعر مشحونة بالدفء والحيوية، كما أنها تنقيب عن الأنس في عالم موحش تعيس، حتى لكأنها تحاول أن تسمع حفيف أجنحة الملائكة في هذا المنفى النائي عن الملكوت. والأنس هو الحب بوصفه التحام الروح بالجمال. ولهذا سميت المرأة الشابة آنسة في اللغة العربية.

إن على الذهن أن يفكر بهذه القيم كلها قبل أن يغامر باتجاه الاغتيال الآنف الذكر.

* * *

لعل في الجواز أن تحدّ النفس بأنها إناء الحياة، أو الفسحة التي ترفرف فيها روح الحياة أو تتماوج. كما أن في الميسور أن تحد الحدس بأنه وثبة استنباطية مفاجئة ظافرة، وأن تحد الوجدان بأنه قوة التعاطف مع آلام الآخرين، أو القوة التي تتفقد الغياب وتأسى إذا وقع الخسران، ولاسيما في النفائس والغاليات. أما العقل فحده عندي أنه السر الذي يلوب على السر، بل على الأسرار.

أو يعقل أن تكون هذه القوة التي ليس كمثلها شيء من أشياء هذا العالم، قد انبجست من هذه المزبلة التي تسمى الدنيا، وأن تجيء إليها لتمارس هذه التجربة الفقيرة الخافتة التي لا تساوي قلامة ظفر. ولكن، أليس مما هو في الصدق أن أوسخ الوحول وأكثرها نتناً هي التي تنبت فيها أجمل الورود وأزهاها؟ حسناً! ولكن العقل لا يواجه في الوجود – لدى التمديص السديد - سوى السخف والصغار والتفاهة والخواء. فلعل في المقدور الزعم بأن فراغ الحياة، أو خلوها من الفحوى هو الذي دفع البشر إلى التصوف والتفنن والتفلسف، أي إلى اختراع العمق والملاء وكل ما من شأنه أن يزود العيش

بالمحتوى النفيس. وإلا، ماذا عسى أن يصنع الإنسان بهذا الرصيد الضخم الذي يسمى العقل؟ ويبدو أن هذه الأنشطة اللانفعية هي وحدها التي تضفي النكهة على الحياة، ولولاها لخسرت الدنيا مذاقها وصارت رماداً أو كالرماد.

بيد أن العقل محدود ولا يملك إلا أن يرتطم بأسوار الأسرار والمكنونات المستورية الغامضة. ولكنه، مع ذلك، نفيس وجليل، بل لعله أنفس حلية أو تحفة أنتجتها الطبيعة. وتأتيه النفاسة من كونه شديد القلق على الكنه أو على الحقيقة. وبغير هذا القلق حصراً، أو قبل سواه من أصناف القلق، تتقلص المسافة الفاصلة بين الإنسان والحيوان. وهذا يعني أن قيمة الذهن، وخاصة بوصفه الحجى الذي يضرب الحجة بالحجة، لا تكمن في شيء قدر ما تكمن في حنينه إلى الحقيقة، وفي جنوحه إلى الالتحام بها التحاماً لا فكاك له بتاتاً.

أجل، إن العقل تحفة أتحفتنا بها الطبيعة، ومع ذلك فإنه طاقة منهكة جداً، وذلك لأن نشاطه يبث القلق في هدأة البال، إذ إنه لا يكف عن الاضطراب والتوتر حين يواجه عجمة الكون وصمته المطبق. ولهذا بالضبط، قال باسكال:" إن هذه الكواكب ترعبني."

ولكن تمجيد العقل لا يتضمن الاستهانة بالانفعالات والعواطف والشهوات، بل ولا حتى بالجنون الذي هو امحاء العقل أو انهيار بنيانه. فما من شيء عظيم في حياة البشر إلا وهو نتاج الشهوات والأهواء والميول الذاتية أو الانفعالية. ثم إن الإنسان نفسه سليل الشهوة وحاملها أو مجسدها على الأرض. وهذا يعني أن الذاتية كثيراً ما تكون شرطاً يشرط الموضوعية ويوجهها في الوجهة التي يريد. ولكن الأهم من ذلك هو ملاحظة مونتسكيو الخاصة بعجز الذهن وانتصار القوة، حتى وإن كانت غاشمة.

وعلى أية حال، فإنه إذا ما صحت هذه الفكرة، أعني أن الكون أعجز من أن ينتج هذا الكنز النفيس، صار في الميسور الذهاب إلى أن العقل البشري – تحت ضغط الحاجات والتحديات – قد طور نفسه بنفسه في مشروع ديمومي لا ينقطع، وذلك بعدما طرأت بعض التغيرات البيولوجية على بنية الدماغ وخلاياه وتلافيفه. ولا يمكن لحكيم أن يجعل من النور سوى شرط واحد من شروط وجود العقل. وفضلاً عن ذلك، فإنه شرط غير كاف بتاتاً.

كما لا يجوز الزعم بأن العمل المنتج مادياً هو الذي طوّر العقل واللغة، وذلك لأن العمل، ولاسيما العمل السابق على هذه التكنولوجيا المعقومة، لا يحتاج إلى معجم شاسع كالذي تحوزه بعض اللغات، ولاسيما العملاقة منها، ولا إلى ذهن عميق يفكر في الأمور العملية واللاعملية. ومن الواضح أن العمل اليدوي يحيل الإنسان نفسه إلى آلة، كما أنه يستغني عن تسعة أعشار اللغة ونصف العشر الباقي، ولا يحتاج إلا إلى فلذة صغيرة من العقل لتيسير العمل والإنتاج.

ومما يسعك أن تدركه بعد تأمل يسير أن الشطر العملي من اللغة فقير جداً وضيق المساحة إلى حد لا يخفى على المستأني الناجي من الفجاجة والضحالة، بل لا غضاضة في الذهاب إلى أن الإنسان المتحرر من شقاء العمل المنتج مادياً، هو الذي طوّر اللغة وأنضج العقل بالتأمل الذي أسهم في تزجيه الوقت العاطل أو الشاغر. إن من لا يعملون أحوج إلى اللغة ممن يعملون، وذلك لأنها وسيلتهم الأولى في مواجهة السأم والفراغ. فما طور اللغة إلا حاجة الإنسان إلى الاتصال بالإنسان وإلا رغبة الذهن في البلوغ إلى العمق أو إلى كنه الأشياء.

أجل، إن حاجة الإنسان إلى العمق، أو إلى تأثيل وجوده في الحياة هي التي طورت العقل ووسّعت مساحته، كما وسّعت بنية اللغة على هذا النحو المدهش، إذ يتعذر أن يكون العقل ناضجاً دون أن تنضج اللغة وتتسع رقعتها وتتداح، وذلك لأن مساحة العقل تتناسب مع مساحة لغته تقريباً.

أما قيمة الذهن أو الروح فلا تأتي من أنه يدرك الواقع وحسب، بل من أنه يزدريه ويتنصل من وضاعته وسخف محتواه الشائه، أو من العار الذي تتغمس فيه أدق التفاصيل. ولئن قيل بأن هذه القوة التي تزدري أو تحتقر هي الحساسية وليست العقل، فإنني أزعم حينئذ بأن الحساسية عنصر ماهوي في ملغمة الذهن البشري. أن تزري بعالم فاسد يتعذر تصحيحه أو إصلاحه، ذاك هو الفعل الذي لا بد منه إذا ما أردت أن تحترم نفسك، بل إنه أكثر الأعمال حظاً من الأصالة والنبل في آن معاً. وما من أحد يملك أن ينجز هذا العمل

الشريف سوى الإنسان الحي دون سواه، وهو إنسان لا يكره الحياة وإنما يكره بؤسها واتضاعها.

وعندي أن أسخف الأفكار هي تلك التي تماهي العقل والوجود، أو تجعل منهما شيئاً واحداً بعينه، وذلك مثل قول الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي: ((الإنسان نسخة الأكوان))، أو قول هيغل: ((العقل والواقع شيء واحد)). فهل هو فيلسوف حقيقي ذاك الذي لا يدرك أن العقل أكبر من الكون بمسافة فلكية، بل سرمدية؟ إنه أعجوبة الوجود بأسره، إذ كيف تيسر لهذا الكون الشاغر من المغزى والدلالة أن ينتج مثل هذا الموجود الذي لا يشبهه أي شيء آخر قط؟ إن تفنيد هذا التطابق المزعوم ودحضه دفعة واحدة ينبغي أن يكون الفاعلية الأولى بين فاعليات الذهن كلها. ذلك لأن العقل أكبر من تجربته، وهو يركلها أو يرفضها لأنها لا تتجانس مع هويته، أو مع ميوله المناوئة لكل شر أو سلب. فكلما كبر العقل صغرت الأشياء.

والإنسان عند بعض الصوفيين هو الكون الأصغر أما العالم فهو الكون الأكبر. ولو أنصفوا لعكسوا الصيغة تماماً، وذلك لأن العقل البشري أكبر من جملة الموجودات. فلو تأملنا بأناة لاقتنعنا بأن المدهش هو وجود العقل في سواء هذه الجمادات العجماء النافلة الخائرة والفقيرة إلى أي مضمون ذي بال، بل لعل من حق المرء الهادئ أن يقول بأنه ما من شيء مدهش في هذا الكون سوى العقل الذي ليس كمثله شيء بين المحسوسات كلها.

والإنسان ليس كائناً عاقلاً تماماً، بل هو يحمل العقل واللاعقل في آن واحد، إذ إن وجود العقل الصرف أو الناجي من فرقه هو أمر محال. ولو كان الإنسان عاقلاً تماماً لرفض الحياة حتى الانقراض، كما أنه لو كان مجنوناً تماماً لدمر نفسه بنفسه منذ زمن بعيد. فلا بد من القول بالبرزخ، مع ابن عربي. وهذه هي المقولة التي سماها هيغل باسم الوساطة بعد الشيخ بستة قرون، أو زهاء ذلك. وتلكم هي المانوية التي تتأسس على مبدأ وحدة الأضداد.

وعلى هذه الأرضية، فإن في ميسورك أن تذهب إلى أن الإنسان كائن يعذب الإنسان ويصنع له نعيمه في الوقت نفسه. ثم إنه لا يربح شيئاً إلا إذا خسر شيئاً في مقابله. فالملكية التي هي محاولة للتخلص من عبودية الحاجة، تنقلب

إلى عبودية من الصنف الباهظ الوطأة، وذلك لأن ما تملكه يملكك في الوقت نفسه. فلا حرية مع الملكية بتاتا. ولذلك قال بعض أهل التصوف: ((الحرية ألّا تملك شيئاً وألا يملكك شيء)).

إنه لزعم سخيف، إذن، أن يقال بأن: ((الإنسان نسخة الأكوان)). ومما قد يكون له صلة بهذا الإدعاء العشوائي الباطل أن يقول الشيخ الأكبر "ما في الوجود إلا الجمال"، وأن يقول الشيخ الرئيس ابن سينا قبله بمائتي سنة: ((ما في الوجود إلا الخير))، وأن يصرح هيغل بعدهما بكثير بأن السلب إيجاب، أو بعبارة ليست فلسفية: إن الشر نفسه خير. كما أضاف ذلك الشمالي المولع بالشطح الذي يسميه فلسفة: ما في الوجود إلا العقل. وبذلك فقد صار الشر عقلانياً وإيجابياً معاً، فحاول أن يعقلن اللامعقول أو أن يسوغه، ولكنه ظل مكشوفاً لكل ذي عقل سويّ رشيد. وبذلك فإنه يكون قد سوّغ جميع سفالات التاريخ، ولاسيما شرور الإمبريالية والصهيونية التي بدأت تطل برأسها بعد وفاته بقليل.

أما شوبنهور الحساس فقد كان وحده الناجي من السخف والرياء بين جميع الفلاسفة الألمان، وذلك لأنه قال: ما في الوجود إلا الشر. ولم يستثن سوى الفن الذي زعم بأنه قادر على أن يوقف دولاب أكسيون، أي أن يوقف الألم أو مكابدة الإنسان لشقائه.

كما وهم أولئك الذين زعموا بأن ((الدين أفيون الشعوب))، وذلك لأن الدين هو العمق، أو لعله أن يكون خير السبل المؤدية إلى العمق. فمن فادح الغلط أن يظن أحد بأن وظيفة الدين تتخلص في أنه يمنح الروح ملاذاً يلوذ به من هجمات الواقع النسرية، أي أنه كالفن يوقف دولاب أكسيون، وذلك لأن من شأنه أن يرسخ القواعد التي تجعل الحياة قارة أو مستتبة. وهذا القول موضوعي أو محايد، ويمكن لأي إنسان غير متدين أن يقول به. فمن دون الدين لا بد للحياة من أن تتزلزل أو تميد. كما أن انحسار الشعور الديني هو الشرط الأول لولوج العبث إلى قلب التجربة الفعلية. إن الدين هو نتاج الباطن الجمعي أو الكلي. وهذا الباطن معصوم لأنه يبذل كل جهد لكي يجعل الحياة مقبولة أو مستساغة،

ولكيلا تصير الأشياء سراباً شبحياً أو وهمياً تنكره الروح، التي هي العمق أو ينبوع كل عمق.

وعلى أيه حال، فإنني أقول في بعض الأحيان: ما في الوجود إلا السخف الذي هو الاسم الآخر للسفاهة وصغائر الأمور. فالكون لا يملك أن يسوّغ نفسه، إذ تنضب مسوّغات وجوده أو تضمحل حين يمثل أمام العقل ابتغاء المحاسبة أو المحاكمة. ولهذا فإنه لا لزوم له قط، وكل ما ليس له لزوم هو شيء نافل أو بغير قيمة. ومن المفارقات، بل من العجائب، أن تكون هنالك قيم (وأنا واحد ممن يؤمنون بها) في عالم لا حاجة إليه ولا لزوم قط.

*   *   *

ولست أبتغي الكذب إذا ما صرّحت بأنه ما من شيء يشغل فكري أكثر من وجود الشر في العالم. لماذا كان الشر هو الأطغى على الوجود وليس الخير؟ لقد داءت نفسي بهذا الشعور الذي يلازمني كأنفاسي فلا يحول ولا يزول. وكيف استطاع الإنسان أن يتحمل بقاءه في هذه الدنيا مع أنه مغمس في جحيم من صنع الشياطين؟ أن تنقرض الديناصورات ويبقى البشر، إن هذا لمن العجائب. أليس اللامعقول بأم عينه أن تكون هنالك مسافة فلكية بين انسان وآخر من حيث الملكية الخاصة؟ فلكي يغتني رجل واحد لا بد لألف نسمة على الأقل من أن يغوصوا في فقر طاحن مريع. فأين العقلانية في هذه الظاهرة المرئية في كل زمان ومكان؟

ولقد دفعني هذا التساؤل عن تفضيل الناس للعيش في هذا الجحيم على الانقراض إلى الاعتقاد بأن سر الإنسان لا يكمن في شيء قدر ما يكمن في قدرته على تحمله لشقائه ومواظبته على أن يعتل صليبه وما يخلقه فيه الصلب من آلام ومكابدات. ومن السخف وضمور العقل أن يذهب علم النفس الحديث إلى أن سر الإنسان يكمن في عقده النفسية، هذا إذا صدقنا بأن تلك العقد لها وجود حقيقي داخل النفس.

ثم إن إنسان هذا الزمن الراهن كثيراً ما يتبدى وكأنه شاحب ذابل، كمن يتنفس بمشقة وعسر بل يبدو لي وكأنه يُحتضر أو يحشرج، ولكنه لا يملك أن يموت. ومع ذلك فإنه يتشبث بهذه الحياة المملوكة للشر الذي لا أمل في الخلاص منه على المدى المنظور، وربما إلى أبد الآبدين، وذلك لأنه يتدفق من جذور الوجود، أي إنه إفراز يفرزه طبع الأشياء ومركز صميمها.

وأياً ما كان الأمر، فإن كنت تفطن لأولئك الذين يطعمونك ويجوعون في هذا العالم الإبليسي، ولئن أكثرت من التساؤل عما إذا كنت تستحق ما حصلت عليه من رتبة أو ثروة، فأنت كائن حساس وحي الضمير وناج من البلادة والميل إلى مقارفة الشرور. ولئن كنت حساساً فأنت إنسان بامتياز، وذلك لأن الماهية الإنسانية وقف على الحساسين من دون سائر الناس. فالأقرب إلى الكمال هو الأقرب إلى الماهية الإنسانية. أما البلادة فهي موت الوجدان وتصحره واستحالته إلى قفر يباب. والبلادة أخت اللامبالاة، واللامبالاة هي اللافرق أو اضمحلال القيمة وزوالها. وفي برهة اللافرق الجائرة يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون.

لقد استفحلت الأنانية في هذا العصر الذي جعل من الحياة صنفاً من أصناف الصلب الدائم. ولكنني أعرف واحداً من أولئك الذين نجوا من هذه المثلبة الخسيسة، أعني مثلبة العمل من أجل الأنا ومن يلوذون بها. فقد كان هنالك رجل يبيع السجاير المهربة أمام مبنى مجلس الشعب وبجواره في دمشق خلال التسعينيات، أو في أواسطها. وكنت أشتري منه علبة سجائر كلما مررت من هناك سيراً على الأقدام، فهنالك المقهى الذي اعتدت أن أتردد عليه كثيراً. وذات يوم أخبرني أحد أصدقائي، وهو يعرف ذلك البائع جيداً، بأنه ينفق تسعة أعشار ربحه من السجائر على الفقراء والمحتاجين ويعيش في بناء مهدم بلا زوجة ولا أطفال. وعندما تيقنت من ذلك الخبر، أدركت بأنني أعيش في زمن إنسان حقيقي، إنسان يقدر على أن يخرج من أنانيته إلى غيريته، أي من شح نفسه إلى ماهيته الإنسانية. لقد حل الإيثار محل الأثرة وحب الذات.

ولا ضير في أن أكرر القول بأنه ما ثمة إلا السخف، وإن كنت استنكف عن هذا المذهب في كثير من الأحيان. فهذه الكواكب التي أرعبت باسكال

وأعجبت كانت أيما إعجاب، ووصفها كزانتزاكي بأنها ((الحلي التي تزيّن رداء الله))، كثيراً ما أراها استحضاراً للتفاهة والخواء، لا لأن كلاً منها يتدحرج في الفضاء بغير غاية فقط، بل لأنها تضيء الأرض للقاتل والضحية دون تمييز أيضاً. وهذا يعني أنها لا ترى إلى الفرق ولا تأبه به بتاتاً. وحيثما تلاشى الفرق صار العقل معدوماً أو كالمعدوم. وحيثما غاب العقل اضمحلت القيمة فخسرت الحياة طعمها وقدرتها على الاجتذاب، وانحل كل شيء في اللافرق، وتساوى سقف البيت وأرضيته، واستوى الخسيس والنفيس، وصار الرفيع والوضيع شيئاً واحداً تماماً.

إذن، ثمة هاوية تفصل بين العقل والوجود، هاوية لا تعبر، ويتعذر أن يبنى فوقها أيما جسر من شأنه أن يدشن وصالاً وثيقاً وحميماً بين العدوتين المتقابلتين. فحين تندلع سورة العقل بكامل زخمها وعرامها، فإنها تجتاح الكائنات بأسرها، كما يفعل الطوفان، فتقتلع كل شيء ينتصب في دربها، ثم تبدده أو تحيله إلى هباء منثور. ولكن العقل شديد الندرة. ولهذا فإن الحياة البشرية قد تمكنت من البقاء والاستمرار على قيد الوجود.

والإنسان لا يقبل الكينونة ولا يرضى عنها إلا بسبب جمود عقله، أو عطالة ذهنه وفجاجة سجاياه، بل ربما لأنه يؤْثر أيما شيء على الموت أو الانقراض الذي هو الاسم الآخر للعدم. ويبدو أن الإنسان يفضل على الفناء أسوأ حال يمكن له أن يعيشها، باستثناء حفنة صغيرة من الناس تؤلف فصيلة الانتحاريين. ويبدو أن خوفه من التفكير بالانتحار هو الذي يمنعه من أن يفحص حياته التي سوف تتبدي، لدى التمحيص والتفتيش الصارم الدقيق، شيئاً تافهاً لا يستحق أيما احترام. ومن صالح الحياة أن العقل العارم القوي الغزير، والشديد الصلادة، نادر الوجود في هذا الكون الذي يتكافأ فيه مبدأ الصيانة ومبدأ التدمير.

وحين يقال بأنه ما ثمة إلا السخف، فإن المضمر هو أن العقل أكبر من الوجود وليس نسخة عنه، وأن الأشياء صغيرة ولا قيمة لها أمام العقل، ولا تملك أن تسوّغ نفسها في حضرته، بل هي مرفوضة أو منبوذة لأنها تفتقر إلى العقلانية. ولقد أصابت اللغة العربية حين سمته اللب. ويبدو لي أنه ليس لب

الإنسان وحده، بل هو لب الكون كله أعني أنه أنفس ما في الوجود. ومثل الكون، فإنه لا متناه أيضاً.

*   *   *

ها أنا ذا الآن في الشطر الأخير من عمري أدحر أيامي واحداً إثر الآخر. ولقد تلاشت نضارة روحي وجف جسمي وذبل، وصار يابساً كالحطب، ففقدت تأججي وضرام نفسي، وكل ما كان لي من وضاءة ورونق، حتى صرت أُشبه الخشف البالي، على حد عبارة امرئ القيس، الشاعر الجاهلي الذي أحبه كثيراً، بل الذي أحببته منذ طفولتي حتى اليوم.

ولست أبالغ إذا ما زعمت بأن شيخوختي التي بدأت سنة 1996، بمرض ابليسي مرير، أنهكني أيما إنهاك، ولا زال يصلبني حتى الآن، ليست سوى احتضار وحشرجة طويلين أكابدهما على حافة القبر. فقلبي يعص أحياناً في صدري حتى أخاله سوف يتعطل (ليته يفعل)، ولكنه سرعان ما يؤوب إلى ما كان عليه، فكأنه يمازحني أو يهزأ بي، بل يقول: حتى الموت الذي سوف يريحك لن تناله إلا بعد اللتيا والتي. ولكن الموت، هذا السد الصواني الذي ينتصب كالطود الشاهق في وجه الزمن الفردي، لا يخيفني البتة، على الرغم من كلوحه اليرقاني الأصفر المعكور. فأنا اليوم جثمان يتنفس، ولا شيء سوى ذلك تقريباً.

ولعل أهم ما في أمر هذا الخريف الدامس الناشف هو شعوري بأن الأشياء، قد خسرت ازهرارها الغنائي المنعش، حتى لم يعد ثمة شيء له القدرة على النداء أو على الاجتذاب. ويبدو أن القدر والقدرة أخ وأخت، فاللغة العربية تشتقهما من جذر ثلاثي واحد. وهذا يعني أن قدرك هو قدرتك بالضبط. ولكنني أخال أن شباب الجنس البشري بأسره قد صار وراءه تماماً، وأننا نمارس اليوم شيخوخة شاملة تلتهم هذه الدنيا كلها فلا تبقي ولا تذر.

إنني أعيش في مخيم للاجئين الفلسطينيين يشبه المحشر لشدة اكتظاظه بالسكان. ويقع بيتنا في زقاق اسمه شارع الجاعونة، لا يزيد عرضه عن ثلاثة

أمتار أو أربعة، ولكنه مكتظ بالسيارات - فضلاً عن المارة - حتى لكأنه صراط دولي، بل إن الصراط الدولي أقل منه ازدحاماً، ولاسيما في المساء، وذلك لأن الصراط مخصص للسيارات وحدها، أما زقاقنا فمكتظ بالبشر والسيارات معاً، ومائج بالصخب والوسخ من جميع الأصناف. ولا يملك المرء أن يسير فيه إلا بصعوبة قصوى، وذلك بسبب الاكتظاظ الذي قلما يشبهه أي اكتظاظ آخر في الدنيا. ومن المفارقات الحادة أن بيتاً في مكان كهذا هو شيء ثمين جداً. إنه أثمن من فيلا في الريف السويدي. يقيناً، إنني قد أبدلته بعمري.

أجل، إني أتحرك في جوف هذا الزحام الطامس للفروق، أو في هذا الاكتظاظ السديمي الذي يبتلع الجميع في بطنه المتعفن بالأوساخ، فيجعل كل فرد كائناً غفلاً وغريباً عن الآخرين. إنه الازدحام النافي لكل فرق أو فرد (إذ إن الفردية هي الفرقية)، والصانع لكتلة سوداء تجهل التمايز والاختلاف. وفي الحق أن دمشق كلها مدينة مزدحمة بالناس والسيارات، وأن هواءها شديد التلوث وشوارعها لا تخلو من وخم. ولكن ما هو أهم من ذلك أن العلاقات الاجتماعية فيها واهية أو مفككة. أجل، إن دمشق لم تعد دافئة وحنونة مثلما كانت قبل ثلاثين سنة، أو قبل جيل تقريباً.

وتتوالى الأيام باضطراد وكأنما هي تطرد بعضها بعضاً، ولكنها متجانسة إلى حد من شأنه أن يثير السأم وربما الاشمئزاز. ولهذا، أراني أشعر بأنني في جوف اللعنة، بل بأنني مغمس حتى سمت الرأس في حمأة الغوغائية والأمية والجهالة الجهلاء التي لا تُميز بين أي فرد وآخر إلا بناءً على معيارين اثنين: معيار النفوذ ومعيار المال. ولهذا فإنني دائم السعي وراء إجازة تخرجني من هذه الغمة الرابضة على صدري لا تريم.

ففي مذهبي أن قيمة الإنسان تكمن في باطنه أو في داخلة غير المنظور، وليس في صورته الخارجية وبنية جسمه ومساحة ممتلكاته أو نفوذه. فالمرء شعور، أولاً وقبل كل شيء، وتكمن قيمته في نبل ميوله وطهارتها ونفاستها وعمقها. الإنسان شعور وزمان، قبل أن يكون جسماً ونقوداً، أو ما إلى ذلك من محسوسات.

وعندي أن المدينة لا بد لها من أن تكون منحطة حين يكون أديبها مهجوراً ينبذه الناس ويتحاشون الالتقاء به لسبب لا يخفى على الأغفال، ناهيك بالأنباه والأذكياء. ومن شأن هذه الغفلانية التي تغمر الجميع، فتساوي النفيس بالخسيس، أن تمحق الإنسان الحساس في جوف هذا الازدحام الشديد الشبه بالفراغ. إنها تضع جميع الناس على مستوى واحد في فسحة الانحطاط.

فلماذا كانت الدنيا على هذا النحو المقيت، ولم تكن على أي نحو آخر؟ لماذا كانت شنيعة وخبيثة، ولم تكن عذبة وطيبة بحيث يستسيغها روح الإنسان؟ لماذا يتعذب الناس؟ لماذا أتعذب أنا؟ لماذا يتعذب الأطفال؟ لماذا يتعذب الأبرياء؟ لماذا كان هنالك جزارون وطواغيت؟ لماذا وجد هذا الجحيم الجاحم؟ ما جداء هذه المجازر التي تجري يومياً؟ لماذا تشرق الشمس؟ لماذا تدور الأرض؟ ولماذا تسير الأفلاك في مداراتها؟ ففي بعض الأحيان أشعر بأن (اللماذا) ترجني من أعماقي كأنها بركان هائج قادر على أن يدمر الأطواد الراسيات.

ما الجداء من كل ما يجري على الأرض؟ إلى متى سيظل البشر سادرين في غيهم وجهالتهم الرعناء؟ إنني أتألم وأكابد لأن العالم ليس على ما يرام. وإنني أكتب لكي أخلق، أو اختلق، علالة لهذا الاغتراب المرير الذي لا تهزمه، أو تبدده، أية قوة مهما يك نوعها، بل إن كل شيء في هذه الأيام ينشط من أجل تكريسه أو تعزيزه. إنه عالم ينتجه كابوس خرافي كبير.

وكثيراً ما أشعر بأنني لست من هذا الزمن، بل أنتسب إلى زمن قديم قدم الزمان نفسه. لقد خلفني ههنا وارتحل، ولكن بعدما نسيني في هذا الموضع ولم يأخذني معه إلى حيث ذهب. ومنذ عشرات السنين، وأنا أسير على ألف درب ودرب، مدفوعاً بقوة الحنين العارمة، كي أجد ذلك الغائب المفقود الذي لا يحضر بتاتاً، ولكنني لا أعرف سوى الدروب وحدها، الدروب الملتوية كاللولب، والتي لا تفضي إلى أي شيء، ولا إلى أي مكان. فهل تزيد هذه الدنيا عن كونها تسلية وتزجية للوقت؟ وهل يجوز الزعم بأن جميع طاقات الإنسان تندثر سدى وبدداً وبغير جداء أو مردود؟

ويبدو أن هذا الزمن، سداة ولحمة، لا ينسجه شيء سوى المال، وما يستتلي من سلطة ومن قدرة على الاستهلاك. ولهذا، فقد صار الإنسان مبتدأ بلا خبر، بل قل إنه ليس مبتدأ ولا خبراً في آن واحد. وبذلك تتخثر الذات وينتصر اللاشخصي ويترسخ، ويتشيأ كل فرد ويتجوف ويصير كائناً فراغياً لا يحمل أي محمول أو مدلول. فما هذا الإبليس الذي يسمى المال، والذي ((لا تقاومه حتى عظام القديسين))، على حد قول أحد الغربيين؟

لقد مررت بالقرب من الحياة، كمن سار على درب تحاذي بستاناً يحشد من الشجر أصنافاً لا حصر لها، وكلها مثقلة بالجنى، ولكنني لم أذق من ثمارها سوى حبيبات لا تقيم الصلب. فكل شيء مسيّج بالحظر ومسوّر بالتحريم، ومحروس بحراس لا يحصى لهم عدد، أما رصانتهم فرصاصية، ولهم من التراص ما لا يعنو لأي اختراق. ولهذا فإنني كثيراً ما أطرح هذا السؤال: أين يمكن للجحيم أن يكون إذا لم يكن قارّاً، بل منداحاً، في جوفي حصراً؟ وهذا سؤال يستتلي سؤالاً آخر: لماذا، أو من أجل ماذا؟

ذات مرة، قالت الكاتبة الانكليزية جورج إليوت إنها لم تشبع من الموسيقى. وأما أنا فأسأل نفسي هذا السؤال: هل شبعت من شيء، بل من أي شيء؟

* * *

ومما يجدر بي أن أذكرهُ في هذا السياق أن شبكة عيني اليمنى قد أصابها عطب بليغ، وذلك بسبب التحديق الطويل في الكتب خلال السنوات الستين الأخيرة. وهذا الأمر اكتشفته في شهر تموز سنة 2006. فمع ابتداء الصدام بين لبنان والغيتو الصهيوني في الثاني عشر من الشهر نفسه لاحظت أنني عاجز عن قراءة معظم ما يكتب على شاشة التلفزيون، وصرت حين أغلق عيني اليسرى وأنظر إلى الأشياء أراها وكأنها مغلفة بالضباب الكثيف. وذهبت إلى أحد أطباء العيون ففحصني وأبلغني بأن شبكة العين اليمنى مصابة بإصابة

بالغة. ولكي يحسم الأمر تماماً طلب صورة للعين، فأحضرتها له فأكد لي صحة التشخيص السالف.

ولهذا، أقلعت عن القراءة، ولاسيما عن تناول الجرعة الفلسفية التي اعتدت أن أمضغها كل صباح منذ سنة 1965، ما لم أكن خارج البيت. ولكم آلمني ذلك الانفكاك عن الكتاب الذي صاحبني طوال عشرات السنين. ولكم حزنت لأنني خسرت إحدى عيني، ولأن عيني الثانية مرشحة للمصير نفسه هي الأُخرى، وكذلك لأنها مصابة بخراب ليس باليسير.

ثم إنني أنزلق باتجاه الهاوية درجة إثر درجة. إن جسدي قد وهن وأخذ يهزل ببطء ويعود إلى القضافة التي كانت صفته الأولى يوم كنت طفلاً ويافعاً وفي صدر الشباب. ولا مبالغة في الزعم بأنني اليوم كومة من حطام. وأشعر بأن الموت يقضمني متمهلاً غير عجلان. ويصدق عليّ قول أبي نواس:

دبّ فيّ الفناء سفلاً وعلوا وأراني أموت عضواً فعضوا

ولكنني لست منزعجاً البتة من هذه الحال، فأنا منذ عشرات السنين أنادي الموت قائلاً:

يا موت، يا صديقي، هلم لتنقذني من هذا الكابوس الشامل المقيت

* * *

في هذا الفصل الرابع بذلت شيئاً من الجهد لأعرض محتويات نفسي. حللت مشاعري ورعوشي، ومارست البوح الصريح، واتبعت النهج الذي يسمونه تيار التداعي، وهو ما يتدفق عادة بحرية وعلى نحو جهري مكشوف، وإن كان قد جاء في هذا المقام ليحتل منزلة وسطى بين التخارج التلقائي والتفكير المنبثق من الحساسية، وليس من التذهن الصارم الدقيق.

الفصل الخامس
الغوطة

اعتدت في غابر الأيام على التجول العشوائي في شوارع دمشق، ولاسيما القديمة منها، حيث تصان أشباح الماضي ورفاته وصوره السديمية الآيلة إلى الخمود أو إلى الامحاء والفناء، طال الزمن أم قصر. ولكنني كنت أفعل ذلك دون أيه غاية واضحة، اللهم إلا استجابة لنداء الحرية، أو للرغبة في الاستجمام وإطلاق سراح النفس، أو منحها إجازة من الرتوب الذي يفل قوة الروح ويثلّمها، بل ربما من أجل الانفتاح على المجهول وإشباع الحاجة إلى معرفة هذه الدنيا قبل الرحيل عنها.

وقد تكون غايتي أن أتجاوز عقم المياومة وأن أنفلت من الضيق بهذا الإقفرار الشاغر العريان الذي لا يكتظ بشيء سوى اللاشيء وحده، ويلوح لي أن الدافع الذي كان يحركني ويحثني على السفر إلى أقطار نائية كنجم العيَّوق هو أن الإنسان حنين لا إشباع له بتاتاً وسلسلة من الأشواق بغير نهاية حتى أبد الآبدين. فهو كائن مزود بميول استطلاعية لا حد لها قط. هذا فضلاً عن قناعتي بأن السفر نزهة، وكل نزهة نزاهة، وكل نزاهة أخلاق.

ولكنني كثيراً ما كنت أتجول في الغوطة الغنّاء حيث غرس مخيمنا، أو المكان الذي أنفقت فيه جل سنوات عمري. فهي تحيط به من ثلاث جهات، وذلك يوم كان تجمعاً سكانياً صغيراً ودافئاً ومترعاً بالأنس والوداد. ولقد ظل كذلك حتى اندلعت فورة النفط قبل انتصاف السبعينيات. فكنت أخرج في معظم الأحيان، ولاسيما خلال شهر نيسان اليانع الغضير، يوم تلبس الغوطة بزتها السندسية الأنيقة، لأبحث بين أحضان هذا الفردوس الأرضي عن أماكن ناعسة لا يسكنها شيء سوى السكون نفسه.

فلقد كانت هنالك سكينة تشبه السكينة التي تأهل الظلال في لوحات رامبرانت، وتلهم المرء صفاء قيثارياً بريئاً مثل ذلك الصفاء التقويّ الذي يراه المرء في لوحات فرمر الشبيهة بالكشف والإلهام. ولا غلو إذا ما صرحت بأن الغوطة كان يسكنها وحي صاعق في بعض الهنيهات، ولاسيما في برهة

الغروب الشفقية، أو في الساعة التي تسبق غياب الشمس مباشرة، والتي لا وظيفة لها سوى أن تنشد المدائح لله، وذلك بسبب إسرافها في الورع والنقاء. أجل، إن ساعة الأصيل في الغوطة يومئذ خير من ألف ساعة في أي مكان آخر.

وحين أجد السكينة الساجية، كنت أستلقي على الحشيش اليانع وأرخي العنان للأوهام والأخيلة وأحلام اليقظة من كل فصيلة ونوع. ولكنني كثيراً ما كنت أوغل بعيداً صوب الشرق، أو نحو الجنوب الشرقي حتى مزار السيدة زينب، فأهيم على وجهي شريداً أو كالشريد، ليس لي أي قصد محدد، إذ لم تكن غايتي سوى إشباع فضول يهمزني، في بعض الأحيان، لأعرف ما هنالك خلف أي أفق، أو سوى تلبية الرغبة في التمتع بمشهد الحياة الفياضة المتدفقة المعطاء، حتى لكأن هدفي هو الولوج في المجهول أو في اللامهفوم.

وفي بعض الأحيان كنت أهيم على وجهي بين الأشجار الباسقة الباذخة، مكنوفاً الاخضلال اليانع والسكينة النعوس. فأتجول كأنني ألوب على سر مكتوم تدخره الطبيعة وتأبى أن تبوح به على أي نحو من الأنحاء، ولو أنها فعلت لتخلخلت الأشياء وتصدعت، بل لتزلزلت أعمدة الكون وتهدمت جدران الوجود، وتصادمت الكواكب وارتطمت بعضها ببعض حتى تدخل في الفوضى المطلقة.

فمما يعلمه من مارس مثل هذه التجربة، أعني التجول وحيداً بين الغابات أو بين البساتين الشبيهة بالأدغال، أنها توحي للنفس بألف شعور وشعور وتحرض أسئلة تختلط فيها الغبطة والنشوة بالقلق والاضطراب. ولكنني في بعض الأحيان كنت أنكر وجود السر وأرتاب فيه، وذلك عندما أؤكد لنفسي أن المرئيات كلها تتلخص بماهيتين اثنتين وحسب: المادة والفراغ، اللذين يمثلان الوجود والعدم.

فلعله أمر ممتع أن تفتح نفسك على الاحتمال، على الصدفة أو المفاجأة، أو على كل ما هو مضمر أو ممكن.

*   *   *

ولما كانت الغوطة لا تعنو للاختراق سيراً على الأقدام حتى نهايتها القصوى، فإن النتيجة، بعد أن أجوس خلالها حتى الإنهاك، هي صورة تترسخ في ذهني عن شيء ظافر ينداح ويندلح إلى ما لانهاية. والأهم من ذلك أنني في تلك البرهة الربيعية المنفلتة من سأم الرتوب، أرى كل شيء يبتسم ويبتهج، فأحسب أنه قد شرب سلافاً ليس من هذا العالم. فما من شجرة ولا نبتة في الغوطة يومئذ إلا وهي تجسيد للأنس الذي يفتقر إليه الزمن المعاصر المتشقق المسكين. فياله من زمن مكسوف، بل مخسوف!

وحين كنت أجوب تلك الفراديس المونقة، في تلك الأيام، لأعب من جمالها وأنتشي بنضارة يخضورها وحسن رونقها وبهائها، بعدما يمتص الوجدان الكثير من صورها ويستمتع بظلالها الكثيفة الوارفة، أشعر كأنني أعوذ بمقْدس الطبيعة من هذا الحصار الذي تفرضه ضحالة التجربة اليومية ولزوجتها وخلوها من أية نكهة لذيذة أو منعشة، إلا لماماً وحسب.

وكثيراً ما كنت أفكر بالبودا إذ يجوب الغابات وهو يلوب على الحقيقة، أو ينشد شيئاً سرياً لا تبلغ إليه النفس إلا بعد لأي. وفي برهة مثل تلك البرهة لا يحترم المرء أية شراهة سوى شراهة النزعة الرامية إلى الاتصال بأعماق الكينونة، بحيث تتبدى الأشياء وكأنها مجذرة في السرمدية التي لا تحول ولا تزول.

ومن سمات الغوطة في تلك الأيام أنها تبادلك فرحاً بفرح، إن كنت مبتهجاً، وتهدئ روعك، إن كنت مغموماً أو بك شيء من الاكتئاب. ويبدو أن المرء يحتاج إلى إجازة من اللعنة، بين الفينة والأخرى، ولو لسويعة واحدة يستجم خلالها وينجو من الإرهاق والتوتر المنهك، وذلك ابتغاء تجديد طاقته قبل أن يكدن تحت النير مرة أخرى.

وههنا، بين أحضان هذا الفردوس الأرضي المغطى بالظلال والاخضلال، أو في وسط بحر من الزمرد الأخضر الخلاب ذي اللغة الأثيرية الحنون، كان يمكن للمرء أن ينعم بالسكينة الهنيئة الملساء، أو يستمتع بالنسيم العليل ولغط الطيور أو ألحانها الشبيهة بلغو الأطفال حين يأنسون بأحضان أمهاتهم. حقاً إن شقشقة العصافير الرخيمة مفعمة بنشوة تبذ نشوة النبيذ المعتق.

فلقد كان في الميسور، أحياناً، أن يشاهد المرء جيشاً لجباً من العصافير أو الشحارير، أو طيور السمان، يحط على شجرة واحدة شامخة باذخة ويُفعم الجو بنشيده الخلاب.

ولقد كانت أطيار الغوطة، كأزهارها وأشجارها، متنوعة جداً بحيث يعسر على المرء أن يعدد أصنافها كلها. كما كان فيها بعض الجداول العذبة التي تنبع من أرضها حصراً. وكان واحد من تلك الجداول يحاذي شارع اليرموك من جهته الغربية، واسمه المشرع، واعتدنا على أن نسبح فيه بين أيار وتشرين الأول كل سنة قبل أن تبتلعه حركة البناء، فاختفى ولم يعد يرى بتاتاً. ومن شأن هذه الوفرة الجمالية كلها أن تنتج الشعور بالدهشة أو بالروعة، وهو شعور لا ينتجه إلا الاخضرار الزمردي البهي القادر على إقناع النفس بأن الحياة واقعة نفيسة لذيذة، على الرغم من جميع مثالبها وأوجاعها.

وكثيراً ما يصادف المتجول في تلك الأيام مرجاً من السندس الأخضر توشيه زهور متعددة الأصباغ، وتزخرفه نباتات متباينة تضيف التنوع إلى لوحته الخلابة، فتلونها بشتى الألوان والأصباغ، وبذلك يتكامل المشهد بالروعة والفتون. ومما يزيد في القدرة على الخلب أن النبات قد كان يتبدى ريانا بديعاً ذا ألوان زاهية من شأنها أن تفتح مسام النفس. فبالإضافة إلى اللون الأخضر الداكن والفاتح، ثمة ألوان أُخرى، أولها الأبيض ثم الأصفر والأحمر.

فما كانت الغوطة إلا انجازاً كبيراً من أجل السعادة وهدأة البال، وإلا هبة نفيسة أو نعمة أنعمت بها العناية على البشر كي يذوقوا طعم الهناء. ولكن النبيه لن يفوته أن يلاحظ الجهد الذي بذلته الأيدي البشرية، أو قوة العمل المتحمس النشيط الدؤوب، لكي تصير هذه الجنة الزمنية إلى ما صارت إليه في تلك الأيام الرغيدة العذراء. وإلا كيف جاءت إلى الوجود هاتيك الخمائل الملتفة وأشجار الجوز العملاقة الشبيهة بالأيك والأدواح؟

ولشدة اخضرار العشب في الربيع، حينما تأخذ شآبيب النور في التدفق والفيضان، قد يشعر المرء وكأن النبات يتألف من النسغ وحده، أو هو بغير ألياف وأنسجة من شأنها أن تمسك السائل الأخضر المفعم بالحيوية، فيتبدى كما لو أنه يتفور بشهوة الوجود، وكذلك بالرعشات الحالمة الناعمة الندية، بل لعله

أن يتكون من يخضور وقصائد غزلية أترعت بالخصوبة والعذوبة، وذلك لشدة اندفاعه الغزير. وهذا الحلول العارم للحيوية في المملكة النباتية قد يشبه سريان الحقيقة الكلية في جميع الكائنات. وهذه فكرة أصلية تحدثت عنها الصوفية بكثير من الإسهاب.

وبفضل هذه الخصوبة وهذا الزخم الحي، كان الدخول إلى الغوطة أشبه بالانسحاب من عالم الواقع ابتغاء الاتصال بمقْدس الطبيعة أو بحرمها المستور. ولعل من شأن تلك البرهة الأسطورية أن تمنحك إجازة موقتة من ركود المألوف الآسن والمجحف بحق الروح. ويصدق هذا الزعم خاصة يوم رأيتها لأول مرة وأنا في غرارة العمر، أو في ريعانه الباسم الأنيس.

أما يانع الزهر، ولاسيما زهر المشمش واللوز والرمان، فكثيراً ما يكون فورة من فورات الطبيعة السخية المعطاء، وخصوصاً في الربيع، يوم يتأنق كل شيء أو يتأنث ويصير إلى الجمال والبهجة والتفتح على بكارته الخاصة، كما لو أنه غائب يعود من غياب طويل. ولبعض زهور الغوطة يومئذ أريج يتضوع ويفوح فيمنح النفس نشوة من شأنها أن توقظ اشتهاء العشق، أو أي صنف من أصناف الوصال العميق. بل لعل النفس أن تشعر بأنها هي التي تتضوع وتفوح في ذلك الشرط الفردوسي البهيج. فحين تتفتح الأكمام عن زهورها، يشعر المرء بأن سريرته الداخلية هي التي تتفتح وتستعد لاستقبال المؤثرات.

ولا غلو إذا ما زعمت بأن الغوطة بجملتها، في تلك الأيام، تكاد أن تكون فتاة مغناجاً تغازل وتداعب وتوقظ حنيناً لا يستوعبه إلا الحدسيون أو الاستبصاريون المرهفون وحدهم. فهي يومئذ لوحة رسمها فنان عاشق، فلا مقرب يفضي إليها سوى مقرب البصيرة، وذلك إذا ما أراد المرء أن يذوقها على خير وجه ممكن. فمع أن تلك الآونة كانت أسعد الأيام، فقد كنا نتطلع إلى المستقبل على أنه الزمن السعيد. وحين جاء المستقبل الفارغ صفر اليدين، تبين لنا أن السعادة قد ولت من الأرض إلى غير رجعة على المدى المنظور.

فياله من مشهد فتان لم يخلق إلا ليكون تحفة غايتها أن ترفه عن النفس، وأن تسري عن مقلة العين الداخلية، وأن تنعش الروح وتزوده برعشة الهناء والفرح، وذلك لأن جرعة من المسرة تلج بواسطته إلى الباطن، ولاسيما بعدما

يتشرب الصورة الوسيمة ويتمثلها حتى درجة الالتحام. إنها جرعة وجدانية لذيذة قد لا تبذها أية جرعة أخرى، بل قد لا يضاهيها أيما شيء من هذا القبيل. وههنا يملك المرء أن يستوعب أمجاد المباشر والبسيط، أو ما أعطي للروح بالمجان، وعلى نحو فوري.

وكثيراً ما اعتقدت بأن الغوطة، ولا سيما حين ترتدي حللاً خضراً في الربيع، أو حصراً في نيسان اليانع المبهاج، ليست بستاناً كبيراً فقط، بل ليست جنة على الأرض وحسب، وإنما هي فكرة من أفكار الطبيعة، أو قصيدة نظمتها بلغتها الخاصة، أو لعلها رؤيا من رؤى روح كلية تنتشر في الكون بأسره. وربما جاز الزعم أو التخيل بأنها صورة خرجت من فؤاد عاشق متيم ولهان، وذلك لأن الجمال لا يكون إلا حيثما كان العشق. وكثيراً ما شعرت بأن كل شجرة من أشجارها ليس لها أي وجود عيني أو خارجي، بل هي صورة خيالية يتأجج ألقها داخل روحي وحدها، حتى كأنني حامل لمحمول واحد هو الطبيعة وما تدخره من أسرار ومستورات تبثها على مرأى من الذات.

لقد كانت الغوطة قبل خرابها بُضعة مني وأنا بُضعة منها، أو لعلني كنت أشعر بهذا الشعور فأظنه الحقيقة، وذلك لشدة حضوره في فؤادي وصميم روحي. ويبدو أن للخارج سلطة غرامية وأخرى استبدادية على الوجدان، وخاصة إذا ما كان الباطن ناجياً من العكر والهموم. وربما جاز القول بأن النفس قلما تكون جميلة إلا في حضرة الجميل حصراً.

فلكم كنت أستمتع حين أستلقي في ظل دوحة هفهاف، وأسترخي تمام الاسترخاء، ثم أطلق العنان لنزوات خيالي كي تنثال وتترادف، وترتاد المجاهيل، وتستقصي النائيات، وتغوص في لجج اللامألوف، وتجوس خلال كل صقع من أصقاع مملكة الوهم، وتظل كذلك حتى تمل من تدفقها الغزير، فتكف عن سيولتها وتتلاشى كي يؤوب الذهن إلى الواقع الفارغ من جديد. بعدما أسرف في الاستجمام داخل فراديس الأحلام والأوهام. وبما أن ذلك الاستجمام غاية في ذاته، إذ هو إجازة من اللعنة، لأنه إحياء وقدرة على تجديد الأنا، فإن كل ما يكبت الرؤيا أو يكبحها هو شيء بائس مرفوض. فما أعذب ذلك التماسّ الدافئ بالمغيّب، وبالمخبوء المستقر وراء المرئيات. وبسبب هذا النشاط الذاتي

الدينامي لا تظل العزلة أمراً سلبياً مرذولاً، وإنما تصير شأناً خيّراً لذيذاً منعشاً يؤسس لانبعاث مجيد، وذلك لأن العزلة تلبي للنفس حاجات كلها عذوبة وفتون. ويبدو أن الذات تحتاج إلى ولادة تتجدد على الدوام. فإما أن تستولد روحك يومياً، وإما أن تكابد التأسّن في عالم متأسن بليد.

فكثيراً ما كنت أجدني في مثل تلك البرهة وأنا أجزم بأن الإنسان لا يتيسر له أن يكون حراً إلا حين ينشط وهمه أو خياله وأحلامه فقط، وبأن الحنين هو أكثر قوى الإنسان توقداً أو توهجاً وقدرة على تحريض الذات أو تحريكها. ولهذا فإنه، كالحب والحرارة والحركة، يبدأ بحرف الحاء الذي هو حرف الحياة بشمولها واتساعها. ولعل في الجواز أن يقال بأن الحب لون من ألوان الحنين الذي يتلخص جوهره برغبة الذات في الاندلاع من الداخل إلى الخارج، إذ لا امتلاء لها ولا اكتفاء إلا إذا التحمت بالموائم المنشود.

* * *

وكان في ميسور الروح يومئذ، ولاسيما قبل مناوشة حزيران المفاجئة ذات النتائج المريعة التي وضّحت حقيقتنا أمام أعيننا (إذ كانت بمثابة رسالة لكل عربي عاقل مفادها أن العالم العربي بأسره ليس سوى شطر من مقتنيات اليهود). كان في ميسور الروح أن تذوق بكارة الدنيا ونكهتها الطيبة، وأن تشعر بأن لا كبير فرق بين الحلم والحقيقة، أو بين الخيال والواقع، وخاصة في طور ازهرار الشجر خلال آذار ونيسان، يوم كانت الغوطة لوحة طبيعية فاتنة، قبل أن يتواطأ عليها البناء والجفاف معاً. ومما قد لا يجهله الخبير بها أنها تمنح النفس فرصة ممتازة لتفاعل الحواس والوجدان والخيال ابتغاء انجاز الشعور بالمتعة الجمالية المنعشة.

وربما جاز لي أن أزعم بأن الحساسين المرهفين هم أقدر الناس على استيعاء فتون الغوطة ونبض فؤادها الخفاق، بل حتى على تذوق جميع أصناف الجمال، ولاسيما جمال الطبيعة وأسرارها التي لا تستسلم إلا لقوة الحساسية والاستبصار اللذين يستطيع كل منهما أن يتواصل مع المستورات بأصالة، أو

أن يرى اللامرئي ويسمع اللامسموع. ولهذا فإن الحساس يشاهد في كل نبتة قلباً ينبض فيحرك دورة الأنساغ الهانئة السعيدة. وعندي أن نظرة الحدسيين من ذوي البصيرة هي شيء ينتسب إلى فصيلة الكشف والإلهام، أو لعلها من جنس الرؤى الذوقية المصروفة عن غير المختارين من أهل الأذواق. ولهذا، فإنني كثيراً ما رأيت الغوطة بوصفها رمزاً، تماماً بقدر ما هي واقعة بصرية. وربما جاز لي أن أزعم بأن الرمز رسالة تخاطب جملة الإنسان ولا تتوقف عند وعيه أو قواه الإدراكية.

فإذا ما أقبل شهر شباط، وأزهر اللوز الذي من شأنه أن يفتح مهرجان الطبيعة، فإنه يزف البشرى إلى الناس بأن أيام البرد الشديد قد ولت، وبأن الربيع يدق الأبواب لتعبر البهجة إلى سويداء كل فؤاد أو كل نفس. ثم تندلق الحيوية وتنتشر حتى تغمر الغوطة كلها، فيخال المرء أن الروح، بل السر، قد عاد إلى الدنيا بعد غياب طويل.

والغوطة أثناء الربيع وأوائل الصيف، أو بين أواسط آذار وأواخر حزيران، أي حين تسرف في التأنق والتأنث، خلال تلك الأيام البكر، هي قصيدة أو أغنية مترعة بالحب والقدرة على الإحياء. ولهذا، فإن الحساس يعشقها كما لو أنها امرأة فتية وسيمة مبهاج. فكل ما فيها يومئذ يوحي بأن السماء والأرض تحتفلان معاً بعيد من أعياد الطبيعة المدهشة.

وكثيراً ما كنت أتخيل عندئذ أنها فورة دافقة تفرزها روح كلية عظمى ليس الكون بأسره سوى تجليها الحي الفاتن الشفاف. ولهذا، قد يشعر المتجول المفتون بسحرها الخلاب أن لها جاذبية تشبه جاذبية الخير نفسه. فهي أغنية تستنفر العنصر الرومانسي لتحيله إلى واقعة من أجل الحواس، ولاسيما من أجل العين التي هي ينبوع التجربة البشرية كلها. وهذا يعني أن القيمة إما أن تكون ذوقية أو روحية، وإما ألا تكون بتاتاً. ولكن الأمر يختلف في الخريف كثيراً، إذ إن العذوبة تخمد أو تهمد، ويصير لونها رمادياً موحشاً، بل يصير كئيباً بعض الشيء، ولاسيما في تشرين الثاني الذي هو شهر حزين، من جهة، وصوفي أو غموضي، من جهة أخرى. وما هو بصوفي إلا لأنه شهر الاستسرار بامتياز.

*　*　*

ههنا في الغوطة، وفي الماضي القريب، كان كل شيء موشى، كل شيء كان مزخرفاً أو مزوقاً، على نحو طبيعي أو تلقائي، بل إن الأشياء يزين بعضها بعضاً، أو هي تتآزر لتصنع زينة وحسناً أو رونقاً هو الفتنة نفسها. حتى الفضاء يوشيه اصطفاق أجنحة الطيور ويزخرفه صداحها الرائع البهيج، ولاسيما في مطالع الصيف يوم يهب النسيم الغربي رهواً وناعماً كالحرير، أو كالمخمل الأملس الطري. فيا لتلك الرصانة المنغومة التي تزركش المكان وتجعله من أجل الأذن بعد ما كان من أجل العين. ولهذا، قد يشعر المرء، حين يكون في الغوطة، بأنه محاط بالخير والجمال من جميع الجهات، ويدرك لماذا صرّح الأقدمون، أو بعضهم، بأنه ما ثمة إلا الخير وحده، وبأن الشر عرض زائل أو طارئ على الوجود وليس من أصله الرفيع. إنها تحفة أتحفنا بها نهر بردى منذ آلاف السنين.

ولعل في ميسور أي فنان حساس من تلك الحقبة الربيعية الغابرة أن يلاحظ ملاحظة مؤداها أن للغوطة لغة هادئة ناعمة تشبه لهجة فتاة دمشقية وسيمة مبهاج، ولكنها خفرة أو حيية في الوقت نفسه. فالغوطة تخاطبك بصوت رخيم له رنين فضي لا يختلف البتة عن تغريد القبرات. فهي تحدثك بكلمات أرشق من النسيم وأخف من الأثير الخالي من كل شيء إلا من العذوبة وخفة الروح. ولكنها لا تكتفي بالخطاب الصريح بل تعمد إلى الإيماء والتلميح، أو إلى لغة الإشارة التي تغني عن العبارة.

إنها جنة أنتجها نهر بردى فجعلها واحة خضراء في وسط قفر يابس، وذلك بعد ما تفرع إلى سبعة أنهر، ولكنه تقلص كثيراً بسبب الجفاف في هذه الأيام. وهذا يعني أن الغوطة تنطوي على هزيمة منكرة ألحقها الماء بالصحراء والتصحر، هزيمة للموت ونصر للحياة والجمال وشباب الدنيا. فلئن كانت مصر هبة النيل، كما قال هرودت، فإن الغوطة ودمشق معاً هما هبة بردى، بكل تأكيد. ولعل أهم ما في أمر دمشق أنها كانت دافئة وحنوناً فيما مضى من

الزمان، وتحضن الغريب كما تحضن الأم الرؤوم طفلها الصغير الفطيم. ولكنها لم تعد كذلك منذ ربع قرن على الأقل. وعندي أن من لم يعرف تلك المدينة قبل سنة 1960 ,يوم حدثت تغيرات جذرية على بنية المجتمع، قد فاته خير كثير.

وفي برهة لذيذة مثل تلك البرهة العذراء، أعني لحظة الاتصال بالغوطة، أو الانغماس في الغبطة وبكارة الدنيا حتى سمت الرأس، بل في غبطة تشبه الثمل أو الخدر النشوان، لا بد لك من أن تنال حيوية أو نضارة وجدانية لها القدرة على أن تحول بينك وبين الرضوخ لأي هم أو غم أو عكورة. فالكآبة لا محل لها في الفراديس بتاتاً. وليس أمامك حين تجوب الغوطة وحيداً، مثل طائر فرد يمخر عباب الفضاء، إلا أن تستمتع بلذائذ الطبيعة ومسراتها، وإلا أن تشاطرها حياتها الثرية المعطاء.

وفي ساعة كهذه، كنت أشعر، لا بالحرية وحسب، بل بأنني أنا الحرية نفسها، الحرية خالصة جاسمة مرئية بالعين المجردة، حتى لكأنني تخلصت من الوزن والثقل وصرت رشيقاً مثل حركة النسيم الحر المنتشر في الفضاء دون أية عقبات أو حواجز تحول بينه وبين المدى المطلول من الأفق إلى الأفق. يا إلهي! كان قلبي مع كل شجرة من أشجارها، ومع كل عشبة من أعشابها المخضلة الخضراء. فأين ولت تلك الدنيا الغريرة الأنيسة الهيفاء؟ يا إلهي الطيب! لماذا تفر اللحظة الأنيقة وتتلاشى بسرعة؟ ولماذا تكثر ساعات الضجر وتقل ساعات السرور في هذه الحياة التي خسرت عذوبتها بعد ما فار النفط وتضخمت الأموال؟

*   *   *

ولقد شاهدت العندليب مراراً في غوطة دمشق، وسمعته يغرد ويترنم بصوت يشبه لغو الأطفال من أهل الترف والرخاء. وكان ذلك قبل انتهاء عقد الستينيات، أي قبل أن يتمكن البناء من التهام رقعة واسعة من الغوطة أو من بساتينها اليانعة الفيحاء. وسمعت صوته المرتّل المنغوم، الذي يملك أن يأسر الروح فيلهي المرء عن كل شيء. ولكنني ما رأيته بعد ذلك قط. ويا طالما

بحثت عنه ونقبت وحاولت أن أراه مرة أخرى، ولاسيما خلال شهر نوار الذي ألف الظهور فيه أمام الأنظار، بل أمام بصري، يوم كنت لم أزل في ريق العمر ونشوته البكر، أو في مرحلة هيفاء عذراء يسكر المرء أثناءها بصباه وسلاسة أحلامه ورؤاه. إنها مرحلة الريعان أو بكارة البداية التي تتلاشى قبل سواها من عناصر البهجة والسعادة والهناء. وماذا يتبقى للمرء بعد أن ينفذ الريعان أو يزول؟

ومما هو صادق تماماً أن سخام السيارات، أو النفط المقيت، استطاع أن يطرد العنادل والقبرات من غوطة دمشق، بل أن يطرد كل ما هو جميل وأنيق حتى لكأنه قد طرد الديمومة نفسها وأحرز نصراً مؤزراً على السرمدية. ومما يعز علي، بل يحز في نفسي، أن كل ما هو من شيعة الفرح أو سلالة النفاسة والفتون محتوم عليه أن يسحق ويمحق في هذا الزمن الغوغائي الشبيه بجلد الأجرب. نعم، لقد كانت القبرات تشدو بفرح وسعادة في غوطة دمشق، أما اليوم فقد طردها السم الزعاف، نفاها إلى البراري والقفار حيث لا زرع ولا ماء ولا ما يقيم الأوَد.

وفي صلب الحق أن اجتثاث الغوطة أو تخريبها هو عمل إجرامي لا يضارعه شيء سوى تجفيف الأساطير التي لا حياة على الأصالة من دونها بتاتاً. وكثيراً ما يبدو لي أن الحضارة الحديثة، الإرهابية والغوغائية معاً، هي ألد أعداء الجمال والخير والحياة. وهي من المكروه الخبث بحيث توهم الناس بأنها تقدم لهم الترف والرفاه حين تهرس العذوبة بأقدامها الفولاذية الساحقة. ومما لا يخفى على أهل الحساسية المرهفين أن رحمها المعدني – بخلاف رحم الطبيعة اللدن - لا يملك أن ينجب إلا القسوة والشراسة والبذاء، أو قلة الشرف والحياء. ترى هل ستظل البشرية عرضة لمزيد من التآكل، سنة إثر أُخرى؟

ومما هو لا فت للانتباه أن يتزامن تقلص الغوطة وانحسار رقعتها، وانكماش كيفيتها أو انقباضها، مع افتحال القلق والعصاب الحديثين، ومع انتشار الأمراض، ولاسيما الإيدز والسرطان وآفات القلب، وذلك إثر فورة النفط التي ما جاءت إلا وبالاً على العرب، بل على الجنس البشري بأسره. فلقد صار البحث عن مثل أعلى، أو عن قيمة مركزية كونية جلى، من شأنها أن تصون

طراء الروح وفتاءه، وكذلك نضارة الحياة وعذوبتها، ضرباً من ضروب العبث لا طائل تحته تقريباً. ويبدو أن الغوغائية أو البربرية الحديثة، في احتدامها العارم والمتفاقم سنة بعد أخرى، قد تطرفت كثيراً حتى لم يبق لشاعرية الطبيعة أو سحرها أي مكان يحل فيه. فما عاد هنالك من القيم سوى واحدة: إنها المال أو السم الذي يسمم الحياة الحديثة كلها، ثم يحيلها إلى رماد كئيب. ولن تكون هنالك سعادة ما دام ثمة مال في هذه الدنيا الشائخة المهترئة، أو قل إن وجود السعادة، بل إن وجود الأصالة، يتناسب عكساً مع وجود المال، وذلك على النقيض مما يظن الناس عادة. ومما هو صادق عندي أن الإنسان الأصلي يقل وجوده كلما ازداد المال كثرة أو وفرة. وهذا يعني أن قيمتهُ تزداد هبوطاً كلما أظهرت الوحدة النقدية عجزاً عن الشراء.

ولعل مما هو مثير للاستهجان أنه ما من شاعر منذ الطور الأموي حتى اليوم قد كتب قصيدة جيدة واحدة يغازل بها غوطة دمشق الغناء ذات الشجر الفينان الذي إذا فتّحه الربيع جعل منه فؤاداً فتياً يتفتح للحب والجمال والعيش الهنيء. أجل، لم تظهر الغوطة في الأدب الحديث بوصفها ماهية متميزة أو من طبيعة فردوسية، مع أن لها قدرة نادرة على توجيه الوجدان نحو ينابيع اللغة ومصادرها الغزيرة. ويبدو أن دمشق على فتونها وعراقتها وحميم مناخها، تجهل الشعراء منذ أقدم عصورها حتى اليوم. ولا أدري كيف أفك هذا اللغز المبهم أو المستغلق. أو يعقل ألا يتنبه الشعر ولا النثر، طول مئات السنين لهذا الفردوس الهانئ الرائع الأنيس؟ وهل يملك الشعر أن يكون له أي محتوى مهم إذا لم يتفاعل مع البيئة وعناصرها وأنشطتها الايجابية والسلبية؟

* * *

وعلى أية حال، فإن روحي ما زالت مشوقة إلى تلك الأيام اليانعة المأهولة بالغبطة والطافحة بالأمل والعذوبة وهداة البال، وذلك حينما كنت في فوعة الشباب، أو في ذلك الطور البكر الذي إذا ارتحل أو زال من الوجود زال معه كل شيء، عدا الأشواق والذكريات والأسف والندم، بل الحسرة على كل ما

التهمه الفناء أو قوة الزوال التي لا ينجو من سطوتها أيما شيء، مهما تك رصانته أو درجة مناعته. فمما هو محزن أن لدانة الروح هي التي ترحل أولاً، أو قل إن البكارة ترحل باكراً، وإذا ما رحلت خلفت وراءها الصحراء. نعم، تزول بشاشة الوجه أو رونقه ولما ينتصف العمر بعد، فيتخشب كل شيء، وتصير النفس عاسية مثل الكلأ اليابس، وتستحيل الحياة إلى رتوب لا ينتج في النفس سوى السأم والحنين إلى ما سلف وانقضى منذ سنين وسنين. يا إلهي! إن النفس تصير عانساً هجرها الحب، فراحت تغتذي بالرماد.

وإذ أتذكر اليوم ذلك الزمن اليانع والحنين يفعم روحي أشعر بأن الفؤاد يوشك أن يتفطر، وبأن البراءة ما كانت سوى حلم عاشته البشرية في سالف الدهور ثم انطفأ وتلاشى إلى أجل غير مسمى. فلكم هو محزن ومرير أن تراقب عالماً جميلاً سعيداً يهمد ويزول دون أن تتمكن من أن تصنع أيما شيء يملك أن يؤثر على مجرى الأمور. فما بنيت سيرورة الزمان على مبدأ المطاوعة بتاتاً. ولكم هو محدود هذا الكائن الذي يسمى الإنسان، مع أنه اخترق جدار الجاذبية الأرضية، وصعد إلى الكواكب بغية اكتشافها. لقد فعل ذلك مهموزاً بغريزة الاستطلاع. أنفق أموالاً طائلة لكي يشبع فضوله، ولكنه ترك الملايين من البشر يكابدون الفقر، بل الجوع بالمعنى الحرفي للكلمة.

*   *   *

ولعل في ميسور المرء أن يلاحظ ملاحظة فحواها أن الغوطة لا تهب جمالها للزائر من النظرة الأولى، وذلك على النقيض من جبال لبنان الغربية، أو حتى جبال الساحل السوري الخلابة، ولاسيما شطرها الشمالي، حيث يمارس الفتون سحره من النظرة الأولى. ولكن الغوطة ليست على عجلة من أمرها، فهي تمهلك وتقاربك بأناة، فلا تسلمك روعتها، أو أناقتها على نحو فوري، بل هي تملي عليك أن تنمي عشقك لها بالتدريج. وبعد ذلك تميط اللثام عن ثغرها العذب، فتكشف لك عن كنوزها الجمالية الباهرة، أو عن حسنها المأهول بهناء صرف له قدرة على أن يكنس كل شعور بالبؤس والشقاء ويطرده من جوف

النفس، ولكن شريطة أن تكون قد خرجت إليها لتنشد الجمال وترصد البهجة بين ربوعها وعن سابق وعي بما تريد.

ومما هو بديهي أن تنوع أشجارها ونباتاتها لهو أمر من شأنه أن يسهم في تأثيل جمالها وجاذبيتها، وأن يزيد من قدرتها على الخلب، وذلك لأن التنوع يكافح السأم ويحول بينه وبين العبث بالنفس أو بمحتوياتها الطيبة الزاكية. فما من شي يلجم النفس ويشكم سورتها ويثلم حيويتها كما يفعل الرتوب.

ولئن كانت الغوطة لا تزيح النقاب عن وجهها إلا بتؤدة، ولا تناول كنوزها لأحد إلا على دفعات، بحيث تزداد تمتعاً بحسنها كلما ازداد نظرك إليها وتأملك لتفاصيلها، لئن كان الأمر كذلك فإنها لا تهب مسرتها للناس على قدم المساواة. فكل يتمتع بجمالها على قدر ما فيه من أصالة ونقاء، وكذلك من قوة الحساسية ونضج الذائقة، أو من قدرة على الاتصال بالأشياء في الصميم. ومع ذلك، فإن كل من زار الغوطة له حصة من رونقها الخلاب، يتمتع بها حتى ولو كان أمياً بغواً يجهل كل ذوق أو إحساس. وعندي أن هذه هي سمة الفنون الشرقية بأسرها. فهي مصممّة وفقاً لمبدأ فحواه أن كل امرئ لا يأخذ من فحواها إلا على قدر نفسه وحسب.

الفصل السادس
أمل

لست أحن إلى كائن من كائنات الماضي والحاضر، في هذه الأيام، بمقدار ما أحن إلى أمل، وهي التي ما خلقت إلا لتكون عزاء لي في هذا العالم الخالي من أي عزاء. كانت من الخارج ماسة مكسوّة بالرونق والزّهاء، أو هي صافية كالماس دون سواه من الأشياء التي أنجبها النور. وليس من قبيل الصدفة أنها كثيراً ما كانت تذكر ذلك الحجر الكريم بوصفه رمزاً للصفاء والبراءة ونظافة الوجدان. وأما من الداخل فهي ياقوتة، أو تتضرم كالياقوت. وما برحت تخطر في بالي فتية يانعة كالنعنع البري، بل أجمل من بزوغ البدر في مساء هانئ رغيد، ولسوف تظل في ذاكرتي فتاة من شيعة النور، أو من سلالة الألطاف الحسنى التي هي المطلب النهائي لروح الإنسان.

قبل أن أصادفها، كنت أحسب أن المرأة التي أستطيع أن أتوله بها متعذرة الوجود. وحينما التقيتها وشغفتني حباً آمنت بأن المثال يملك أن يتحول إلى عيان منظور، أو أن يصير جسماً أعطي للحواس. وبعد ما رحلت وأدركت مدى الفاقة التي يتردى فيها الواقع، صرت اكتفي بالأخيلة وحدها، أتخذها قوتاً لروحي الموله الملهوف بعد الخسران المبين. فيا للحنين الحارق المنهوم، ويا للأشواق التي لا تلبية لها آخر الدهر. يقيناً، إن اللهفة هي أس القيمة وجذرها وينبوعها ومن دون اللهفة فلا قيمة على الأصالة لأي شيء مهما يك نوعه.

وكنت حين التقيها، أرى البشر يطفح من وجهها ويفيض، بل أشعر بأنها تجسيد للأسطورة التي هي أصدق من الحقيقة وأمتع، والتي من شأنها أن تصون بكارة العالم دوماً، حتى لكأنها نافذة تطل على الأزلية. وعندي أن هذا التناسم مع الوسيم هو السعادة نفسها، أو الغبطة التي لا تطالها اللغة، بل يقصر عن مداها كل شكل من أشكال التعبير، أو قل إنه البرهة الجوهرية التي لا مذاق للعمر من دونها قط، والتي لولاها لصار العمر صدنفاً من أصناف الاعتلاف بالتبن والزؤان. وكل من لم يعش ذلك التناسم المنعش لا يعرف لباب الحياة ولا خبرة له بسرها المصون عن غير المرهفين. إنها النهلة العسلية التي لا يذوقها المرء طوال حياته إلا لماماً، حتى وإن عاش مائة سنة. أما إذا ما ذاقها فعلاً،

فإنـه يكـون مثل مـن تنـاول رشـفة مـن النكتـار، أو مـن شـراب الآلهـة المتـرنم النشـوان. ونظـراً لأن لـذتها عظيمـة، ولاسـيما يـوم يقطفهـا المـرء فـي طـوره الصبوي، فإنها تكاد أن تكون اللقمة التي تكفي زوادة للعمر كله.

لكـم هـي سـعيدة تلـك اللحظـة الشـبيهة بقـوس قـزح ينتصـب فـي أجـواز الفضاء، فأعب البهجة من أنس الفتاة وبشرها ودماثتها ورخامـة صـوتها الشـبيه بزقزقة العصافير وتغريد القبرات. فمن المسلّمات أن مشاهدة أمل من طبعهـا أن تولج الدفء والمسرة إلى سويداء النفس وعقر السـريرة، وعلـى نحـو تلقـائي أو فوري. وبسبب زخم حضورها وقوة تأثيرها، ولأنني لم أكن أُصدق أنها معـي، فإنني كثيراً ما كنت أشعر بأنها تشبه الزمن الذي هو موجود وغير موجـود فـي آن معاً. ولكن حضرتها الطاغية والمأنوسة فـي الوقـت نفسـه، تملـك أن تـدفعني إلى اقتناع مكين بسرمدية الفروق بين الأفراد، وكذلك بديمومـة التغـاير الـذي لا يعنو لأي امحاء. فشتان بين من هو مؤنس حميم ومن هو موحش دميم.

وفي غضون تلك الجلسات التي عشتها مع أمل، أو قل أثنـاء التناسـم مـع المدمث الأهيف، حين أستمتع بتلـك العذوبـة، تلـك الرقة التـي هـي غريـزة فـي النساء، أو من طبعهن وتكوينهن الرفيع، صرت أجيد فن الإصغاء، بل أتقنه أيما إتقان، مع أن ذلك ليس بالأمر اليسير. واستوعبت ما فحواه أن الاسـتماع الكامـل هو التمثل الكلي لأية لفظة يتلفظ بها الجليس. ويبـدو لـي أن المـرأة هـي اللطـف الذي هو الاسم الآخر للجمال. (أما الجمال فهو بهرة السر وتجليه أمـام المعاينـة الحدسـية) ولعـل ممـا هـو واضـح أن ثمـة صـلة اشـتقاقية بـين الأنثـى والأنـس والأناقة. وبهذه السمات اللطيفة تصير المرأة هي الجاذبية بحصر المعنى.

لكأنها كانت تبـذر فـي نفسـي بـذور الصـدق والطيبـة والإخـاء البشـري. وعندئذ أشعر بأن لي روحـاً خالـدة لا تفنـى. فالجاذبيـة هـي أصـل الاتصـال فـي العمق الذي تسعى إليه النفس في كـل زمـان ومكـان. وكانـت روائحهـا الربيعيـة الطيبة تصنع شطراً كبيراً من جاذبيتها، إذ لعل من شـأن تلـك الـروائح أن تؤكـد للرجل بأنه في حضرة المرأة، أو هو على تماس مع المنشود. ولهذا كنـت أشـعر بأن هاتيك الروائح تخلق في وجداني مشـاعر سـرية، حتـى لكـأنني أشـم رائحـة الأنوثة نفسها، أو رائحة الجـوهر النسـوي الـذي لا يدركـه إلا التجريـد، وحينئـذ

أراني أغتبط لأنني إنسان، أو كائن ينتسب إلى الجنس البشري الذي يتمتع وحده بالعواطف الروحية والمشاعر الجوانية، أو حصراً بالفرح الذي هو تجاوز لكل ما هو ضيق ومحدود. ولهذا كله، لست أنكر أنني تذوقت بعض لقيمات من السعادة فيما مضى من زماني الغابر البعيد. ولكن، ها أنا ذا اليوم أقسم بكل ما هو مقدس لدى جميع البشر في كل زمان ومكان أن مجمل الذي نلته من أمل هو الكلام وحده دون سواه، أو كما قال أحد الشعراء التراثيين:

كلمتني، وذاك ما نلت منها إن سعدى ترى الكلام ربيحا

* * *

إنني مدين لأمل في البلوغ إلى تلك الفكرة النفيسة التي تنص على أن الجمال نصر تحرزه الروح على المادة والنور على الظلام، أو هو آية صراح على جنوح المادة نفسها صوب الاستحالة إلى روح. ومما هو مقبول عندها أن الجمال يذاق بالمعاينة الحدسية، لا البرهانية، أو قل بواسطة العين التي يتعذر أن يكون لها وجود لولا النور. ومع أن جميع الأشياء لا تنكشف للبصر إلا في شرط النور، فإن الجمال وحده هو أشبه الأشياء به، ذلك لأن الشيئين كليهما لا تدركهما أية حاسة سوى حاسة البصر التي هي من سلالة الضياء. ترى، أإذا لمست خد امرأة جميلة، أتكون قد لمست الجمال نفسه أم لمست جلد وجهها فقط؟ فالنور والجمال لا تقربهما حاسة اللمس التي هي أكثف الحواس، ولا حاسة السمع أو حاسة الشم أو حاسة الذوق بتاتاً. إنهما يذاقان بالروح، وبالروح وحدها.

بفضل هذه المزايا كلها ولجت الفتاة إلى سريرتي فتيمتني، فتولهت بها حتى درجة لا تطالها اللغات. وتحت رقية هذا التوله الاستيلائي الخاطف، تمكنت أمل من أن تعلمني الكثير مما هو في صلب الأمور، إذ لا شيء يعلم كما يفعل الحب. فلكم هي لحظات منعشة، دافئة، تلك التي عشتها مع أمل في غابر الزمان، والتي همدت أو اندثرت إلى أبد الآبدين. وعندي أنه ما من نار إلا وهي برد وسلام، عدا نار اللوعة التي تصاحب الحنين إلى ما يند عن الاسترداد.

*   *   *

أما الأماكن التي ارتدتها مع أمل وحدنا أو دون ثالث، في سالف الأيام، فبودي أن أكرسها للقداسة حصراً، أو أحيلها إلى هياكل أو مزارات ومعابد، فلا يؤمها إلا الأبرار الأطهار دون سواهم من الناس. ولا لزوم للكتمان، فأنا مازلت حتى اليوم أرتاد تلك المواضع وحدي، وأتجوّل فيها بتؤدة وأناة، بينما تتواثب صورة أمل في فضاء ذاكرتي تداعب البال. نعم، ما فتئت أجوب تلك الأماكن، يسوقني حنين عارم يتمور في باطني دون أن يرضخ لأي كبح مهما تك شدته وصرامته، ولكنه حنين يشوبه حزن رقيق سببه الشعور بالخسران المؤبد الذي لا يقبل الاسترداد، ذلك لأن ما مضى لن يعود أبداً. وأثناء تجوالي في تلك الربوع المقدسة، كنت أراني أكثر من ترديد هذا البيت الذي قاله مجنون بني عامر:

وإني، وإن غال التقادم حاجتي   مُلمّ على أوطان ليلى فناظر

فما زالت تلك الرحاب الطاهرة تولد في سريرتي شعوراً بالدنف والحسرة والمرارة. يقيناً، إن الإنسان هو الشعور، على وجه الحصر والضبط. حتى الضمير شعور. وإن شئت الدقة ذهبت إلى أن الانسان شعور وزمان بالدرجة الأولى. فما تشعر به هو الحقيقة، وإن كان هنالك ألف من البراهين التي يملك كل منها أن يدحض شعورك. ومما هو سهل الاستيعاء أن من اشترى عطراً فإنه قد اشترى شعوراً، كذلك حال من اشترى خمراً أو طعاماً أو باقة من الزهور. نعم، نحن نشتري مشاعرنا حين نشتري أشياءنا. وأعتقد بأن قيمة أي شيء تكمن في قدرته على أن ينتج شعوراً أصلياً داخل فؤادي المغرم بإفراز العواطف المأهولة بألوان شفقية، والتي لا تخلو من حزن ناعم شفيف. لهذا أراني أو من جازماً بأنه ما من أهمية لأي أدب أو فن لا يؤثر في الصميم من روح الإنسان، أو عقر باطنه العميق، وكذلك بأن التأثير الايجابي جملة له معنى خلاصته أن القوة استحالت إلى خير وليس إلى شر. وقصارى المذهب هو هذا: أنت تؤثر، إذن أنت موجود، بل إن نسبة وجودك تتناسب طرداً مع نسبه

تأثيرك. فلو لم تؤثر فيّ أمل حتى نقْي العظام لما ظلت ذكراها فاعلة في نواة روحي حتى هذا الطور الشائخ من أطوار العمر.

*   *   *

ومع أنني عايشت فتيات أجمل من أمل بكثير، ولاسيما هيام التي أحسبها استحضاراً ملموساً لجوهر الوجود، أو لكنهه وفحواه وخلاصته المكثفة، التي تشبه تمثالاً نحت على نحو بديع، بيد صناع، إذ إن لها مقلتين عسليتين ساحرتين وثغراً صغيراً مثل برعم الورد، ووجه فتاة غريرة بريئة من كل خبث أو عكر، مع ذلك، فإن أمل الناجية من جميع صدور الدمامة، قد تركت في شعوري الراسخ أثراً عميقاً لا يمحوه الزمان إلا إذا تمكن من محو الأهرام. وكثيراً ما كنت أستهجن أن الأرض لا تتفجر عيوناً حين تسير عليها هيام الفاتنة المبهاج، الشديدة القدرة على السبي بعد الاستيلاء. إنها هيام التي لم يخلق مثلها في الأنام. وهي عندي واحدة من هاتيك النعناعيات اليانعات اللائي يرشقن عليك نظرة سالبة، بل نظرة تسحقك ولا تمحقك، ثم يفارقن، فلا تراهن مرة ثانية إلا بالصدفة. أجل يفارقن ويخلفن تفطراً في الروح، لكن دون أن تكون هنالك أية يد من شأنها أن تمتد لتمسح الأرق عن جفوني.

كنت أحياناً أنظم فيها بعض الشعر لأصف وجهها النوراني وعينيها العسليتين. وفي إحدى القصائد وصفت شفتيها الطريتين كالقطيفة بأن لهما، على ما أتخيل، مذاق العسل البري المسرف في العذوبة والحلاوة، بل مذاق كل ما هو بري مشحون بالبكارة والطراء، وإن كنت لم أذقهما بتاتاً. وفي الحق أن كرَّ الجديدين قد استطاع أن يطفئ الجمرة التي خلفتها هيام في سويداء الكبد، مع أن حنيني إليها ما برح يشتعل بين الفينة والأخرى. فما لتباريح الجوى من دواء ناجع كاليأس وتصدرم الأزمان وامتدادها الطويل. ويلاه! إن الماضي يتحكم بالحاضر على نحو صريح أحياناً ومكتوم أحياناً أخرى.

*   *   *

وأحسبني صادقاً إذا ما زعمت بأن المسرة كانت تفيض من حنايا صدري، ويتدفق مسيل النعمة في شراييني، حين ألتقي أمل على انفراد، وإن يكن اللقاء في مكان عام، إذ في مثل تلك البرهة أشعر بأنها تشع رونقاً له جاذبية خلابة آسرة، بل إن جاذبيتها لا تقل شدة وفاعلية عن الجاذبية الأرضية التي تمنع الأجسام من التبعثر في الفضاء. وهذا يعني أن التأثير والتفاعل، وليس التراصف أو التجاور، هو بيت القصيد في هذه الدنيا بأسرها، وأن القوة لا تتجلى في أي مظهر إيجابي كما تتجلى في التفاعل الذي يعيد الصيغة من جديد.

كنت حين أراها معي وحدي دون ثالث، أشعر بأن الرواسي تميد، وبأن الكائنات سراب والأصوات أصداء، والعالم طيف بلا ملامح ولا قسمات، حتى لكأن خيالي يتعمد أن يمارس النفي والتعديم على الموجودات قاطبة، كي أبرهن لتلك الآنسة الطيبة الهيفاء بأنها الكائن الوحيد الذي يحق له أن يكون في هذا العالم الشاسع الرحيب. وكثيراً ما كنت أتخيلها في برهة اللقاء كأنها العروس في حفلة العرس. فهي لباب الزفاف جملة، أو هي محوره ومركزه الجاذب، أما جميع المحتفلين فليسوا سوى لحائه أو قشوره الناشفة العجفاء. وأما في باطني فثمة نشوة لا تنتج مثلها أعتق الخمور والأنبذة، أياً كان نوعها، بل لا ينتج لها صنواً سوى تلك الحضرة الصوفية أو السرية التي لا تعنو لأي تفسير. وأحسب أن هذا هو الوصال الأصلي الذي يلوب عليه كل روح حي.

ترى، ما هذا الحال الباطني الصرف الذي يسمونه العشق؟ هل يجوز القول بأن الحب ما كان له أن يعرف دربه إلى الوجود إلا لتبلغ الحياة ذروة كمالها وشرفها ونبل مقصدها؟ إن الشبق هو الذي يخلد الجنس البشري أو يضمن ديمومته واستمراره، أما الحب فله وظيفة أخرى دون أدنى ريب. ومن المؤسف ألا يتنبه علم النفس الحديث للفرق بين هاتين الماهيتين المتباينتين. ويبدو أن هذا البون لا يراه رؤية دراية إلا عاشق ولهان أو شاعر حساس. أو يعقل أن يكون للحياة الروحية أي مستوى من مستويات الامتلاء بغير هذا الصنف من التفاعل الأصيل؟ فيا لهذا المعراج، هذا البراق الذي يعرج بالروح إلى سدرة المنتهى!

كيف يستولي الشائق على المشوق، أو مصب الحنين على ذاك الذي يفرز الحنين؟ إنه المسرة التي لا ينالها إلا المختارون وحدهم، والتي هي أقصى مبالغ الحياة أو أعلاها.

ولهذا، أقصد لأن الحب آسر يستولي على الصميم، فتلتذ الروح باستعباده لها عبودية استرقاق أو ملك يمين، كنت إذا غابت أمل ألوب عليها كما يلوب الفطيم على ثدي أمه. فإذا طال الغياب أصابني الدنف، وهو في الأصل كل مرض ملازم ثقيل مهما يك نوعه، ولكنه صار مخصصاً لمرض الحب وحده. وهذا يعني أن الحب المقصى صنف من أصناف الشقاء. ومع ذلك فإنه خير من أن يعيش المرء خالياً منه، لأن الخلو منه يعني ألا يذوق المرء طعم رحيق الآلهة. ولست لألغو إذا ما زعمت بأن لقيمات الهوى الصبوي التي يمضغها المرء حين يكون العمر في الريعان هي زوادة دسمة تكفي لبقية حياته بأسرها. إن الحب الذي يأتي من جذور الوجود لا ينسى بتاتاً. وأكاد أجزم بأن الحب والجمال والحرية هي أبعد غايات الروح البشري وأسماها وأشهاها إلى فؤاد الإنسان.

ولكن تجربتي الشخصية مع النساء قد أكدت لي أن حباً بلا ضفاف، أو قل إن الحب الكامل العميق، هو اللامتاح نفسه، وإنه إذا ما أتيح أو صار ممكناً، فلن يكون ذلك إلا على ندرة وحسب، وخلال برهة وجيزة، أو هي ليست بالطويلة إلى الحد المنشود، بل تظل، على روعتها وجلال شأنها، مقصرة عن الشأو المأمول، وذلك لأن الإنسان لا يرضى إلا بما لا نهاية له ولا حدود بتاتاً. ومع ذلك، فإن الوجود كله لا محيد له عن أن يكون وجوداً شبحياً شاحباً، أو غسقاً أطلس دامساً، لولا حفنة الفتيات اللائي تقاطع مسار حيواتهن مع مسار حياتي، فصارت كل واحدة منهن بمثابة جذوة ما زالت تتوقد وتتوهج، فتدفئ أيامي في هذا الطور الشتائي الشائخ. ولكم صدق ذلك الشاعر العباسي الذي قال: ((فما طيّب عيشاً إلا الخناث الإناث)) ولا غلو إذا ما زعمت بأن احتكاكي بشخصياتهن هو تعويض لي عن وجود الشرور والآلام في هذا المسلخ الكبير الذي يسمى العالم، والذي يتحكم به المال والسلاح والمرابون والانكشاريون الجدد، وكذلك البهتانيون والأفاكون وأصحاب الضمائر الخاثرة.

*   *   *

لا مرية في أن المرأة نداء عميق، إن لم يكن أعمق النداءات قاطبة، وذلك لأنه يتدفق من مملكة المستورات. وحنين الرجل إلى المرأة هو الاسم الآخر لحنينه إلى السعادة، أو إلى جنة عدن المفقودة. وما من فرحة في حياته تعادل فرحة التقائه بالمرأة.

وعلى أية حال، فإنني لست بالمفتري إذا ما حسبت أن ما تمسه أمل بأناملها الغضة يخضوضر ويزهر، بل يستحيل إلى نور، حتى لكأنها مأهولة ببذرة تملك أن تشع مثل حجر كريم. إنها بذرة من نور قمري يتألق في سويداء فؤادي، بل هي تتضدرم كالياقوت الرماني الذي هو أجود أصناف اليواقيت وأثمنها. وبما أنها في نقطة ازدلاف الأشياء، أو بين ينابيعها الغزيرة، بل في بؤرة الكبد حصراً، أو تحيط بالفؤاد من جميع جهاته، فإنها سوف تظل حية ما دام هذا القلب ينبض ويضخ الدم في الأوردة والشرايين. ولهذا، فإن لها قدرة على أن تنتج في وجداني غبطة لا يضارعها أي شعور آخر سوى الثمالة أو الانتشاء بالأسرار.

وكنت أحسب، حين تتكلم أمل، بأنها اكتشفت ما هو سرمدي في الأشياء، أو ما هو أزلاً عين ذاته، وذلك لأنها تتكلم بثقة لا يحوزها إلا من وضع يده على اللغز، أو لأنها تبحث عن الوئام والانسجام بين الكائنات، بدلاً من التنقيب عن الاختلاف والنشاز والانشعاب، وما إلى ذلك من صفات سالبة أو شائبة، وهي بهذا تذكرني بذلك الرأي القديم الرامي إلى أن الكون مثال يتجلى فيه مبدأ التناغم على خير وجه ممكن، أي (لم يكن في الإمكان خير مما كان). وبذلك فإنها تجسيد لحنين الإنسان الدائم إلى كمال متعذر، أو قل إلى اللامتاح نفسه.

ومع أنني كنت ولا زلت أومن بأنه ما من سلام في الكون بتاتاً، بل حرب دائمة لا تكف ولا تركد، أو قل مع أنني أومن بوجوب الصراع والنزاع، وبالحاجة إلى الشقاق بدلاً من الوفاق، حتى يزول الفقر والظلم والعدوان من العالم بأسره، وحتى يؤمن جميع الأوباش والأوغاد والعدوانيين، من القراصنة

ورعاة البقر، بأي مبدأ أخلاقي من طبعه أن يفضي إلى تبجيل إنسانية الإنسان. مع ذلك، فقد احترمت شعور أمل بالحاجة إلى الصلح والسلم وهداة البال، كما تفهمت إنكارها لوجود اللعنة الكلية في عالم ساقط ملعون، تتحكم به القرصنة والطواغيت، وأكبرت أفكارها الملتزمة بالطيبة والعيش الهنيء، وإن يكن بسيطاً، بل فقيراً بالأدوات. وشعرت بأنها روح مطهمة هيفاء، أو نعمة هبطت عليّ من المواضع اللدنيّة، بل (من المحل الأرفع) وفقاً لعبارة ابن سينا.

ذات يوم حدثتني عن الماس وعن احتراقه بلهب أزرق لا نظير له بتاتاً، وأوحت إليّ بأنه نور تخثر أو تجمد فصار من أجل اللمس، بعد ما كان من أجل البصر وحده. كما نوّهت بأنه رمز الصفاء والإخاء والوصال والتقاء الذوات، أي هو رمز الصداقة والحب والطهارة الداخلية، وذلك بفضل شفافيته الرائقة التي توحي بالانفتاح وسهولة العبور من طرف إلى آخر. وفي تلك الهنيهة الهانئة، راحت تنظر إليّ بعينين لاهفتين، وتحرك أناملها بلطف فاتن، فخيّلت إليّ أنها تبذر بذور النور في قاع روحي. لكم كانت أمل عذبة ونقية وصافية كالماس، بل هي أصفى منه بكثير. وحين تتكلم بصدوتها الرخامي المنغوم، ذي الرنين الفضي الهادئ، أشعر بأنها وردة تمارس التضوع والنفح، أو بأن روحها مأهولة بشرارة علوية لها سمة التضرم على الدوام. فلكم يحرضك حضورها على أن تقول من صميم فؤادك: ليت الحياة شباب خالد وحب دائم وربيع مقيم لا يرحل ولا يذبل ولا يزول.

* * *

أما سجيتها الأولى فمؤداها أنها تملك أن تأخذ بيد الرجل إلى الكمال، ولكن شريطة أن يكون مستعداً له. فالاستعداد أساس الفعل والانفعال. وهذه فكرة شددت عليها الصوفية وأكدت كثيراً. وبذلك فإن أمل تشبه واحدة من اللائي ربطتني بهن ذات مرة علاقة من فصيلة الاستهواء المتبادل، واحدة فقط، اعتدت أن اسميها باسم السمراء.

إن السمراء ذات المقلتين الدعجاوين هي جرحي النغار الذي لا يرقأ ولا يعنو للاندمال بتاتاً. فالزمن لا سلطة له على الأعماق ولا على الأحداث التي تخص قعر النفس الغوري السحيق، إذ مر نصف قرن على ذلك الجرح ولكنه ما زال هو هو تماماً، ينزف مثلما كان في بداية عهده. وإن السمراء كبرى خسائري، أو الخسارة التي لا تبذها أية خسارة أخرى سوى خسارتي للوطن حصراً. وكما قال لورنس الروائي الإنجليزي، الذي أحبه كثيراً، والذي قرأت معظم رواياته بلذة تفوق معظم اللذائذ الأخرى، عن فريدا، زوجته الألمانية التي تعلقت به كما يتعلق الحديد بالمغنطيس: (إنها امرأة للعمر كله) وفي الحق أن السمراء امرأة استطاعت أن تمغنط العمر كله.

وفي قناعتي أن أياً من هاتين الفتاتين، أعني أمل والسمراء، تصلح أن تكون امرأة للعمر بأسره فعلاً، كما أن الشيء الطفيف الذي حصلت عليه منهما يكفي زوادة لما فات من عمري، وكذلك للشطر الذي لم يأت بعد، وذلك لأنهما تجسدان المسرة والسعادة والهناء على الأرض. ويا طالما تساءلت بيني وبين نفسي عن السبب الذي كان يشد أولئك الزاهرات المشرقات كشمس الصباح البازغة إلى واحد مثلي مفرط في النحافة واصفرار الوجه وتكهف الخدين، حتى لكأنه شبح، أو هيكل عظمي ناشف معروق.

أما أهم ما كنت أقوله للسمراء، وكذلك لهيام التي أتت بعدها بقليل، فهو هذا: أنت تجسيد للجمال. فترد كل منهما قائلة: وأنت تجسيد للمثال. يا إلهي! لكم هو مشحون بالقدرة على إنتاج الشعور بالسعادة هذا القول الذي يصدر عن الصدق حصراً. فأين ولت تلك الأيام؟ وكيف تبخرت وتلاشت إلى أبد الآبدين؟ ولماذا لم تمكث في الأرض وتخلد خلود الأهرام؟ كل شيء مؤقت، زائل، عرض، يرحل ويهجرنا، ثم لا يعود ولا يستعاد

* * *

وعلى أية حال، فإن واحدة من أبرز سجايا أمل أنها حساسة تجاه الغوغائية. فهي شديدة القدرة على أن تشم رائحة السوقية التي تضمرها أقوال

لظاهرها صفة الخير، ولكن باطنها يكتظ بشر أسود كالح غشوم. وبعد سلسلة من المحاورات استقرأت أن لها حساسية رهيفة وقدرة على الاستبار واكتشاف المخبوءات، أو إماطة الحجاب عن المكر المستتر داخل المقول الملغوم والمسكوت عنه في آن واحد. وإنه لأمر عظيم المقدار ألا ينطلي عليك أي تفخيخ، مهما يكن نوعه.

ولهذا فقد تركت في انطباعاً مفاده أن الكثير من مشاعرها ينطوي على وضاءة أو نضارة دائمة قلما تذعن لسلطة الزمن، فلا يطالها الجفاف أو الذواء إلا نادراً وحسب. ففي الصدق أن بعضاً من مشاعرها قد التغمت داخل بنية شعوري إلى الأبد، إذ إنها ما برحت تنبض هنالك حتى اليوم. وكثيراً ما شعرت بأنها تمتح مزاياها من ينبوع الينابيع كلها، حين يتدفق الكلام من بين شفتيها الطريتين كشمع العسل أو كبتلات الورد. ثم إن لصوتها جاذبية الغناء المطرب الحنون، أو هو لا يقل روعة وتأثيراً في النفس عن وقع المطر حين يهمي على الأرض.

* * *

هنالك نسوة كن ينلن مني إعجاباً شديداً ويجذبنني إلى حد الاضطهاد. نسوة كنت أقف في حضرتهن مصعوقاً ذاهلاً كأنهن البهتان لشدة صدقهن. ومع أن لهن أُخذة وفتوناً، أو قل إنهن من ذلك الصنف الاستيلائي المؤثر حتى مخ العظام، فإنني لا أشتهيهن البتة، ولا تسوّل لي نفسي أن أشاطرهن أي فعل ينتسب إلى مملكة الجسد، بل لا تساورني أية رغبة حتى في لمسهن باليد. وأحسب أن هذه الفصيلة الباهرة من الكائنات ما وجدت إلا لتكون من أجل العين وحدها، أو من أجل إيقاظ أحلام شتى، تشبه نافذة وهمية تطل على الأزلية. ثم إن لهن قدرة خاصة على دفع النفس نحو التعلق بالسمو، بالرفعة أو بالعلو، وذلك لأن جمالهن السامي لا يذاق إلا بالروح وحدها. وحين أكون في حضرة أولئك النعناعيات أشعر بأن الإنسان إذا ما اكتمل بنيانه الداخلي، وبنيانه الخارجي أيضاً، فهو كائن شريف فاضل مؤنس نيّر، يتضرم كالشمس في رأد

الضحى. وحينئذ أراني أومن جازماً بأن البشر ليسوا البتة سواسية كأسنان المشط.

فما هفا فؤادي مأخوذاً، ولا رنا بصري بإعجاب، في أي يوم من الأيام إلا إلى هاتيك النسوة اللائي أحسبهن مختصات بصناعة الكمال، فأنهل مما يزخر به كيان المرأة الناضجة من قدرات روحية تملك أن تبث الوجود في جوف العدم. فعندي أن العلاقة بالمرأة لها أهداف كثيرة أعلاها أن ينهج كل من الطرفين صوب تكميل الآخر وتطويره ودفعه نحو تحقيق هويته الروحية. وفي الماضي كنت أقول بوجوب التمييز بين المرأة الجميلة والمرأة الشهية، أو بين الحسناء الخلابة التي يصلح مشهدها للتذوق الجمالي والسمو الوجداني فقط، وتلك التي تحرض في النفس نزعة الاشتهاء، وهي نزعة لا ترقى إلى مستوى النزعة الأولى بتاتاً. وفي هذا الطور الشائخ، ما زلت ملتزماً بالموقف إياه، مع أنني أشعر اليوم بأن كل شيء يخفت صوته ويخبو لونه، وينتقل من الحضور إلى الغياب.

وبسبب هذا المزاج النازع نحو الأعلى، لم تسوّل لي نفسي، في أي يوم من الأيام، أن أقبل شفتي أمل الورديتي اللون والمخمليتي الملمس، لأن ذلك في نظري عدوان على الحقيقة حصراً وجريمة بحق الحب نفسه. فالينع الروحي لا يذاق إلا بالروح وحدها. أما الشفاه فلها قوت هو الخبز، وأما الوجدان فقوته الجمال وبكارة الألطاف الحسنى.

ولا مشاحة في أن ذلك الصنف الجليل من النساء، وهو المتخصص بإنجاز السمو والكمال، أو بإضفاء الفحوى على الكينونة، هو الذي يستهويني ويجتذبني، أو يأسرني على نحو لا فكاك لي منه، بغض البصر عن جمال وجوههن أو هيف أجسامهن الممشوقة الباذخة. والنضج هو الامتلاء الزاخر الهادئ والفيض المتدفق الغزير. ولكم أصاب شيكسبير حين قال: "النضج هو كل شيء."

ومما هو صادق تماماً أن أمل واحدة من هذه الفصيلة العظيمة السامية النادرة، بل الشديدة الندرة في الوجود. فهي دائماً تتدثر بجلال وقور ينم عن معنى يرخم في أقصى ينابيع الشخصية، بحيث لا يتيسر للمرء أن يكتنه فحواه

بسهولة، مع أنها فتاة جد بسيطة، وتحب الخير والسلام لجميع الناس، بل هي حقاً تحب الإنسانية التي لا أعرف من أحبها في أي مكان من هذا العالم. وربما كمن سرها الذي لا يسبر له غور في بساطتها وفوريتها المباشرة، فضلاً عن جمال وجهها المهدئ لاضطرابات النفس اللوامة.

* * *

لعلني أعرف جميع شمائلها ومزاياها. فما من شيء يستهويها كما يفعل النور الذي يزود جميع الكائنات بالأنس، وكذلك اليخضور، ولاسيما تلك النباتات الزاهرة التي تشيع الغبطة في سويداء الوجدان. فما كان مني إلا أن سميتها سميرة النور بعدما تيقنت أن لها بالنور شغفاً، بل صلة رحم، لا يبذها سوى ولعي بالغيوم والأمطار. فهي تتحدث عن النور كما لو أنه شيء يصلح للشرب بدلاً من النبيذ، بل حتى بدلاً من الماء العذب الزلال. ولقد أوحى إليّ مجمل حديثها حول هذا الموضوع بأن النور هو الوطن، وبأن الظلام هو المنفى الذي لا تسكنه سوى السعالي والغيلان.

لقد أوحت إلى مخيلتي بأنه ما من شيء إلا وهو نور جامد أو نور مذاب. كأن أصل الأشياء هو النور، وليس الماء أو النار، كما زعم بعض الفلاسفة الأقدمين، أو كأن النور هو ما قد كان في البدء وليس الكلمة. ومن المتعذر أن يتمكن شخص ما من أن يفهم النور على هذا النحو الصافي والآتي من خلد قصي، لو لم يكن ذلك الشخص نفسه نوراً أو تشع في سريرته أنوار من عالم آخر لا صلة له بالمادة وما يندرج فيها من ظلمات غاسقة.

ولهذا، فإنني كثيراً ما توهمتها، وخاصة في أحلامي، نجمة تسطع وتتألق في فراغ غاسق لزج، بل كثيراً ما اعتقدت بأنها هي نفسها ما ولدت إلا لتكون بمثابة انتصار تحرزه قوة النور على قوة الظلام، وقوة الحب على قوة البغضاء، وذلك نتيجة لمرسوم أصدرته العناية الربانية نفسها. فالنور عندها رمز السلام وسمة الصفاء والمسرة في آن واحد. والنور هو الشيء حين يكون صرفاً نقياً وخالصاً من كل ما يشوب. ويوم قرأت (الفتوحات المكية) في أواخر

عقد السبعينيات، أو بعدما ذهبت أمل بكثير، ورأيت ابن عربي يقول في المجلد الثاني (وهذا الجزء الثاني حصراً هو واحد من أعظم الكتب التي ألفتها البشرية بأسرها): "الضياء ليس من عالم الشقاء"، عندئذ أدركت السر الذي جعل للفتاة غراماً بالنور على ذلك النحو اللطيف. ولكن ثمة ماهية أُخرى إلى جوار النور كان على أمل أن تدركها جيداً. إنها روحي التي أهملتها وأزعجتها بالفراق والغياب السادر في الغي والتعنت واللامبالاة.

ولكن منذ أن ولجت أمل إلى ساحة عمري، وصارت النور الذي يفعم سريرتي أو وجداني، لم يعد هنالك أي ظلام في العالم كله، أو هكذا صرت أشعر في بعض الأحيان، فقد أمحى الظلام وحل محله الانتشاء بحضرة الجمال والأنس البهيج. وأخذت الأشياء تتفتح وتزيح براقعها عن وجوهها، فصرت رائياً ملهماً، يتدفق مسلسل الصور والمعاني في داخل مخيلتي، مثلما يتدفق سيل في نيسان مع ذوبان الثلوج، حتى لكأن البرقع ما أميط إلا عن روحي قبل سواها، وحتى كأن نوراً سماوياً قد اخترق السدول المرخاة على سريرتي، فصرت أعرف على نحو أفضل من ذي قبل.

ولقد ظل الأمر كذلك حتى غادرتني أمل فعاد الظلام مثلما كان. تُرى، لماذا لم يتمكن مسلسل الإحباطات الذي تعرضت له من أن يبددني أو يحيلني إلى نثار؟ ويبدو أن الإنسان كائن يطيق أكثر مما نتخيل، وأن له قدرة على التكيف والانصياع للأمر الواقع، أو لإرادته الطاغية.

ومع أمل وحدها كنت أنتعش وأتجدد خلال بضع سنوات، وذلك لأن لها استطاعة فائقة على الكشف عن بكارة الوجود والديمومة الراخمة هاهنا بالقرب من الجميع. ومع أمل وحدها كان الوقت يتخلص من جهامته وسآمته وكلوحه الشيطاني المقيت. وعندي أن إنعاش الروح هو إحياء للعالم نفسه، وذلك لأن موت الإنسان هو موت الوجود كله. فمع أمل لا يظل الوجود موحلاً ولا كئيباً، بل يصير إلى السلاسة والحسنى والنعومة والانقياد، حتى لكأنه منسوج – سداة ولحمة – من خيوط النور وحده. إنها تشبه واحة وارفة الظلال في وسط صحراء جهنمية ماحلة.

ولهذا، أراني اليوم أعتقد بأن امرأة تمكنت من أن تـؤثر هـذا التـأثير كلـه في بنية روحي، دون أن تبيح خلية واحـدة مـن خلايـا جسـدها، أو أن تنجـز هـذا الاستقلاب الكبير في وجداني، وأن تترك في سريرتي شعوراً يشبه رعشـة حلم صادق ندي قصي، لهي بالضرورة كائن كبير لعل من شأنه أن يوقظ الربيع فـي غير أوانه. لقد حررت بحرارة حبها وحنانها الدافئ اللطيف طاقات كثيفـة كانـت غافية داخل روحي، وما كان في الميسور أن يحرر تلك القدرات أحد سواها، أو سوى حبها الصادق الحنون الذي يبذ حنو الأمهات على أطفالهن.

ويبدو أن للمرأة الكاملة غريزة تفرز رؤى إرهاصية تؤشر إلى ما ينبغي أن يكون وتستشرف مـا سـوف يجـري فـي آن واحـد. فالناضـجون يكنـزون فـي ذواتهم عنصراً ريادياً لا يخفى على ذوي الألباب. ولهـذا فـإنهم يصـلحون أسـوة حسنة يقتدي بها الناس في بعض الأحيان. ما أحسن البشر حين يكونون وسـيمين وناضجين وطيبين! فقد أسلفت أنها من ذلك الصنف الذي يأخذ بيد الرجـل نحـو الكمال. ولكن، ما كان للأمر أن يجيء على هذا النحو اللطيف لو لـم أتمكـن مـن إقناع الفتاة بأنها مصب اللهفة واللوعة والحنـين فـي آن واحـد. فعليك أن تـذهب إلى الأشياء من سفحها المشمس، أو أن تقاربها على الـدرب المسـيج بالياسـمين، إذا ما أردت أن تبلغ إلى جنبها الفاتن الناعم الأنيس.

وبفضل الرؤية الجديدة تمكنت من أن أرى الإنسان، ذلـك الكـائن الـذي ينـد عـن كـل حـد أو قيـد، بوصـفه برهـة سـرية لا يفهمهـا الفهـم ولا الخيـال، وإنمـا يحدسها الوجدان الرائق النبيل. وسرعان ما أدركت أن سر الحياة هو نبضـها أو فيضها الدفاق. فكأن الفتاة قد استرجعت روحي مـن منفاهـا البعيد الـذي فرضـه التاريخ، وجعلتني أشعر بأنني كائن سري فريـد، أو حـادث شـديد الخصوصـية، ولا يقبل التكرار بتاتـاً. لقد أنجـزت لـي مـيلادي الحقيقـي، حتـى لكأنهـا أعـادت صياغتي من جديد. ولكن ذلك قد حدث بعدما استحالت أمل إلى طيـف يهاجسـني ويرفرف في فضاء ذاكرتي كما يرفـرف السـراب فـي الصـحراء. فكـل مـا هـو نفيس له ضريبة محتومة كالقدر الذي لا يُدحر ولا يُردّ.

*   *   *

أمل، يا قبرتي الخضراء، يا نقاوة الدنيا وصفوتها، يا أنصع حقيقة في تجربتي كلها، يا عصارة زمني وزبدة عمري، يا آخر سهم في كنانة الوجود، لماذا لم يخطر في بالك يومئذ، أقصد يوم اتخذت قرار الجفوة، أن الجديم هو المسافة، أو غياب الشائق عن بصر المشوق؟ فلا أحسبك تجهلين أن لوعة الاشتياق هي نتاج المسافة والفراق. إنها لوعة مازلت أنفث حرقتها وزفراتها النارية حتى يوم الناس هذا. قلت لي بأنك تبتغين أن تطلي على أعماقي وحسب. ولكنك بتلك النظرة الصافية الساجية، وربما السابرة، سواء أكانت وئيدة أم عجلى، خلفت جمراً بين الجوانح، وما انفك يكويني بغير شفقة، وسوف يظل على حاله ما دمت أدبّ على هذه الغبراء. فلماذا أحجمت عن استئناف الوصال على نحو مباغت، وصرمت الحبل ثم غادرت إلى غير رجعة؟

أمل، يا أملي، كل مسافة غربة، وكل فصال قهر وعذاب. وما من جديم في الدنيا سوى الشوق الذي لا تلبية له، أو سوى غياب الشائق عن بصر المشوق. ألا إنك تضفين على هذه الأرض بركة خاصة لم تألفها منذ زمن المرسلين والقديسين.

لكم أنا مشوق لرؤية شعرك الذي ما زال يتأرجح في البال، وسوف يظل كذلك حتى آخر الدهر. فيا طالما تمنيت أن ألمسه بيدي كلتيهما، وذلك لأن اللمس أكثف أصناف الاتصال وأنجعها وأقدرها على انجاز الخبرة العملية بالأشياء. نعم، شعرك الطويل الغزير المنثال على كتفيك بهدوء كأنه رمز من رموز الخصوبة والوفرة، فضلاً عن كونه استحضاراً عينياً للجمال الصرف.

كان الصوفيون يقولون للمحبوب: عّذب بما شئت ولكن لا تعذب بالنفي أو بالمسافة والفصال. بيد أن النفي أو الإبعاد هو الطريقة الوحيدة التي اختارها ذهنك ليفتك بروحي الملتاع. فكيف سمحت لنفسك بتعذيبي وأنت من علمني اللطف والرفق بالحياة أياً كان شكلها؟ كيف فارقت وتركتني مطروحاً أرضاً في سواء الفراغ وحصار الانخلاع، مرمياً بلا جذور، مقتلعاً وحيداً، يبرح بي الجوى الفتاك، ولا يحيط بي أي شيء سوى اللاشيء وهمجية الكائنات وغوغائية العصر الحديث؟ كيف غادرت دون أن تأبهي لحجم الجرح الذي أحدثته في سويداء النفس؟ عندئذ بلغت غربتي نهايتها القصوى. فأنا اليوم

مكنوف بالأمية المعادية لكل معرفة، ولكل من يعرف. تحيق بي غوغائية ترغمني على التقلص والانكماش. فما من علاقة بيني وبين هذه الأمية المتفشية في الناس سوى التناكر المتبادل، الأمر الذي من شأنه أن يرغمني على الوحدة والاعتزال. ولكن زخم المكابدة، أو عذاب المقاساة، هو الدرب الذي يؤدي إلى بؤرة المعنى، بل حتى إلى النضج المنشود.

أمل، يا حمامتي الزرقاء، يا نجمتي الماسية المتألقة، يا واحتي وسط هذا الإقفرار الموحش العقيم، يا زنبقة زرعت في أعالي الجنة، يا وردة غرست في عليين، أنت يا من تشحذين روحي بل تمغنطينها، لو عشت في زمن السيد المسيح لكنت واحدة من المريمات اللائي أحطن به في محنته القاسية، فأنت الحنان والدفء وكل ما هو من فصيلة الألطاف الحسنى. سوف يظل الرابع من آب يوماً مقدساً في ذاكرتي الشقية، ففي ذلك اليوم، كما تعلمين، التحم الأزل بالزمان، عندما بلغت سورة الوجد ريعانها، فكان اللقاء الأول الذي يستعصي على اللغة ويتأبى. سوف يبقى يوماً صرفاً بارزاً بين جميع أيام السنة، ومقدساً إلى أبد الآبدين. إن جميع الأيام ملفقة موحلة شعثاء، إلا ذلك اليوم السعيد النبيل.

أمل، يا ماستي الفريدة، يا صديقة الصدق والنور واليخضور، أعلم أنك تحبين اللونين الأبيض والأخضر، فالأول عندك لون الملائكة، والثاني لون النسغ والحيوية والمملكة النباتية الهادئة الهانئة. فأنت منذورة للخير والسلام بمرسوم أصدرته العناية الإلهية نفسها. ولكن أهم ما في الأمر أننا لو لم نعشق بحرارة نار مارجة لما كانت الجفوة مريرة وباهظة على هذا النحو الفتاك. فالخمود يكون على قدر الوجود، كما يقول الصوفيون.

أمل، يا نفحة من وردة الأزل، لو أضمن أنك لن تذرفي الدمع ساخناً لدونت مالك من شمائل ومزايا بمداد أستعيره من أنوار الفردوس الأعلى، ولبينت قيمتك عندي وما أدخره لك من حب ولهفة ووداد. ولكنني أخاف أن تجهشي بالبكاء، أن تعولي، أن تريقي ساخن العبرات، ندماً على التنصل والهجران. يقيناً، لست أطيق أن أكون سبباً في تعاسة أي إنسان، وبخاصة أمل الغالية على فؤادي، والتي لا أستبدل بها كنوز الأرض ونفائسها العزيزة الكثيرة.

ولكن، لماذا كان الوجود قاسياً ولم يكن حنوناً؟ ولماذا تنقصه الرأفة والرفق بروح الإنسان؟ ولماذا كانت الحياة على هذا النحو المنهك التعيس، ولم تكن على أي نحو أفضل وأمتع وأكثر ميلاً إلى السعادة والهناء؟ ولماذا لم يترسب في قلبي من تجربتي مع أمل سوى الشجن والحزن بدلاً من الغبطة والحبور؟

أنت تعلم، يا إلهي، أن أمل هي الجمال حصراً، إنها الجمال الذي يلبي حاجتي إلى العلو، أو إلى مفارقة التجربة ورتوبها الماحي لوقدة الروح. وتعلم أن حضرتها هي حلول الأزل في الزمن واتحاد السماء بالأرض. ترى، ما الذي يسعه ان يتلألأ في جوف هذه الغيابة الدامسة البكماء التي ما برحت تحاصر روحي منذ فارقتني أمل حتى يوم الناس هذا؟

حنانيك، يا رب، فإنك تعلم أن أمل هي الحضرة التي لا تبذها أية حضرة أخرى، وتعلم أن رؤية أمل هي وحدها الإجازة التي تخرجني من اللعنة إخراجاً كلياً، حتى وإن كان مؤقتاً. فلماذا لا تمنحني مثل هذه الإجازة ولو مرة واحدة طوال الشطر المتبقي من عمري؟ هلا وهبتني نهلة صغيرة من ذلك البلسم الشافي لجميع أمراض النفس، نهلة صغيرة واحدة وحسب، فلعلها أن تكون علاجاً لجميع أوصابي وإنعاشاً لما ذوى من أوراق نفسي المقرورة في شتاء العمر الجانح إلى الأفول.

رباه، كل شيء يخل بواجبه تجاه روحي.

الفصل السابع
هذا الزمن العجيب

ربما جاز القول بأن ظاهرة المجازر، في هذا الطور التاريخي الراهن، لا تقل حضوراً عن ظاهرة التعليم، أو عن ظاهرة الإعلام، مثلاً. ومن الغرائب أن الناس قلما يتحدثون عن هذه الظاهرة المتفشية في العالم الحديث، ابتداءً من اكتشاف أمريكا حتى يوم الناس هذا. فما أن تمرّ سنة أو سنتان على مجزرة من المجازر حتى تنساها الغالبية العظمى من البشر، وذلك لأن الحياة العصرية الاستهلاكية تملك أن ترمد الضمير، فيصبح المرء بليداً حتى تجاه الدم البشري الذي ينبغي تقديسه، إذ إن إنسانية الإنسان هي المبدأ الأول الذي تبدأ منه كل حضارة راقية. فلا يهتم بهموم هذا العالم سوى تلك القلة النفيسة، أو النخبة الأصيلة الحساسة التي هي الحامل الحقيقي لذلك المحمول الوثيق الصلة باللباب، والذي يسمى الماهية الإنسانية.

ويبدو أن النسيان وظيفة دفاعية عظيمة الفاعلية والهدف. فالبشر ينسون المجازر والكوارث بعامة لأنهم يريدون أن يتخلصوا من بؤسهم الباهظ، فيدفعونه إلى زوايا الإغفال الغارق في الرطوبة والصمت والعتمات. وبهذه التنحية يزيحون عن كواهلهم وزراً من شأنه أن ينقض ظهورهم لو ظلوا يعتلونه عليها. ويبدو أن النفس مبنية على مبدأ الدفاع، سواء بواسطة النسيان، أو بواسطة ابتكار الأوهام والخرافات القادرة على تسويغ هذا العيش البائس الشقي. فلو أقر الإنسان بتعاسته لصارت حياته جحيماً لا يطاق.

ولكن يتوجب عليّ أن أثبت أخبار المجازر الكبرى في هذا المسرد، وذلك لتوعية الإنسان بهمجيته وإيقاظه على سوء حاله، لعله ينشط باتجاه التحسين وإصلاح واقعه الكئيب. فلقد أحال الغربيون الأرض كلها إلى كربلاء، وما من أحد يدري متى يأتي الخلاص.

*   *   *

ويبدو أن الغربيين الهمج، ذوي القلوب الغليظة، يستمتعون برؤية النجيع البشري مطلولاً على الأرض. فهم لا يخجلون البتة من وحشيتهم وزعارتهم وترمّد أرواحهم. فلقد رصدت أمريكا هذا العام مبلغاً مقداره (245) مليار دولار من أجل الحرب في العراق وأفغانستان. وهذا مبلغ كفيل بالقضاء على الجوع في الدنيا بأسرها. ولعل في ميسور المؤرخ المحترف أن يكتشف ذات يوم ما فحواه أن الحضارة الأورو-أمريكية الحديثة سوف تترمد وتكف عن الوجود بعد أن يكف الغربيون عن ممارسة المجازر وسفك الدماء، وأن وجودهم على الكرة الأرضية رهن بإقدامهم على فعل الإرهاب والعدوان وابتزاز الشعوب ونهبها وترويضها.

ثم إنهم كالبدو تماما يحاربون من أجل السلب والنهب على نحو جهري، وذلك مع افتقارهم إلى شهامة البداوة ونخوتها. فحيثما حل الغربيون اللاحمون حلت المجزرة، ولاسيما حين تكون الفريسة بغير حماية من شأنها أن تدرأ عنها خطر العدوان. ولا ريب في أن هذا الإجرام المتطرف هو الذي بنى الحضارة الحديثة، وهي التي استلها الغربيون من عظام الأمم الأخرى. فالأمريكي بخاصة، أو المغولي الحديث، مصاب بداء لا شفاء له منه، وهو الجنوح الدائم لاحتساء الدم البشري.

وعلى أية حال، فقد انفجرت منطقتنا منذ مناوشة حزيران المريبة (1967)، والتي أريقت فيها دماء كثيرة من الفلسطينيين العزل ومن الجنود المصريين الذين أسروا في سيناء. وكانت مجزرة أيلول الأسود (1970)، يوم فتك الجيش الأردني ببعض مخيمات الفلسطينيين، أولى المجازر الكبرى بعد تلك المناوشة. وفي السنة التالية، وفي شهر تموز حصراً، تمكن ذلك الجيش نفسه من أن يجزر أعداداً كبيرة من الفدائيين الفلسطينيين في أحراش عجلون. ولقد كان أبو علي إياد، وهو رجل كله شرف وشهامة، واحداً من شهداء تلك المجزرة. وبذلك ثبت أن جميع الجيوش احتياطي للصهيونية والإمبريالية. ومما يؤكد هذه الفكرة ذلك الهجوم الذي شنه الجيش الإثيوبي على الصومال للقضاء على القوة الاسلامية المسيطرة والتي ترفضها الامبريالية رفضاً باتاً.

أما أولى المجازر الكبرى في طور النفط المتفور فهي تلك التي ارتكبها بنوشيه في تشيلي خلال شهر أيلول سنة 1973، يوم انقلاب على الليندي الذي كان الرئيس الشرعي للبلاد، وذلك بالتآمر مع أمريكا التي لا تسمح بأي تقدم في أي من البلدان المتخلفة. وكان بابلو نيرودا، الشاعر المشهور، والحائز على جائزة نوبل، واحداً من ضحايا تلك المذبحة المروعة.

وفي ربيع السنة التالية هجم الجيش التركي على قبرص وفتح نيرانه، ولاسيما صواريخه، على الأحياء السكنية اليونانية وحصد الأرواح البشرية كما يحصد المنجل السنابل.

وفي الفترة الممتدة بين سنة 1965 وسنة 1975 ارتكبت الوحشية الأميركية عدداً كبيراً من المجازر في الفيتنام، فقد راحوا يحرقون بعض القرى بالنابالم الذي يرشونه من الطائرات. ومن شأن مثل تلك الهمجية المجرمة أن تؤكد ما فحواه أن الغربيين ليسوا سوى قراصنة إرهابيين لم يتغيروا بتاتاً منذ بدائيتهم الأولى وحتى الوقت الراهن. فهم يمارسون الارهاب على الشعوب منذ اكتشاف أمريكا حتى اليوم. هذا هو عصر أمريكا، ألا كان الله في عون الشعوب خلال عصر أمريكا، أو عصر الإرهاب الأمريكي اللئيم.

واندلعت الحرب الأهلية في لبنان سنة 1975، فصار القتل صفة يومية من صفات الحياة طوال مدة لا تقل عن خمس عشرة سنة. وفي سنة 1976، ارتكبت قوى الشر مجزرة مروّعة في مخيم تل الزعتر الجاثم إلى الشرق من بيروت، والذي أعرفه معرفة جيدة، لأنني نمت فيه عدة مرات عند بعض الأصدقاء. ولقد برهنت تلك المجزرة على أن جميع الجيوش العربية هي قوى احتياطية للامبريالية والصهيونية.

أما الثمانينيات فقد شهدت مجازر هائلة، وأبرزها في منطقتنا تلك المجزرة التي ارتكبها الصهاينة وأعوانهم في مخيم صبرا ومخيم شاتيلا المجاورين لبيروت، وذلك في أيلول، عام 1982. وفي نيكارغوا ارتكب ساموزا مجازر بحق شعبه نادرة الشبيه في التاريخ، وذلك بعد ما أيده الصهاينة وأمدوه بالسلاح اللازم الفتاك. وقد درّب الغيتو الصهيوني فرق الموت التي قتلت في السلفادور أربعين ألف إنسان خلال تلك الفترة. كما درّب الغيتو نفسه

فرقة أخرى في هندوراس ارتكبت مجزرة شنيعة، إذ قتلت عشرات الألوف من سكان ذلك الإقليم. وفي كراكاس، عاصمة فنزويلا، ارتكب الجيش المحلي مجزرة بشعة سنة 1989.

واستمرت المجازر خلال عقد التسعينيات، وذلك في البوسنة والهرسك بحق المسلمين المساكين الذين لا حول لهم ولا طول. ثم انتقلت إلى كوسوفو بعد سنوات قليلة. وفي الموضعين كليهما أجرت النزعة الطائفية مجازر لا سبب لها سوى أن الأوروبي، وهو كائن متعصب وعدواني، لا يتحمل الآخر ولا يتسامح معه قط. ترى، هل يجوز الحديث عن حروب صليبية تجري في بعض الأماكن خلال السنوات العشرين الأخيرة (البلقان، أفغانستان، تيمور الشرقية)؟ فلقد أعلن الرئيس الأمريكي عن حملة صليبية عشية الهجوم على أفغانستان دون حياء.

وفي الشطر الجنوبي من لبنان ارتكب الصهاينة مجزرتين، أولاهما في سنة 1993، يوم فتحوا نيرانهم الجهنمية على القرى الجنوبية، وسموا ذلك الفعل اللئيم باسم ((عناقيد الغضب)). وهذا عنوان رواية لجون شتاينبك، الكاتب الأميركي المشهور. وأما أُخراهما فكانت سنة 1994، يوم ارتكبوا مجزرة في قانا فأبادوا أكثر من مائة نسمة. وقانا هذه ليست قانا الجليل المذكورة في الأناجيل.

وفي تلك السنة الأخيرة نفسها جرت مذابح جماعية مروّعة ونادرة جداً، وذلك في بلد إفريقي اسمه رواندا. وقيل بأن فرنسا ضالعة في تلك المجازر الشنيعة الهائلة. وبعدما بدأت الانتفاضة الفلسطينية الثانية في أيلول سنة 2000، راح الصهاينة يجددون المجازر يومياً تقريباً. ولقد بلغ ولعهم بالدم البشري ذروة من ذراه الكبرى في نيسان سنة 2002، يوم ارتكبوا مجزرة شديدة البشاعة في مخيم جنين.

ولقد شهد لبنان في الصيف الأخير (2006) أشنع المجازر التي ارتكبها الصهاينة بواسطة الطيران، فقتلوا وجرحوا آلاف البشر، غالبيتهم من العزّل، وخاصة من النساء والأطفال. وكانت المشاهد على شاشة التلفزيون مما يمزق نياط القلب، أو يسربل الروح بغم مرير. وبالإضافة إلى ذلك، تعرضت البنية

التحتية لخراب مريع، إذ دمر العدو الكثير من الجسور والمعامل، مما أضر باقتصاد بلد فقير. ولقد استغل الصهاينة قيام بعض رجال المقاومة اللبنانية باختطاف جنديين معاديين، وأشعلوا حرباً شعواء لهم فيها غاية توضحت بعد انتهائها. إن حدود الغيتو آمنة من جميع الجهات ما عدا الجهة اللبنانية الفالتة، فضلاً عن الجهة الفلسطينية التي يعاملونها بالضرب المبرح والعنف اليومي. فكانت غايتهم أن تجيء قوات من الأمم المتحدة لتحمي حدودهم مع لبنان. وبذلك يتفرغون للفلسطينيين.

أما المجازر المروعة التي ارتكبها الغربيون في العراق وأفغانستان فهي من الوحشية بحيث تحث الإنسان الحساس على أن يتنصل من انتمائه إلى الجنس البشرى. فلقد ثبت أن النازية والفاشية أرأف بالإنسان من الإمبريالية وجلاوزتها ومن لف لفها. أما النازيون فهم اللطف نفسه إذا ما قورنوا بالصهاينة المجرمين. إنهم يجهلون إنسانية الإنسان جهلاً مطبقاً يذكّر المرء بطبيعة القرون الوسطى الأوروبية الموغلة في البربرية والهمجية.

ويبدو أنه حتى الأمركيون الأوباش، الذين يحترفون القتل وإبادة البشر، يتورعون عن أن يرتكبوا تلك الجرائم الشديدة الشناعة، مثل لف الأطفال بالسوليفان ثم ادخالهم إلى أفران عالية الحرارة، أو مثل ثقب جماجم الناس بمثقاب كهربائي. فأغلب ظني أن هذه الأفعال المقززة لا يفعلها إلا اليهود حصراً، وهم من وصفهم فولتير بأنهم "ملة شنيعة"، كما قال عنهم إنهم "أعداء الجنس البشري". ولعل في السداد أن يقال بأن اليهودي قد بني على هذا المبدأ: إنه يأخذ أكثر مما يعطي، بل إنه يأخذ ولا يعطي بتاتاً.

فالأمريكيون وعملاؤهم من المأجورين والحاقدين يبيدون الناس العزّل الأبرياء كل يوم في بلاد الرافدين. وإنها لهجمة لا أخلاقية بتاتاً. وهدفها تجزئة العراق على أساس عرقي في الشمال، وطائفي في الوسط والجنوب. وما من شيء يجري على الأرض إلا ويستطيع الذهن أن يتفرسه ويستقرئ فحواه مهما يتكتم على حقيقته ويحاول تخبئتها.

فمما يملك التوسم الاستباري أن يستوعبه بالبداهة هو أن الغيتو الصهيوني لا يعيش إلا إذا أحيط بالخراب من جميع الجهات. ولهذا السبب فقد

اندفعت جيوش جرارة إلى بلاد الرافدين آتية من جميع الملل والنحل، ابتغاء تخريبها وتجزئتها في آن واحد. أما البلدان العربية الأخرى فقصدفها عملاء الامبريالية من داخلها، وأحالتها الخيانة إلى حطام دون أية حاجة إلى الحرب. إننا شعوب تتواطأ عليها ثلاث قوى متحالفة متآزرة، وهي الامبريالية والصهيونية والطبقة الخائنة التي تملكنا ملك يمين، والتي تنفذ جميع أوامر الامبريالية مقابل أكداس من المال يلهطه بعض رجالها بالمليارات من عائدات النفط العربي الذي هو شطر من مقتنيات اليهود والغربيين.

ولا غلو إذا ما زعم المرء بأن العالم الإسلامي من المغرب إلى اندونيسيا يتعرض للتخريب الممنهج من داخله. ولكن المخربين وأسيادهم الامبرياليين والصهاينة لا يدركون أن تخريب أي جزء من العالم هو تدمير للعالم كله، وذلك لأن العالم صار بنية واحدة مثل الجسد الحي الذي يضطرب جملة إذا اضطرب عضو واحد من أعضائه الكثيرة.

* * *

ويلوح لي أن هذه الطبقة الخائنة قد أسست دولها على هذا المبدأ: الكثير من الصخب والدمدمة الإعلامية والقليل من الفاعلية والتأثير. ولكن أهم ما في أمرها أنها تعمل على تقليص المسافة الفاصلة بين البشر والبقر. فلقد استطاعت فورة النفط أن تهمش النخبة المبدعة التي كانت ظاهرة من ظواهر الحياة في العالم العربي منذ أواسط القرن التاسع عشر وحتى بداية عقد الثمانينيات. فاللهاث وراء المال قد حتم على الإنسان أن يتجوف أو يتجيف، إذ إن من المحال أن يستهلك السلع بإفراط دون أن يستهلك روحه، بل قل إن نسبة استهلاك الروح تتناسب طرداً مع نسبة استهلاك البضائع. ورحم الله ابن خلدون الذي أكد على أن الإنسان كائن يتفسخ في الترف أو في الثراء.

لقد ظلت الامبريالية تهوي بمطرقتها الكبيرة على رأس الإنسان العربي، بواسطة عملائها أو حلفائها، حتى ولج في برهة الترنح، وصار قابلاً للصب في القالب الذي تشاء. ولدى التدقيق تملك أن تلاحظ ما فحواه أن العرب أمة معتقلة

أو معاقة النمو، وفي حال من العطالة والشلل والتدجين واليأس، ويمارس عليها الغربيون والصهاينة صنفاً من أصناف الترويض لم يعرف التاريخ له مثيلاً من قبل، بل لعله أن يكون الخصاء دون سواه. فيوم أعدموا صدام حسين، الذي يستحق أن يعدم ألف مرة على الأقل، والذي لم يحكم العراق في أي يوم من الأيام - إنهم حينما فعلوا ذلك صبيحة عيد الأضحى في الثلاثين من كانون الأول، سنة 2006. قد وجهوا صفعة قوية لوجه كل عربي، بل لوجه كل مسلم في العالم بأسره.

وفي الحق أن المبدأ الذي تسير عليه مسيرة الغربيين التاريخية هو إما تدمير الآخر أو تدجينه، أي إزالته من الوجود، أو إرغامه على التنازل عن هويته وخصوصيته. وهذا ما يحاولون فعله الآن مع العرب. إن الغربيين هم القوة التي تخصي الآخر أو تشله وتحيله إلى صفر، أو إلى شيء يجاور الصفر. ولقد اعتمدوا مبدأ الخصاء مع المسلمين، وخاصة العرب. وهكذا تحقق رأي أبي نواس حين قال: (ليس الأعاريب عند الله من أحد).

فقد سامنا الأنذال خسفاً، وأنزلوا بنا من ضروب الغبن والحيف والامتهان ما لا تقوى على تحمله سوى الجبال وحدها. والغريب أننا نتكاثر كالأرانب، على الرغم من هذه الذلة وهذه المسكنة. ويبدو لي أننا من البلادة وانطفاء الحساسية بحيث نطيق المزيد من الجور والهوان وخسران الكرامة. أجل، نطيق ذلك كله دون أي حراك مهما يك نوعه.

*   *   *

وعندي أن الطبقة الخائنة التي تعتمد الأجهزة الإنكشارية لتنفيذ سياسة الامبريالية وتحقيق أغراضها هي التي ورطت العراق في حرب ضد إيران دامت ثماني سنوات (1980-1988)، وهي نفسها التي ورطته في الهجوم على الكويت سنة 1990. وكانت النتيجة أن هزم العراق أمام جيوش الغربيين، ولكن دون أن يقاتل. وهذه هي حالنا منذ سنة 1948. نحن غير مسموح لنا بأن نقاتل. فجيوشنا يلجمها لجام كبير عند شدة الحاجة إليها. وهذا يعني أن جيوشنا ليست

لنا، وإنما هي من مقتنيات الامبريالية التي تملكنا ملك يمين، كما تملك حكوماتنا أيضاً. وهذا يعني أن سياسة "ماكو أوامر" لازالت سارية المفعول حتى اليوم الراهن.

ولم تكتف الولايات المتحدة، أو قلعة الشياطين، بالقصف الفظيع الذي مارسته في العراق سنة 1998، وحصراً في شهر كانون الأول، بل حشدت حشداً عسكرياً من شأنه أن يثير الاستهجان، ودهمت الإقليم في آذار سنة 2003، وذلك بذريعة مؤداها أن العراق يملك أسلحة محرمة دولياً، ويتوجب عليه أن يسلمها للغربيين. ومما هو ناصع تماماً أنهم يكذبون، بل يعلمون أنهم يكذبون. أما غايتهم الحقيقية فهي أوضح من أن تخفى: تخريب العراق وتجزئته، وخلق حزازات بين الطوائف والعروق لا تمحوها الأيام بسهولة، أو على المدى المنظور، مع العلم بأن الناس في العراق يتعايشون تعايشاً أخوياً، وليس فيهم من له أية مصلحة بقتل أي إنسان من أية طائفة أخرى أو من أي عرق آخر. ولكن الامبريالية ليست عاجزة عن إنشاء فرق الموت التي توظفها في قتل الشيعة والسنة على السواء.

ومن عجائب هذه الغزوة اللاأخلاقية، التي هي نتاج لموت الضمير الأوروبي والأمريكي، أن جيوشها الغازية قد جاءت من جميع جهات الأرض. فلقد أتى اليابانيون والاستراليون والتايلنديون من الحافة الشرقية للكرة الأرضية. (سامح اليابانيون أولئك الذين ضربوهم بالأسلحة النووية وهجموا على العراق). ومن حافتها الشمالية جاء البولونيون والدنمركيون وسواهم، كما جاء جنود من بعض بلدان أمريكا اللاتينية التي يطحنها الفقر طحناً، والتي يلهط الأمريكيون واليهود معظم ثرواتها علناً. ولا يعرف المرء ماذا لجميع تلك الأمم الحقيرة في ذمة العراق.

إذن، هي ذي الأمم تتداعى علينا كما تتداعي الأكلة على قصعتها. ولكن الأمور أوضح من أن تخفى. فما جاءت تلك الجيوش إلى العراق إلا ابتغاء تهديمه وجعله غير قادر على تهديد أمن الغيتو الصهيوني حتى ولو بعد مئات السنين. ولقد صرحت تاتشر، رئيسة وزراء بريطانيا سنة 1990، قائلة: إننا سوف نسدد للعراق ضربة لن يقوم منها قبل مائتي سنة. لماذا؟ ما سبب هذه

الخساسة وهذه القسوة؟ إن السبب لا يخفى على أهل الحضور. ففي العراق نفط غزير سوف يظل يضخ طوال القرن الحادي والعشرين والقرن الذي يليه. ومثل هذا الإقليم من شأنه أن يرعب الصهاينة الذين رأوا فيه تهديداً ممكناً لوجودهم المقلقل. فمن أجل أن يبقى هذا الغيتو القميء، سوف يتعرض للخراب شطر كبير من الكرة الأرضية المنكوبة بالأوغاد من جميع الأصناف. وما من أحد يملك أن يخمن النتائج السلبية لهذا التخريب المريع.

هذه هي الأعجوبة الأولى. أما الثانية، والتي لا نظير لها في التاريخ بأسره، فهي الأمر الذي أصدرته القيادة العراقية للجيش عشية دخول الغزاة إلى الإقليم. ما هذا الذي يجري في منطقتنا منذ عام النكبة حتى اليوم؟ كيف ولجنا إلى زمن الوهن الشللي، بعد ما روّضتنا القوى المحلية وأرضختنا لإرادة الأغيار؟ لقد استل الغربيون مبيض حياتنا وأنزلوا بنا عقماً لا يعلم إلا الله متى سوف نعالجه، أو حتى ما إذا كنا قادرين على معالجته والتخلص من عواقبه الوخيمة.

وإنني لأصاب بالدوار، بل إن نفسي لتغثى، حين تخطر هاتان الحقيقتان في البال: انحلال الجيش العراقي عند شدة الحاجة إليه، وتألب هذا العدد الضخم من البلدان المتواطئة على التنكيل بالعراق والعراقيين. ومن الغرائب أنني لم أشاهد أحداً يدهشه هذان الحادثان المذهلان اللذان أراهما في أعاجيب الزمان. ويبدو أن لاعب الكشاتبين أقدر من غرائب التاريخ على إثارة الذهول في ذهن إنسان هذه المنطقة المنسوج من الفجاجة نفسها.

وفي تقديري أن حل الجيش العراقي عند شدة الحاجة إلى قواه الحربية هو مؤشر من شأنه أن يؤشر إلى أن ثمة حكومتين، واحدة ظاهرة، ولكنها لا حول لها ولا طول، وأخرى مستترة أو مكتومة، وهي التي تقبض على أزمّة الأمور وتنفذ إرادة الأغيار. فالحكومة الظاهرة لا مصلحة لها بحل الجيش، بل العكس هو الصحيح، إذ تقتضي مصلحتها أن يخوض الجيش أعنف قتال ممكن، وذلك نضالاً عن مصالح رجال الحكومة الظاهرة ومن يلوذون بهم من الطفيليات. ولو كان الامبرياليون يعلمون أن الجيش العراقي سوف يقاتل لما دخلوا العراق بتاتاً، لأن في مقدوره أن يجزرهم كما جزرهم الفيتناميون،

والكوريون قبل الفيتناميين. ولعل في الجواز أن يقال بأن ما يجري في العراق خلال السنوات الأربع الأخيرة هو برهان على أن إنسان منطقتنا موهون، أو مصاب بعطب داخلي كبير، ولولا ذلك لأبيدت القوات الغازية عند الحدود العراقية الجنوبية، وخلال الأسبوع الأول من الغزو. وههنا يمكن للمرء أن يتذكر قول لورنس العرب في كتاب له عنوانه ((أعمدة الحكمة السبعة)): ((العرب عرق منهك)).

ولكن ما يتوجب عليّ أن أرسخه في هذا الموضع هو أن رجال الحكومة الظاهرة أوسخ وأحقر وأحط من أولئك المستترين المكتومين، وذلك لأن الظاهرين ما جاؤوا إلى السلطة إلا وهم موقنون من أنهم أدوات بأيدي الامبريالية، بل بأيدي أدواتها من الإنكشاريين الجدد.

* * *

حسناً! ناصع إذن أن العالم، ولاسيما الغرب اللاأخلاقي، لا يهمه هم قبل السهر على أمن الغيتو الصهيوني. فالدعم السياسي والمادي الذي قدمه الأمريكيون، بل جميع الدول الناطقة باللغة الإنجليزية كلغة أولى، لليهود هو شيء لا مثيل له في التاريخ البشري كله. وإن هذا الأمر من الشذوذ بحيث يثير استهجان الإنسان الحساس، حتى وإن يكن يهودياً أو من الناطقين بتلك اللغة الإنجليزية. ولا مرية في أنه آية ناصعة على انحطاط الغرب وسخافة عقله. ثم إن إنساناً يحترم نفسه لا يملك أن يحترم عالماً وضع جملة قواه، على نحو لا معقول، تحت تصرف اليهود. فالكثير من الدول تدفع لهم الجزية في هذه الأيام. وكان من نتائج هذا الدعم المفتوح أن أضفى على الصهيونية صفة التعنت والغطرسة، ثم الإصرار على هضم حقوق الفلسطينيين التي أقرتها الأمم المتحدة، علماً بأن الغيتو الصهيوني، وهو الشاذ في كل شيء، قد نشأ بقرار من تلك المزبلة القذرة، وكذلك بوعد من وزير خارجية بريطانيا. فهل نشأت دولة على الأرض بقرار مثل ذلك القرار وبوعد مثل ذلك الوعد؟ وهل هنالك من شذوذ بعد هذا الشذوذ؟

وأهم مافي أمر هذا الغيتو أنه لا يملك أن يكون سوى كيان ملفق مسخ يشبه الطرح، على الرغم من الدعم الكوني الكبير الذي يتلقاه من ألف جهة وجهة. فهو يحتاج إلى جميع الأسانيد العالمية كي يتمكن من الاستمرار في الوجود. وفي قناعتي أن هذا الاسناد الكلي للغيتو الصهيوني هو أمارة من أمارات اتضاع الجنس البشري بأسره.

ترى، ما السبب الذي دفع الغربيين إلى الإقدام على هذا الفعل المتطرف العجيب؟

إنه واحد من أمرين، أو الأمران معاً: هيمنة اليهود على المجتمعات الأورو- أمريكية، وارتباط تلك المجتمعات بذلك الكتاب الذي يسمى التوراة. فلقد اعتاد اليهود أن يتحالفوا مع القوى الصاعدة في فضاء التاريخ، إذ من المؤكد أنهم هم الذين فتحوا أبواب مدينة بابل ليلاً من الداخل ليلجها كورش الفارسي وجيشه اللجب. أما في العصر الحديث فقد هيمنوا على غالبية القوى الصاعدة، وأرغموها على دفع الجزية لهم، وذلك بواسطة التسلل على طريقة النسناس.

وعندي أن السبب الأول أقوى من الثاني، ولكن العاقل لا ينحّي الموضوع الديني أو يخرجه من المعادلة كلياً. ومما يشجع المرء على أن يذهب هذا المذهب هو أنه لا مصلحة لأحد، أكان شرقياً أم غربياً، في تقديم أي دعم للغيتو الصهيوني الذي لا ينفع أحداً سوى اليهود.

ولعل في الميسور أن أضيف سبباً ثالثاً، وهو أن الغربيين يكرهون العرب والإسلام، أو شعوب منطقتنا التي أفرزت هنيبال وأنجبت محمداً (ص) وصلاح الدين. وإن هذه الكراهية من شأنها أن تجر مياه الغربيين إلى طاحون اليهود بطبيعة الحال. ومن طباع الغربيين أنهم لئام أوغاد لا ينسون ثأرهم. فالمكان الذي هزموا فيه عند نهاية الحروب الصليبية، أعني فلسطين، هو الذي بنوا فيه الغيتو الصهيوني، على الرغم من إرادة العرب، فكأنهم ثأروا بهذا الإنجاز لإخفاقهم السالف.

وقد استطاع أهل تلك الملة التوراتية، وهم سادة الكذب والتزوير والانتحال، أن يلفقوا من الأكاذيب ما يجعل الغربيين يتعاطفون معهم. وهذا

العطف هو الذي مكنهم من بناء الغيتو الصهيوني على أرض فلسطين وطرد أهلها منها بقوة السلاح. ولو لا الدعم اللامحدود الذي قدمه الغربيون للصهاينة لطردهم الناس بالحجارة من بلادنا الحبيبة. ولكننا لن نتمكن من إحراز أي نصر استئصالي عليهم قبل أن يسأم منهم الغربيون ويتخلوا عنهم كلياً. وهذا أمر لن يتحقق إلا بعد أزمة اقتصادية حادة تمس الغرب في الصميم.

وهذه هي بعض أكاذيبهم الكبرى الحديثة:

أولاً- ادّعو أن النازية قد أبادت منهم ستة ملايين نسمة. وهذا نبأ لا يصدقه إلا معتوه. ولكنه مفيد لهم كثيراً. فهم يبتزون الألمان بذريعة التعويضات. كما أنهم يحصلون على عطف الذين يتوهمون أن اليهود ضحية الطائفية وعدم التسامح. وكلما أراد الصهاينة أن يجزروا الفلسطينيين ذكرّوا العالم سلفاً بأنهم ضحايا الإرهاب النازي. فتحت بند المحرقة تراهم يحرقون الشعب الفلسطيني كل يوم.

ثانياً- زعموا أنهم لم يطردوا الفلسطينيين من ديارهم، بل الحرب هي التي أرغمتهم على النزوح إلى البلدان المجاورة. وفي الحق أنه لم تكن هنالك أية حرب، بل مناوشات صغيرة ليس من شأنها أن تبعثر شعباً بكامله وتشرده صوب كل أفق. فما طرد الفلسطينيين من ديارهم سوى المجازر التي ارتكبها الصهاينة في عدد كبير من القرى والمدن الفلسطينية. ولقد وصفوا حالهم بأنهم يدافعون عن أنفسهم ليس إلا. أما الفلسطينيون فمخربون وإرهابيون ويناضلون عن الشيطان. يقيناً إن الفلسطيني منذ عام النكبة حتى اليوم يكافح لكي يحصل على قطعة من أرض وطنه تصلح قبراً له إذا ما وافاه أجله ذات يوم. إذن، ها قد حل البذاء محل الحياء.

ثالثاً- قدموا أنفسهم للعالم بوصفهم أناساً معتدى عليهم من قبل جيوش جرارة، ثم اوهموا أنفسهم بأنهم هزموا تلك الجيوش، وبأنهم صناديد، بل ((طرزانات عبرانية))، على حد عبارة آرثر كوستلر، الكاتب الصهيوني المعروف، وصاحب رواية ((ظلام في النهار)). وقد أثبتت الممارسة التجريبية أنهم لا يصلحون للقتال، فهم لم يحتلوا أية أرض بتاتاً قبل اخلائها من القوات العربية أولاً. وما خاضوا معركة ضد أي جيش عربي إلا وكانت الهزيمة نصيبهم، ما لم يكونوا قد هجموا على قطعة صغيرة جداً بقطعة كبيرة جداً، كما جرى في

المالكية مثلاً. وحين يعلم المرء أن ثلاثة من الجيوش العربية التي دخلت فلسطين في عام النكبة (المصري والعراقي والأردني) قد أنشأها الإنجليز للتصدي للألمان إذا ما وصلوا إلى قناة السويس، أو إلى ينابيع النفط في العراق، فإنه سوف يستهجن كيف تمكنت تلك القوة الصهيونية الحديثة العهد بالسلاح أن تهزم تلك الجيوش المعدة لمواجهة الجيش الألماني، علماً بأن مصادرهم تؤكد على أنهم كانوا لا يملكون من السلاح إلا القليل جداً. فلن يرتاب أي عاقل في أن مؤامرة قذرة هي التي حققت لهم النصر. بيد أن اليهودي الذي يحمل سلاحاً ويقاتل ضد طواحين الهواء، مثله في ذلك مثل دون كيشوت، إنما ينهض بمهمة ليست من سوس نفسه، فإذ يحمل السلاح يتبدى كالطفل الذي يلبس عباءة جده.

فلا يستغرب المرء أن اليهود يلفقون الأكاذيب في هذه الأيام. إنهم أقدر الكائنات البشرية على التزوير والاختلاس واقتراف مساوئ الأخلاق منذ أقدم عصورهم. وليس هنالك ما هو أدل على هذه الحقيقة من توراتهم، وهي الكتاب الملفق بشكل لا يخفى على أي عاقل. وفضلاً عن ذلك فأن فيه من السفالات ما يكفي لتصنيفه كسفر في مساوئ الأخلاق. ويبدو أن مثالب اليهود الكثيرة هي التي جعلت إمانول كانت ينعتهم بأنهم ((ملة من الغشاشين))، وذلك في كتاب له عنوانه ((علم الإنسان)).

* * *

وعلى أية حال، فإن شدة اهتمام الغربيين بأمن الغيتو الصهيوني قد جعلتهم يبتكرون فكرة خطيرة مؤداها عزل المسلمين عن بقية الجنس البشري. ولكي يتم هذا العزل فقد عمدوا إلى شيء يسمونه ((الإرهاب)). العرب يمارسون الإرهاب. هذا هو ما تريد الامبريالية والصهيونية أن تقنع به جميع أمم الأرض. ولكي يقدموا برهاناً ملموساً فقد اصطنعوا حادثة الحادي عشر من أيلول المعروفة. كما ضربت أجهزة الأمن الأوروبية والأمريكية عدة أماكن أخرى بينها لندن ومدريد. فالمطلوب أن يذبح المسلمون في كل مكان، ولاسيما في فلسطين والعراق وأفغانستان، دون أن يتعاطف معهم أحد، وذلك لأنهم

إرهابيون، كما يزعم الغربيون الذين أسسوا حضارتهم على مبدأ الإرهاب الذي مارسوه في العالم كله طوال القرون الخمسة الماضية.

ومما هو ناصع أمام بصري أننا في زمن العجائب. فالمنظمة التي تسمى منظمة التحرير قد تنازلت عن فلسطين لليهود في عاصمة النروج، وذلك في أيلول سنة 1993. وفي ظني أن التاريخ سوف يهرق نهراً من دماء الشهداء الفلسطينيين كي يغسل عار أوسلو، أو عار التنازل عن الوطن للعدو، ودون أي مقابل سوى ما اكتسبته حفنة من الانتهازيين السمان لجيوب رجالاتها المتاجرين بآلام الناس، فصار كل فرد من أفرادها يعيش ((في مهد عيسى))، كما يقول أحد أمثالنا الشعبية، أو يعيش مترفاً مرفهاً بين الجثث والدماء وخرائب البيوت والحقول التي جرّفها اللؤم، واجتث تينها وزيتونها وكرمتها ورزق أصحابها. ومما لا يعنو للدحض أو للتفنيد أن الفلسطينيين لم يتعرضوا للقتل في أية فترة من فترات تاريخهم مثلما تعرضوا له بعد اتفاقية أوسلو الشائنة، بل الغبية قبل كل شيء. ويبدو أن المؤامرة هي محور تاريخنا منذ عام النكبة حتى اليوم.

ولست أدري من الذي خولهم الحق في إعطاء اليهود حقلاً أمتلكه أنا في الجليل الأدنى وامتلك سنداً من حكومة الانتداب البريطاني يثبت حيازتي لذلك الحقل. لقد منحوا شيئاً لا يملكون لأناس لا يستحقون، تماماً كما فعل بلفور من قبل. وفي ذلك الفعل ثمة صفاقة ما بعدها صفاقة. وإني لأشعر بأن هذا الموقف الصريح واجب علي، وفي الوقت نفسه حق من حقوقي التي يبيحها منطق الأشياء. وعندي أن من واجبات الضمير النزيه أن يعلن الحقيقة صافية، أو ناجية من كل تدليس، وإن يكن ذلك ضمن نطاق المباح فقط.

ومما يستحق التثبيت في هذا الموضع أن الطبقة الخائنة قد وجهت إعلامها إثر النكبة نحو هدف خلاصته إزالة الغيتو الصهيوني من الوجود. ولكنها غيرت لهجتها بعد مناوشة حزيران، إذ راحت تمحور كلامها حول مقولة محددة وهي" إزالة آثار العدوان". ولكنها غيرت موقفها مرة ثانية وأخذت تتحدث عن السلام بعد سنة 1973، فنتج عن ذلك ثلاث اتفاقيات، أولاها اتفاقية معسكر داود، ثم اتفاقية أوسلو واتفاقية وادي العربة، وكلها

اتفاقيات ركوع واستسلام لا تنم إلا عن الاستخذاء، بل عن الانحطاط الشامل أو الكلي الحضور.

*   *   *

وعندي أن مثالبنا أو صفاتنا السلبية أخطر علينا من أعدائنا. وأبرز تلك الصفات ثلاث: الوسخ والفوضى والضجيج. ثم يأتي الكسل أو البلادة وفجاجة الشخصية، أو بعدها عن النضج والعمق. فنحن ما زلنا عاجزين عن التخلص من فضلاتنا، مثل صغار الأطفال تقريباً. والأقذار تملأ شوارعنا ولا أحد يبالي بذلك أو يهتم، إلا بعض الناس ممن أوتوا درجة حساسية عالية. إن مثل هذه المثالب الكثيرة والراسخة رسوخ الأطواد لن تسمح للعرب بالتحرر، ولن تسمح لهم باستخلاص نفطهم من براثن أعدائهم، حتى ولو بإحراقه. وما من حصيف إلا ويدرك أن المعركة بيننا وبين الامبريالية لا تدور إلا حول النفط، وأن الغيتو الصهيوني ينبع من آبار النفط العربية، وأنه سوف يجف ويتلاشى، على الأرجح، يوم تجف تلك الآبار.

وعندي أن مصير أي شعب من الشعوب لا يقرره اقتصاده، كما زعم بعض الزاعمين، وذلك على شدة أهمية الاقتصاد في الحياة. وإنما تقرره صفات شخصيته التي لها درجة عالية من الديمومة والاستتباب. فالاقتصاد نفسه لا يسعه أن يكون شارطاً غير مشروط. ففي زعمي أن كسلنا وفجاجة شخصيتنا، أو ضحالتها وفقرها بالمحتوى الجوهري، هما اللذان يحددان اقتصادنا ومصيرنا أو الوضع الذليل الذي نحن فيه الآن. إن الانسان يأتي من الداخل وليس من الخارج.

وفي ميسور المرء أن يلاحظ ما فحواه أن اليهودي قد انتصر في عصر السفلس والإيدز، أي في عصر انحطاط الجنس البشري، وأنه ما أحرز نصره إلا بسبب ترمد الضمير في أوروبا وأمريكا. وهذا يعني أن موت الإنسان قد كان واحداً من الشروط الشارطة لانتصار اليهودي وإنشاء دويلته الزائفة. ولكن هذا كله ليس كافياً، إذ لا بد من الأرضية المادية الجيدة لنشوء الغيتو الصهيوني. وقد استطاع النفط أن يفرش تلك الأرضية بالذهب كي يجيء اليهود من جميع

الجهات. فمعضلتنا مع الصهيونية هي في لبابها معضلة النفط العربي حصراً. وهذا يعني أن النفط قد جاء نقمة علينا ونعمة على خصومنا، بكل وضوح.

ومع أنه لا تجوز الاستهانة بالشر الآتي من الخارج، ومع أن الشر الداخلي يتم بتحريض من الشر الأول، أو بالتفاعل وإياه، فإنني ميال إلى الاعتقاد بأن الطبقة الخائنة، التي عززها النفط وجعلها منيعة متينة، هي المصدر الأكبر لمصائبنا كلها. فهي التي سلمت فلسطين للصهاينة والعراق للغربيين، وهي التي تناول كل يوم نهراً من النفط بحجم نهر النيل للرأسمالية العالمية. وعندي أن العرب لا أمل لهم في التحرر إلا إذا دمروا هذه الطبقة ومعها جملة بناها السياسية والعسكرية والإنكشارية. نعم، إن العرب سوف يتحررون إذا استطاعوا أن يدمروا الجيوش العربية حصراً. والحقيقة أن الإنكشاريين هم أخطر القوى لأنهم يرغمون الأمة بأسرها على الركوع أمام إرادة الأغيار، وبذلك فإنهم يضمنون تدفق النفط إلى الغرب، كما يحرسون حدود الغيتو الصهيوني أحسن حراسة. (هنالك الآن ثلاثة آلاف جندي مصري يحاصرون قطاع غزة من جهته الجنوبية) يقول المتنبي:

وسوى الروم خلف ظهرك روم   فعلى أي جانبيك تميل؟

*   *   *

وللطبقة الخائنة كتابها الخونة الذين يكملون الإنكشاريين ويتناغمون معهم، سواء أكانوا يعلمون أم لا يعلمون. فكما يمارس ساسة تلك الطبقة فعل الخيانة السياسية، وتجارها فعل الخيانة الاقتصادية (معظم أموال العرب في مصارف الغرب)، فإن مثقفيها يمارسون فعل الخيانة الثقافية أيضاً. والحقيقة أن هجماتهم قد انصبت على الإسلام الذي زعموا بأنه يضطهد المرأة، وكذلك على اللغة العربية التي ادعوا بأنها لا تصلح للاستعمال لأن قواعدها شديدة التعقيد، فالمحكية في نظرهم خير منها، ثم على التاريخ العربي الذي لم يروا فيه سوى تاريخ القصور والخمور والجواري والغلمان والقتل السياسي والطغيان، وما

إلى ذلك من سلوب شائنة من شأنها أن تدفع الإنسان العربي إلى التنصل من تاريخه الذي صوروه معيباً مخجلاً لا خير فيه. ولقد كتب بعضهم تاريخ العرب (أحدهم كتبه شعراً في ثلاثة أجزاء) غير ذاكرين سوى الأفعال السلبية، ولاسيما حوادث القتل السياسي وحدها، وذلك في محاولة منهم لتقديم التاريخ العربي بوصفه أكبر مجلى للهمجية بين جميع التواريخ. وهذا يعني أن هجومهم الحاقد وغارتهم العاصفة قد انصب كل منهما على المقومات التي تؤلف المحتوى الجوهري للهوية العربية، أو على ركائزها التي تؤسسها وتصنع وحدتها.

فالعرب أمة يحرسها ماضيها بل ما من شيء يحرسها سوى ماضيها وحده، وهو الكنز الذي لا تملك سواه. ولكي تنكشف هذه الأمة عارية دون أي ستار يسترها، ولكي تغدو بغير وقاية أو حماية مهما يك نوعها، فإن العدو يكيل الضربات لذلك الماضي الحافظ والموحد للعرب بكل ما أوتي هذا العدو من قوة.

أما الشعر العربي فتلقى منهم أكثر الضربات دلالة على الرغبة في التهديم. وليس ذلك بالصدفة، فهو أعظم انجاز حضاري أنجزه العرب في تاريخهم الطويل. وللمرء أن يلاحظ ما فحواه أن خروج العرب من التاريخ قد تزامن مع انحطاط الشعر العربي وزواله، وذلك مع سقوط بغداد، أو بعد ذلك بقليل. ويكفي أن يتذكر المرء أن بعض مثقفي الطبقة الخائنة قد أنكروا الشعر الجاهلي يوم راحوا يبغبغون أقوال بعض المستشرقين، وأن التطرف قد بلغ بواحد منهم إلى إنكار قيمة الشعر العباسي، كي يدرك إلى أي مدى كانت الطبقة الخائنة ضالعة في استئصال الجذور التي تنبثق منها الشخصية العربية. ولا هدف لهذا الاستئصال سوى أن يستمر الغيتو الصهيوني في الوجود، وأن يثابر النفط على تدفقه باتجاه الغرب، وذلك بعد زوال الأسس الصالحة لترسيخ وحدة الأمة العربية في وجه أعدائها. أو هذا كله من أجل كيان تافه لا يعادل قشرة بصلة، ولا يعني شيئاً لأحد، حتى ليهودي، إن كان عاقلاً؟

ولكن، بودي أن أؤكد على أن المعري، الشاعر العباسي، هو أنموذج، لا للشاعر وحده، بل للإنسان قبل كل شيء. كما ابتغي التنويه بأن هذا كله من

شأنه أن يقنع من كان قادراً على الحضور بأن حجم العدو لا يقل عن حجم جبال هملايا.

وفي ميسور المرء أن يلاحظ الخيانة التي تمارسها الطبقة السائدة إذا ما تأمل بعض الأمور التي أعطيت للبديهة على نحو مباشر. فمثلاً تكثر أجهزة الإعلام من إظهار قادة العدو على شاشات التلفزيون الناطقة باللغة العربية. والأهم من ذلك أن الصحف المكتوبة بما يسمى اللغة العبرية بغير وجه حق كثيراً ما تظهر على تلك الشاشات نفسها، ولكن دون أية حاجة إلى ذلك. وبداهة، إن هذا ضرب من ضروب التطبيع. وهو مدروس وموجه سلفاً، والغاية منه تعويد المواطن العربي على واقعية الصهيونية، فكأنهم يطالبونه بالتكيف معها لأنها حقيقة موجودة بالفعل. إنهم يلقموننا هذا الغيتو البغيض لقمة وراء أخرى، وعلى مهل وتريث وأناة. فهم ليسوا على عجلة من أمرهم.

ومما هو معلوم أن بداوة الشريف حسين، عميل الإنجليز الذي وافق على تسليم فلسطين لليهود، قد دمروا الخط الحديدي الحجازي، ولكن الحكومات الجديدة، حكومات الاستقلال الزائف، لم تعمل قط على إنشائه من جديد، مع أنه يربط ثلاثة أقاليم عربية بعضها ببعض. ومما تملك أن تراه بالعين المجردة أن رجال الحكومات ((المستقلة)) قد أسرفوا في بناء القصور التي يتنعمون بها مع جواريهم وحاشياتهم، ولكنهم لم يعمدوا البتة إلى بناء خطوط حديدية قادرة على أن تؤلف بين الأقطار العربية، مع أن هذا التأليف هو الأساس الأول لوحدة العرب. وأغلب الظن أن أسيادهم الامبرياليين قد سمحوا لهم بالقصور ولم يسمحوا لهم بالخطوط الحديدية. ألا إنهم ينفذون الأوامر وحسب.

فالامبريالية لا تسمح لهم بمثل هذه التنمية أو هذا التطوير، لأن نمو العرب أو تقدمهم هو خطر كبير على الصهيونية والغربيين معاً. إنهم لا يحلون ولا يربطون شيئاً سوى سيور أحذيتهم فقط. وفي تقديري أن العرب لن ينالوا أياً من العنصرين المؤسسين لكل مجتمع حديث، أعني الديمقراطية والتكنولوجيا. ولن تسمح لنا الامبريالية بالإسلام ولا بالاشتراكية ولا بالديمقراطية، وإنما بهذه الحال الهلامية السائدة الآن. وفي الميسور أن يؤكد المرء على أن من يريد أن يفهم ما يجري اليوم في العالم العربي ينبغي أن يبدأ بفهم التجربة النادرة التي

عاشها محمد على باشا الذي لم يسمحوا له بمغادرة حدود مصر، كما لم يسمحوا بأية تنمية أو تطوير في ذلك الإقليم. وبعد أن هزموا الباشا الألباني الأصل، راحوا ينهبون مصر نهباً يجهل الإنسانية جهلاً مطبقاً.

*　　　*　　　*

ثم إنه ما من طفل في البلدان العربية إلا ويعلم أن الطبقة الخائنة تدوس كرامة المواطن يومياً وتكمّ فمه وتمارس عليه امتهاناً لا مثيل له حتى في عصر الإنكشاريين القدامى، أعني الأتراك العثمانيين. فيوم تسلمت هويتي الجديدة من مؤسسة اللاجئين بعد مضي أسبوعين تقريباً على إصابتي بالأزمة القلبية في تشرين الأول سنة 2006، شعرت بإهانة كبيرة حين بصمت بأناملي العشر مرتين على ورقة تخص الإنكشاريين الجدد. أن تبصم عشرين مرة ذاك فعل لا لزوم له بتاتاً، ولكنهم يتعمدون أن يرغموك على الشعور بالهوان والامتهان. ولهذا فقد تمنيت ساعتئذ لو أن تلك الأزمة قد أودت بحياتي وأنقذتني من هذه الإهانة الفادحة الغاشمة، أو من تلك البرهة السافلة الشائنة.

وليست الإهانة هي الغاية النهائية من هذا الفعل المذل، بل الغاية أن يشعر المرء بأنهم يملكونه ملك يمين، وكذلك بعجزه عن أن يفعل أي شيء ذي بال، لأنه لا حول له ولا طول. إن هذا الشعور باللاحولية هو بالضبط ما يريدونه من المواطن، وذلك لأنهم يبتغون إقناعه بأنه خصي، كما يريدون منه أن يعتاد خصاءه ويألفه ويتكيف معه، بحيث يصير واحداً من طباع نفسه، أو عنصراً دائماً وراسخاً في بنيته الجوانية. فكأنهم يقولون للمواطن: خير لك أن ترضى بمصيرك هذا، راغماً صاغراً، مستسلماً لقدرك المحتوم، دون أن تحاول القيام بأي جهد بغية خلاصك من بين براثنهم، وذلك لأن أي فعل تقوم به هو عبث لا جدوى منه بتاتاً. وبهذا اليأس من الخلاص يتعود المرء الذلة والمسكنة، ويستمرئ الهوان والامتهان، ويقبل بخصائه أو باجتثاث شخصيته وتجريف هويته، فيستخذي حتى وإن داسوا على رأسه صبحاً ومساءً. وأغلب ظني أن هذا الموضوع قد درسه خبراء نفسانيون في الدوائر الامبريالية

المختصة بترويض الشعوب. فالسياسة اليوم هي فن تدجين الأمم التي تضمر أدنى تهديد لمصالح الامبريالية أو لمصيرها.

إذن، ها نحن أولاء مطروحون أرضاً بالفعل لا بالوهم، ولا أحد يدري كيف يمكن لنا أن نستخلص الزمان من أشداق الفراغ.

*   *   *

والآن، بعد هذا العرض الطويل، يحق للذهن أن يطرح جملة من الأسئلة الكثيفة الحساسة. ترى، ما المساحة التي يحتلها اللامعقول من رقعة التاريخ؟ ثم ألم يتمكن الأمريكيون، أو المغول الجدد، من إحالة الحياة الحديثة إلى جحيم جاحم مقيت؟ لقد راح الغربيون ينفقون ما نهبوه من ثروات الآخرين على التسلح واكتشاف الفضاء وجميع أصناف اللهو والبطر، فماذا عساها أن تكون قيمة هذه الحضارة المنهوبة من لحوم الضعفاء؟ والعلم الذي أرغم الأمم الأخرى على الركوع أمام الأمم المفترسة اللاحمة، والذي بجّله رينان أيما تبجيل، هل يملك العاقل الحساس أن يغدق عليه أية قيمة؟ فما من قيمة عندي إلا لمن يتساءل عن القيمة، شريطة أن يكون مهموماً بهمّها على نحو أصيل.

الفصل الثامن
الحنين والذكريات

ها أنا ذا الآن في الشطر الشائخ من عمري، لا أحوز شيئاً ذا أهمية سوى ذكريات، أو سوى أطياف تطوف في البال آتية من النائي الموغل في القصاء، والذي لا يعنو لأي استرداد ما لم يكن في الوهم وحده. ولا غلو إذا ما ادعيت بأن بعض هذه الذكريات ليست سوى صخور باهظة أعتلها فوق كاهلي دون أي أمل في الخلاص من عبئها المنهك الجسيم. ففي بعض الأحيان تطحنني الذاكرة كما يطحن القمح في الطاحون. وفي الحق أن مذراة الزمن لم تترك لي شيئاً سوى هذا الحمل الذي يبهظ روحي الأسيان.

فأنا أحن إلى مراتع طفولتي في مسقط رأسي، أحن إلى المدّان وحجر الغمارة والصافح ووادي العين ووادي الشومر وبركة الرخ وعين دامية، وسهل الحمى الذي دارت فيه معركة حطين المفصلية. ثم إنني أحن إلى أشجار التين والزيتون والكرمة واللوز والمشمش في كروم جدي علي المأهولة بالطيور المرحة. وأحن، قبل كل شيء، إلى تلك الفتاة الصغيرة، ابنة الجيران التي كانت تراني زوجها وأراها زوجتي. ومن شأن هذا الحنين أن يكوي ضلوعي، فهو الوجد اللافح للوجدان، والوجد هو المحتوى الأكثر أصالة ونفاسة في سريرة الإنسان، لأنه ناتج فقد ديمومي حزين. وعندي أنه المصدر الذي تصدر عنه جملة الآداب العالية، ولا سيما التراجيديا. وما من شيء يعادل اللهفة الوجدانية، لأنها الينبوع الأكبر لكل ما هو جدير بالاهتمام.

وكم أصاب القدماء حينما جعلوا أبرز علائم المروءة الوفاء للأصدقاء، والحنين إلى عهد الصبا، أو إلى ما انقضى أو اندثر من زماننا الذي لا يستعاد. ومن الواضح أن اللغة العربية تشتق المروءة من المرء. وهذا يعني أنه لا يستحق أن يسمى إنساناً إلا من كان ذا مروءة بالفعل، وأن من كان ذا مروءة يحن ويشتاق بلهفة تشوبها لوعة واعتلاج أحياناً. فلا غلو إذا ما قلت بأن بعض الذكريات تنهش كبدي كما يفعل ذلك النسر الذي ينهش كبد بروميثيس المصلوب على صخرة في جبال القفقاس.

ومع ذلك، فإن خيالي القلق يظل يجوب الذكريات ويمخر عبابها، ويذرعها جيئة وذهاباً دون كلل أو ملل، في هذه الأيام. ولكن ما الجداء من أن أحرث البحر؟ ربما كان الإنسان لا يسرف في الحنين إلى ماضيه إلا لأنه لم يبق له حاضر ولا مستقبل. فلكم نحن كائنات مغبونة وشقية، حتى وإن اعتقدنا بأننا سعداء. فأنا أشعر اليوم بأن العالم ما عاد في حوزته شيء سوى الجلافة والشراسة والحرن، مما يؤكد أنني أكابد حصاراً يضربه عليّ هذا الفراغ الوبائي الشامل. يا إلهي! إن توتراتي الداخلية تقضمني كما تقضم الفئران الخبز اليابس.

وللذاكرة سلطة ونفوذ لا تبذهما أية قوة، وذلك لأنها قسرية وتلقائية في آن واحد. ومن المحال أن يكون الإنسان لولا الذاكرة. فإسهامها لا يقل عن إسهام اللغة في صنع الماهية البشرية، بل إن من المتعذر أن تكون اللغة لولا وجود الذاكرة. وهذا يعني أن قوة التذكر هي أم الإنسان الذي لا محيد عن أن تتآزر ألف قوة وقوة كي يتمكن من المجيء إلى الكينونة بالفعل. ولعل أنبل ما فيه حنينه وأشواقه الحميمة الصادقة. وها أنا ذا تستولي عليّ أشواق لاعجة دافئة، ويساورني، بل يبرّح بي، حنين زاخر، يجعل الروح يختلج لشدة ما فيه من لهفة وعذاب. ويبدو أن جميع الحساسين مذذورون للشقاء على الرغم من إراداتهم.

* * *

وهاهي ذي عقارب الندم تلدغني من أجل أفعال فعلتها حقاَ، ولكنها تفتك بي من أجل ما أحجمت عن القيام به من أعمال هامة. فكثيراً ما أقول لنفسي: ليتني ما فعلت تلك الفعلة الشنعاء، ولكنني سرعان ما أطفئ هذا النوع من الأسف. أما النوع الثاني، أقصد الأسف على ما لم أفعل، فيلبسني من الداخل بحيث يتعذر عليّ أن أغادره إلا بكل مشقة وعسر. وفي زعمي أنك حين تبدأ بالندم على ما لم تفعل، مع أن الفرصة كانت سانحة ولكنك لم تختلسها، فإن شيخوختك تكون قد بدأت حقاً.

وعلى أية حال، ها إنني أحنّ إلى أيام زحلة، أو أيام الصبا الباكر، حينما كنت أشتغل عاملاً زراعياً في حقول تلك المدينة غير بعيد عن نهر الليطاني الهادئ الأليف، يوم كنت أشوى وأسلق في أتون تموز وآب اللهابين وشمسهما المتأججة الحارقة، وتفوح مني رائحة الصنان الذي هو ذفر الإبطين. أما ثيابي فمهلهلة وملفقة مثل مرقعة الدراويش. وأحن إلى مخيم بعلبك الموبوء بالبق والفئران، يوم كان الفقر يطحننا بحيث لا نجد عشاء بالمعنى الحرفي للكلمة. وذات يوم دخلت بقة إلى واحدة من أذني وظلت تعذبني طوال ثلاثة أيام وهي تتحرك في داخلها دون أن أجد وسيلة تفضي إلى الخلاص. فاستشرت طبيب الاونروا فأرشدني إلى حل: ضع قطرات من الزيت في الأذن المنكوبة. ووضعت الزيت فخرجت البقة بعد دقيقة أو اثنتين.

وأحن إلى أيام التهريب، عندما كنا نعبر سلسلة لبنان الشرقية لننقل بضاعتنا القليلة والبسيطة من سوريا إلى لبنان وبالعكس. وكان هنالك قاطع دروب مشهور يسمى دياب القاق، لعله من ضيعة اسمها بريتال، وله شاربان يحط النسر عليهما لشدة ضخامتهما. وهذا هو التعبير الدارج يومئذ لوصف أي رجل صنديد. ولقد رآه بعض المهربين، أما أنا فلم يقيّض لي أن أصادفه بتاتاً، مع أنني كثيراً ما تمنيت أن أراه. وقيل عنه بأنه أباد مائة رجل. ولقد غدر به أعز صديق لديه، وذلك طمعاً بالجائزة الضخمة التي أعلنت عنها الحكومة اللبنانية يومئذ.

في تلك الأيام كان العمر في الريعان، وكانت الدنيا بأسرها عذراء يانعة طازجة. وكنت أغني بصوت مطرب في ذلك العهد. لكم هو بائس ذاك الذي لا يغني ولا يطرب للغناء. إنه كائن لا يخلو من خبث ومن أنانية، قد تكون مفرطة في بعض الأحيان. ففي الرقص والغناء يتبدى الفرح من حيث هو تجاوز أو سعادة. ولعل من شأن هذا المذهب أن يتضمن ما فحواه أن الجميل هو التجلي الساطع للمتاق، أو الحضور العيني لما تبحث عنه النفس طوال حياتها. فأين ولت تلك الأيام التي كنت أذوق فيها طعم الهناء حتى وأنا في جوف الشقاء؟ أليس من المفارقات أن تكون الندرة أرأف بنا من الوفرة؟

ذات يوم قبضت أجرتي في نهاية الأسبوع، فكانت تسع ليرات لبنانية، أي بمعدل ليرة ونصف الليرة عن كل يوم من أيام العمل. وفي تلك الهنيهة شعرت بأنني أمسك بلجام الكون أو بمفاتيح المستقبل. إنها الدهشة الصبوية السعيدة. فلكم كانت الدنيا مكتظة بالعذوبة في ذلك الطور الفتيّ. إن تسع مليارات من الليرات الذهبية لن تملك اليوم أن تحرك أية شعرة في مفرقي الأصلع. وبهذه المناسبة أود أن أنوه بأن من يفطن لأولئك الذين يطعمونه ويجوعون، هو إنسان نبيل. ولعل أسوأ ما في هذه الدنيا أن الذين يعملون يتضورون جوعاً، وأن المتخمين يعانون السآمة لأنهم لا يجدون ما يعملون.

ولكم أحن إلى نساء كن لي بمثابة أمهات أو أخوات أكبر سناً. وكثيراً ما أشعر بأن الصلة بالمرأة، حين تكون من هذه الفصيلة الأمومية أو الإخائية، لا تقل متعة عن تلك الصلة الغرامية أو العشقية حتى وإن كانت شديدة الصدق. فأنا أحن إلى جدتي خضرا التي ما أحبني أحد أكثر مما أحبتني. فقد اعتادت أن ترأمني وتكلأني وتضفي عليّ من الدفء والحنان ما تضفيه الأم الرؤوم على طفلها الأثير. فيا لهذا التوقان المنهوم الذي لا علاج له بتاتاً!

كما كنت طوال حياتي أتمنى لو أن لي أختاً طيبة لتنشأ بيني وبينها صلة وجدانية أصلية قد تملك أن ترسخ الحياة وتعمقها وتضفي عليها قطرات من السعادة والهناء. ولقد أحسنت إليّ كثيراً صفية الكموني، وهي فتاة أكبر مني سناً، كنت أرعى أبقار أبيها في بوداي سنة 1951. ومنذ ذلك الحين وأنا تحت شعور فحواه أنني أحتاج إلى أخت لطيفة مثل تلك الفتاة الصافية التي أراها نموذجاً للمرأة الصالحة أو للإنسان الطيب الذي أؤمن بأنه موجود في كل زمان ومكان. ولكثرة ما أحسنت إليّ تمنيت، وما زلت أتمنى، لو أنها أختي. وربما جاز الزعم بأن اللطف والإحسان لا يبذهما أي جاذب آخر من شأنه أن يجتذب المرء أو المرأة ويرسخهما في العلاقة المتينة، أو ذات الجذور الضاربة في تربة النفس، فرحم الله المتنبي لأنه القائل: (ومن وجد الإحسان قيداً تقيدا).

*   *   *

واليوم يواظب العمر على سيولته، أو على تدهوره، بدأب لا تعرقله أية عقبة. والزمان لا يرأف بأحد، بل يتصرّم ويمضي عجلان إلى غير رجعة، دون أن يأبه بالخسران الذي يتكبده المرء في كل آن. ويترعرع الزمن في خلايا الجسم، ويتضخم أو يتورم كما يفعل السرطان. وأول شيء يتلاشى هو روعة الريعان التي لا تتريث حتى انتصاف العمر. وحينما تجف الروعة، أو يتيبس استعدادنا للدهشة، وتتعطل قدرة نفوسنا على إفراز اللهفة، التي هي محرك من أكبر محركات النفس، فإن صورة الحب تكون قد ترمدت وحل محلها الشبق أو الاغتلام، وكذلك اللهاث وراء المال وحب السيادة والنفوذ. وعبثاً يصرخ السياب، أو سواه: (طفولتي، صباي، أين كل ذاك؟). ويظل الزمن يعشش في الخلايا، يتكدس أو يترسب، يترعرع أو يتورم، ويسمن أو يتضخم، وذلك لكثرة ما يقتات بأليافها وما يلتهم من أنسجتها وطاقاتها. وعندما تكتشف بواسطة الوجدان حصراً أنه ما من كائن حي إلا وهو راحل صوب الموت، حتى الجنين الذي مازال في بطن أمه، بل هو مملوك للموت لدرجة أنه يستطيع أن يجلبه إلى بيت الطاعة في أي وقت يشاء، فإنك عندئذ تكون قد وضعت قدمك على عتبة نضج الحساسية التي أراها الإناء الشامل لكل ما هو نفيس في النفس البشرية.

وتتوالى الأيام متشابهة رتيبة مملة، حتى صرت أشعر بأن الحياة تمات ولا تعاش. ولولا بعض العناصر مما يلتصق بالمرء التصاق الجلد بالجسم، لصار العيش اعتلافاً بالتبن والزؤان، إذ لا يمكن للخسران أن يكون بغير تعويض، بل إن ثمة تعويضات كثيرة حقاً. فهناك المرأة الطيبة الناضجة والقادرة على تزويد الرجل بالكمال، والتي هي في الوقت نفسه استحضار لصورة المدمّث الأهيف الحنون. إنها تنجز عزاءً عن كل شدة أو غمّة، وذلك لجمال روحها الذي يشبه زهر المشمش في شهر آذار. ولهذا، فقد اعتدت أن اعرّف المرأة ـ أكانت حليلة أم خليلة ـ بأنها الكائن الذي يكمل الرجل ويكتمل به.

وهنالك الأطفال يعبثون حولي ويرتعون وهم يزقزقون كالعصافير والطيور الرخيمة الأصوات. وثمة الحمام تحلق أسرابه فوق بيتنا، بل فوق بيوت المخيم كله، ولاسيما قبيل غروب الشمس. وهنالك الأنسام تداعب أوراق الشجر. لكم عاينت هذه المداعبة اللطيفة التي تستثير في سريرتي حنيناً إلى

مجاهيل لا توصف. ولكم أدهشتني العلاقة التي بين الهواء والأغصان، والتي هي واحدة من الظواهر الديمومية وجوباً، حتى صرت أحسب أن الحياة كلها يتيسر تلخيصها في نسمة رطيبة تهب ذات مساء صيفي أفرطت حرارته في السماجة وقلة الحياء. أجل، الحياة نسمة باردة قليلاً تأتيك وأنت تجلس في الأفياء الكثيفة الناعسة، محتمياً بها من همجية الشمس في يوم تموزي غليظ. لكم أحب النسيم الرطيب في أيام الصيف الناشفة، وأحب المطر والغمام حباً جماً، كما أحب الصباح كثيراً لأنه ينطوي على سر البكارة والابتداء، أو لأنه يشبه الولادة من جديد. الصباح، إنه ليس طفولة النهار وحسب، بل هو رمز أو استحضار لجوهر الطفولة نفسه، بل لكل ما هو زاغب ورضيع.

ولا زلت أراقب بزوغ البدر من سفح جبل قاسيون كلما انتصف الشهر القمري، عدا أشهر الشتاء، إذ لا يسمح الغمام بظهوره صافياً إلا في القليل من الأحيان. يا لهذا المشهد الخلاب الذي أحسبه أجمل مشهد تملك أمنا الطبيعة أن تنجزه من أجل البصر والبصيرة في آن واحد.

ثم إن هنالك الكتب أيضاً. ترى، أفي الميسور أن يكون ثمة مذاق لهذه الدنيا، بل هل يمكن للمرء أن يطيقها راضياً، لو لم تكن ثمة كتب؟ وأكاد أجزم بأن عصرنا الراهن، وهو المكتظ بالرذائل والسفالات، لا فضيلة له، ولا ميزة تميزه عن بقية العصور، سوى أنه عمم الكتاب وجعله ميسوراً للجميع. فيا لهذا الابتكار الذي يسمى الكتاب، والذي لا أحسب أن الإنسانية قد اخترعت أيما اختراع أنفس منه أو أنبل.

أما الأصدقاء فصاروا نادرين، بل جد نادرين. ويبدو أن الاتصال الحميم بين الناس قد أصابه فتور يتناسب طرداً مع تطوير أجهزة الاتصال الفيزيائية، وهي ما يتأسس على فوران النفط في العالم، ولاسيما في العالم العربي. فكلما ازدادت هذه الأجهزة حضوراً وانتشاراً، قلت الصلات الطيبة أو الصحيحة بين البشر. فلئن حظيت بصديق صدوق، في هذه الأيام الماحلة، فإني أنصحك بأن تتشبث به كما يتشبث الجوعان برغيف خبز ساخن.

يا إلهي الطيب! لماذا كانت الدنيا على هذا النحو المقيت ولم تك على أي نحو أفضل؟

الفصل التاسع
الخاتمة

جاء هذا الكتاب متبايناً أو متنوع المحتويات والعناصر، بكل وضوح، وذلك لأن الحياة التي يصفها متنوعة أشد التنوع، بل متباينة أو مختلفة اللحظات إلى حد التناقض والتضاد، بحيث لا يتيسر لخميرة متجانسة أن تنتجها كلها. فهنالك الحياة العامة، أو حياة المجتمع والتاريخ، ذات البذور المتعددة الأصناف، وهنالك الحياة الخاصة، أو حياتي الشخصية، التي تختلف عن أية حياة أخرى، وخاصة من الداخل. وهذا يعني أن تباين عناصر الكتاب الراهن سببه تنوع التجربة وتعدد الموضوعات التي يتناولها ويدون خلاصتها بين غلافيه. وكان من الطبيعي أن يجيء هذا الكتاب مثقلاً بالمحمول الثقافي، وذلك لأنني أمضيت جل عمري بين الكتب المختلفة الأصناف، ولأن الكلمة كانت منتجعي الأول، وربما الوحيد.

ولقد تعمدت أن يكون هذا الجزء الثالث بمثابة عرض لمذهبي أو لموقفي من الحياة، وكذلك لوصف أحوالي النفسية ومشاعري، ولاسيما ما أحب وما أكره من أمور. فلئن تمكنت من أن أشرح ذبذبات نفسي، أعني ما استدق من مشاعري حتى لامس منطقة الغموض، فإنني أكون قد أنجزت معظم ما أريد انجازه في هذا المقام.

وعلى أية حال، فإن هذه إفادتي أو شهادتي على الزمن الذي عشت فيه. وهي في نظري بمثابة رسالة يبعث بها الجيل الراهن إلى الأجيال التي لم تولد بعد، وذلك بغية إحاطتها علماً بما أظن أنه الحق. ولكن لا بد لي من الاعتراف بأنني سكتّ عن الكثير، إذ الكلام غير مباح إلا إلى حد من الحدود. فمما لا يخفى على أحد أن سدنة البؤس، أعني المالكين للزمن الراهن، ينتصدبون عقبة كؤوداً ليحولوا دون اتصال الحاضر بالمستقبل على نحو وثيق. ولكن ما هو شديد الأهمية أنك إذا لم تستطع أن تبصر من داخلك، فإن أحداً لن يقدر على أن يجعلك تبصر أيما شيء مهما يك نوعه.

ومما هو ناصع تمام النصوع أن من يكرسون شقاءنا وذلتنا هم كائنات تنصاع للأغيار كما ينصاع السحاب لإرادة الرياح العاتية. ولكنهم انبثقوا من ضروع الشخصية العربية الداجنة، أو من رحمها الخافت الموهون. فليس بخافٍ أن الشخصية العربية اليوم ليس لها سوى محتوى رغوي أو هلامي، كما أنها ممتلئة بالفجاجة والهشاشة والميل إلى الاسترخاء والسبات، دون أن يكون هنالك أي إرهاص من شأنه أن يرهص بأي تحول وشيك. ولهذا، فإن الذهن العربي قلما يفرز شيئاً سوى الخوار في هذه الأيام. فلكم صدق ذلك الكاتب الذي وصف العرب بأنهم ((ظاهرة صوتية)) لا أثر لها في العالم الحديث.

فيا لهذا الحظ العاثر الذي حتّم عليّ أن أعيش في زمن لا وظيفة له إلا أن يخدم طواغيت السياسة ودهاقنة المال في هذه الدنيا التي لم تعد سوى سوق تؤسسه مزبلة موحلة خاثرة. فالولايات المتحدة تخوض حروباً عاتية لكي تغتني حفنة صغيرة من أرباب السياسة، تماماً كما كان يجري في الإمبراطوريات القديمة التي كانت قواها مكرسة لخدمة الإمبراطور وعدد من رجاله فقط. ولكن مشكلة الغربيين أنهم لا يفحصون حياتهم، ولو فعلوا لاتضح لهم أن الاستغلال قد غير ملابسه وحسب.

فلقد تشوه الإنسان في عالم المال والاستهلاك حتى صار الاغتراب حتمية، أو قدراً علمياً مقدوراً على الوعي والحساسية، وصار الفصال فرضاً تفرضه طبيعة العلاقات النفعية السائدة في هذه الأيام. ولهذا، فإنك إذا صنعت ألف جميل، فإن الناس ينسون ذلك بسرعة قصوى، ولكنك إذا فعلت فعلاً سيئاً واحداً، وليكن متناهياً في الصغر، فإن الجميع يظلون يتذكرونه إلى أمد طويل. إن شدة اهتمام النفس بالخبر الشرير وفتورها تجاه الخبر الخيّر هما دليل ليس بالطفيف الشأن على أن قوة الشر أكثر زخماً وحضوراً في بنيتها الإجمالية.

*   *   *

ولما كانت الحقيقة هي ((فقه النفس))، كما قال الغزالي، فإن مما هو شديد الأهمية أن أقدم نبذة عن ماهية الإنسان الذي هو أعلى أطوار الحياة على

الأرض. (أفكر في تأليف كتاب عنوانه "مقال في الانسان" أشرح فيه نظرية نفسية تباين علم النفس الاوروبي أشد المباينة) فالإنسان عندي هو الكائن الذي يعبد القوة بأشكالها كافة: السلطة، النفوذ المحلي، المال، الصحة، الذكاء ... الخ. ولكنه كائن مثنوي مثله مثل أمه الدنيا بأسرها، بل مثل كل شيء على الاطلاق. فبينما تراه يبحث عن القوة فإنه يرضخ لأولئك الذين يجسدونها، ويتزلف إليهم ويتمنى رضاهم. فهنالك من يستقيلون من الشرف والكرامة علهم ينالون حظوة لدى أية جهة تجسد القوة والنفوذ.

إن الإنسان عبد القوة بكل نصوع، إذ ما من شيء يثير شهيته أو يجتذب اهتمامه كما يفعل النجاح المفضي إلى حيازة القوة والهيمنة. ويبدو أن الإنسان مصاب بعقدة يجوز أن نسميها عقدة التأله، أو عقدة الجلوس على عرش الكون، حتى كأنه يريد من الآخرين أن يعبدوه. إن عقدة التأله وتوثين الأنا، أو الاستحالة إلى صنم معبود في الأرض، هي أكثر اقناعاً من عقدة أوديب بكثير. ولما كانت القوة هي الهدف الأشمل فإن المعركة الدموية من أجل السيطرة وحيازة الموقع المكين والاستتباب فيه هي معركة خالدة يكررها كل جيل طوال الدهور.

بيد أن السمة الأعمق والأشمل للجميع تقريباً بين سمات الإنسان كلها هي أنه كائن يتحمل عذابه في سواء عالم شديد القسوة على الضعفاء والفقراء والمحرومين من أسباب القوة. هاهنا بالضبط يكمن اللباب، أما العقد النفسية التي حاول فرويد أن يفسر بها الإنسان، أو ((الأنماط العليا)) التي جعلها يونغ بيت قصيده، فهي شيء ثانوي أو طفيف القيمة. فتحمل العذاب هو الشأن الجوهري في هذه الملحمة البشرية الضارية. ولهذا يتيسر الذهاب إلى أن الألم، أو كبَد الوجدان، هو النغمة الأعلى في السيمفونيا البشرية. ويبدو أن الانسان لا يملك أن يتعاطف أو يتسامح مع خصمه إلا إذا كان ذلك الخصم مألوماً أو موجوعاً ويقاسي عذابه كأنه مصلوب.

وأمام هذه الحقيقة الجلية يملك الفطين أن يستوعب الصليب بوصفه واحداً من الرموز الكبرى التي ابتكرتها الحساسية الإنسانية. إنه رمز عذابنا الديمومي، وإذ يعتله الإنسان على عاتقه فهو يؤشر إلى أنه يتحمل ويطيق. أجل،

إن سر الانسان كله يكمن في الصليب الذي هو ابتكار وثني سبق المسيحية بزمن طويل جداً. ويبدو أن السياسة لا تمس شيئاً جميلاً دون أن تشوهه أو تحيله إلى قبح وبشاعة. ولهذا، فقد استحال الصليب، رمز الحزن والألم البشريين، مما يستتلي أنه رمز الرأفة والحنان، إلى شعار لحرب ضروس دامت مائتي سنة على وجه التقريب.

ثم إن الإنسان كائن بائس ومثير للشفقة عند الحساسين، وذلك لأنه يقع تحت سيطرة مجموعة من الحتميات تشبه الكوابيس. فهو أولاً يشتهي ولا ينال، وذاك هو الجحيم. وهو يقع تحت اضطهاد السلطات والأموال والأمراض وألف نمط آخر من أنماط السلب والشرور. كما أنه يحاول أن يدشن صلة صحيحة مع أمثاله من البشر، أي أن ينخرط في الصداقة، إن كانوا من جنسه، وفي الحب، إن كانوا من الجنس الآخر. ولكن هذا الأمر قلما يتيسر إنجازه إلى الحد المطلوب، أو إلى برهة الإشباع. أما كابوس الزمن، أو كابوس التصرم والزوال، فيتحول إلى تعاسة، ولاسيما في أواخر العمر، وذلك يوم ينطفئ الإنسان رويداً رويداً، أو يتدرج في الولوج إلى مساحة العدم المطلقة.

ومع ذلك كله، فإن الإنسان ليس له قانون جامع مانع. فكثرهم الذين كانوا يستنكفون عن مطاردة العناصر المجسدة للقوة، ثم يهرعون إلى الزهد والنسك أو الرضا بالقليل. ومازال هذا الأمر حياً في غابات الهند حتى يوم الناس هذا. وقد يحثهم شعورهم بالألم الذاتي على الانزواء في زاوية محايدة بحيث لا يقيمون أي وزن للحياة. ولقد كان هذا تقليداً من تقاليد العالم الإسلامي حتى عهد قريب.

*　　　*　　　*

ولهذا، أراني أجنح إلى الاعتقاد بأن علم النفس الحديث منذ فرويد وحتى اليوم لم يفهم النفس حق فهمها، بل إن معظمه ليس سوى صنف من أصناف المخرقة والبهلوانية. فمن الخطل، أو من الخبال، أن يعمد أي امرئ إلى تفسير الإنسان، الذي هو كائن مركب كثيف ومتناقض، بعنصر واحد يستله من عنقود

كبير من العناصر الممكنة، كالاقتصاد أو الشبق أو السأم. ويبدو أن سريرة الإنسان مهوّشة وبغير نظام، وتمور فيها القوى المتعارضة، ويتداخل فيها الكثير من المقومات والعناصر التركيبية أو البنيوية، وتختلط إلى حد يعسر معه أي فرز أو تفكيك. فمن السخف أن يعتقد أحد بأن الانسان يبدع لأنه مكبوت. ولعل من المقنع أن يذهب المرء إلى أن الانسان يبدع لأنه يواجه العدم بالإيجاد، أو بالابتكار.

فالإنسان، وهو كائن مثنوي مثل جميع الكائنات الأخرى، من شأنه أن يمزج الواقع بالمثال، أو المتعالي بالتجريبي، إذ مع أنه عبد الضرورة والحاجة المستبدة، فإنه يرفرف بجناحيه ليطير صوب المثال، صوب الأوج، أو صوب سدرة المنتهى. فهو ينوس بين العلو والدنو، أو بين الأرض والسماء، حتى لكأنه يحاول أن يطفر من أغلال المادة إلى عالم روحي سلمي وأنيس. إنه يبتغي أن يعيش في الفسحة الواقعة وراء الزمان، وذلك فراراً من لعنة الكفاح في سبيل حاجاته المادية التي تكبله بأصفاد لا سبيل إلى تحطيمها بتاتاً.

ولئن فهمت الإنسان على هذا النحو، فإن علم النفس الأوروبي، الذي قلّ أن يأبه بالعرس والعيد والمأتم والزيارة والمأدبة والوليمة، وجنازة الزعيم ذات الطابع السري، والتي أراها شعيرة مستورية من شعائر عبادة المركز أو الطواف حول بؤرة الولاء والانتماء ـ سوف يتبدى لك شيئاً مهلهلاً ليس من شأنه أن يكشف كنه الإنسان أو سره المكنون. وربما أخذك الفهم والاستيعاب الأصيل إلى رفض الحضارة الحديثة بأسرها رفضاً نهائياً قد يفضي بك إلى الاعتقاد بأن هذه الحضارة لا يحترمها إلا السذج أو الخدج.

وربما اجتنبت التطرف إذا ما زعمت بأن معظم الفكر الأوروبي منذ ديكارت وحتى سارتر هو بنيان ورقي شديد الهشاشة وذو بنية متداعية لا تصمد أمام الحجى الممحص، أو أمام العقل الذي يراه الغربيون وقفاً عليهم وحدهم من دون الناس. ولكن هذا المذهب لا يمتد ليشمل الفنون والآداب الأوروبية التي أراها رائعة حقاً. ففي الصدق أن محنة السيد المسيح هي ينبوع الشطر الجيد من الأدب الأوروبي، ابتداءً بدانتي وانتهاء بدستويفسكي، بعد المرور بشكسبير وغوته. أما مبدؤها فهو هذا: أناس أبرياء وطيبون يعومون في ثبج الجحيم أو

في لجج جهنم. وحين تخلت أوروبا عن المسيحية مع ظهور الرمزية والواقعية، فإنها قد جنحت إلى الاتضاع، فلم تعد تأبه بمعيار القيمة الذي يحتضنه العقل لكيلا يستوي الرفيع والوضيع. إن النزعة المعيارية هي سمة من سمات الذهن الديمومية والدالة على أنه قوة حية تجنح نحو الخير وتكافح ضد الشر في كثير من الأحيان. وفي ظني أن التخلي عن المعيار هو الانحطاط نفسه.

وربما جاز الزعم بأن الطاقة الفنية أو الخيالية في الإنسان أخصب من طاقته الذهنية أو الفكرية بفارق نوعي. فكثيراً ما يكون الانجاز الفني مرضياً لمعظم الناس، ولكنني لا أعرف مذهباً فكرياً أو بنية نظرية ترضي الكثير من البشر. فلئن كان العقل مختصاً بالواقع، فإن الخيال مختص بما يتجاوز الواقع، أو بإنجاز ملغمة يلتغم فيها الواقع بما يعلو عليه. ويبدو أن رغبة الإنسان في التجاوز، أو في الحرية المسرّحة، هي السبب الذي جعل الخرافات والأساطير والأخيلة والأوهام وبدائع الفنون والآداب أعذب من الأفكار والحقائق والنظريات، ومن كل ما هو من فصيلة المنطق السديد. فالروح لا يطيق الارتكاس الدائم في المباشر والمحدود، وذلك بحكم مساحته المنداحة التي تجهل التخوم والشطآن.

فلكم كان العقل الأوروبي هزيلاً حين أكد على أن التكنولوجيا سوف تخلص الإنسان من بؤسه المرير، مع أن هذه الظاهرة ليست سوى آية على استشراء النزعة المادية و استطارة شرورها، أي على انحطاط الجنس البشري و شيخوخته و جنوحه صوب التخشب و العجز عن الإنابة إلى طور الشباب الذي خلفته البشرية وراءها منذ زمن بعيد .فما من غاية لمعظم منجزات الصناعة سوى انتاج الهمجية، أو اعادة انتاجها على نحو أشرس ولكن كل ما لا يعمل على أنسنة الانسان لا يتمتع بالقيمة الجلى من وجهة نظر الوجدان .ولعل في الميسور القول بأن التكنولوجيا قد استطاعت أن ترمد الايديولوجيا وأن تخلصنا من لغوها اليومي العقيم. وهذه هي مأثرتها الأولى، وربما الوحيدة.

لقد فات الفكر الأوروبي أنه لا تقدم سوى التقدم الروحي وحده، وهو الذي يوقظ الإنسان على إنسانيته ويرسخ فيه شعوراً بالإخاء البشري الذي يتضمن المحبة والسلام قبل كل شيء. ولكن الحضارة الأوروبية الخافتة الروح

لم تنجز سوى تقدم في مضمار الأدوات فقط. لقد خدمت جسم الإنسان، ولكنها عطبت روحه إلى حد التحطيم. ويبدو أن هذه الوثبة المادية التي ابتدرتها أوروبا وطورتها أمريكا هي نتاج لشعور مكتوم أو مخبوء بعمق تحت الوعي الجمعي، وخلاصته أن أوروبا تشيخ وتجنح صوب التحجر واليباس، وأن هذه المنجزات هي بمثابة تعويض عن الخسران، أو هي محاولة لترسيخ الشخصية الغربية في الزمان.

ومما فات جميع فلاسفة التقدم، ولاسيما نيتشه الذي وصف نفسه بالديناميت، أن الإنسان يزداد انحطاطاً كلما تقدمت أدواته، وذلك لأن همجيته وغوغائيته قد صارتا مما لا يشكم ولا يعنو لأي ضبط بسبب هذه التكنولوجيا العاتية. ويبدو أن فلاسفة التقدم ((عاموا على شبر ماء))، كما يقول أحد أمثالنا الشعبية، أي أن تفكيرهم عليه رائحة رعونة كان من شأنها أن حالت بينهم وبين الدرب المفضية إلى الرشاد. ومع ذلك فقد زعم الكثيرون منهم أن الفكر سمة من سمات الغربيين وحدهم. وحين طالعوا مقدمة ابن خلدون، قالوا: إنه مثلنا، إنه يفكر. وعلى الرغم من هذا التنفج العشوائي، فإن المفكر الأوروبي كثيراً ما يكون "خنفشارياً"، أعني أنه يلقي الكلام على عواهنه دون أي شعور بالذنب.

ولكن الأمر يختلف كثيراً حين يبلغ المرء إلى فلاسفة الحساسية. فما كان لشوبنهاور أن ينجح إلا لأنه يتفأد أو يتحسس أكثر مما يتفكر أو يتذهن، أي إلا لأنه يفكر بوجدانه، وليس بعقله التجريدي، أو إلا لأنه استطاع أن يجعل الفكرة شعوراً والشعور فكرة. ويصدق هذا المذهب على كيركجور، وكذلك على مين دي بيران. ويبدو أن كل ما هو وجداني أو فؤادي، وكذلك كل ما هو خيالي مثل ((ألف ليلة وليلة))، هو شيء عزيز على قلوب البشر في كل زمان ومكان، وذلك لأنه ينبثق من الصميم ويتجه باتجاه الصميم. إنه يتفوق على الفكر الموضوعي لأن الداخل في نظر الإنسان أنفس من الخارج وأنبل.

* * *

ووقعت تحت التأثير السيئ لفريدرك هيغل، وكذلك تحت تأثير فرويد وماركس التضليليين. (إن الأخير لا يخلو من حسن النية). فالالتزام بهذه المذاهب وبأمثالها، من شأنه أن يقيد الذهن ويحرمه من خير كثير، وذلك لأنه يبعده عما في أضدادها من محاسن ومزايا. والطريف أن هيغل قد صرّح في أحد كتبه بأن مبدأ المثنوية والتضاد قد نشأ على هيئة أسطورة في سومر وأكاد وبابل، أي في أسطورة تموز التي تتألف من مثنوية الخصوبة والمحل، ولكنه لم يصرح بأن ذلك المبدأ هو الأس الذي ينبثق منه منهجه كله.

ولكن ما هو أهم من هذا أن مذهب هيغل هو آية على أن الفكر الأوروبي سخيف إلى حد مذهل. ولذا، فإن من واجبات الشرق أن يبحث عن فكره الخاص دون أن يعتمد كثيراً على الغرب، بل إن علينا أن ندحض الفكر الأوروبي ونفنده بصرامة، لا لأنه فكر الأغيار أو الأعداء، بل لأنه سخيف ولا يصمد أمام العقل والتمحيص الذهني الرصين. فمما هو معلوم أن ذلك الفيلسوف يحاول استنباط الواقعة من الفكرة، كما أنه يزعم بأن الفكرة هي ما قد كان في البدء. ثم إن الفكرة قد فضّت نفسها في الواقعة، أو استحالت إلى كون. وعندي أن هذا المنطلق ليس سوى تحريف لمنطلق المسيحية التي تؤمن بأن البداية هي الكلمة وبأن الكلمة قد تجسدت في شخصية السيد المسيح. وفي الحق أن هذا التفكير الهيغلي لا يقنعني، بل لا أراه إلا صنفاً من أصناف المخرقة. فكيف تمكنت الفكرة من أن تستحيل إلى واقعة ملموسة؟ إن هذه خرافة أو معجزة جزماً. ثم ماذا عن الوثن الذي راح يتعبد له بعد أن سماه المطلق؟ هل يزيد عن كونه وهماً من الأوهام التي تزخر بها الفلسفة الأوروبية الشاحبة وذات اللغة المكدودة؟

وقد يحالفني شيء من السداد إذا ما زعمت بأن هيغل قد اتصل بابن عربي على نحو من الأنحاء. فلا أدري ما إذا كانت هنالك ترجمة لاتينية ((للفتوحات المكية)) أو لسواها من كتب الشيخ الأكبر. ولكن التلطف أو حسن المأتى كفيل بأن يرشد المرء إلى الحقيقة. كان هيغل معجباً باسبينوزا الذي قال عنه في ((تاريخ الفلسفة)): ((إما أن يكون اسبينوزا وإما أن لا تكون الفلسفة)). والحقيقة أن ذلك الفيلسوف الذي مات قبل ولادة هيغل بثلاث وتسعين سنة، ينتسب إلى أسرة يهودية هاجرت من الأندلس إلى هولندا في القرن السادس

عشر. ويبدو أن تلك الأسرة كانت تحوز بعض المخطوطات المهمة. فمن المعلوم أن اليهود قد ازدهروا في الأندلس أيما ازدهار، لا مادياً وحسب، بل ثقافياً أيضاً.

ولكن أية قراءة متأنية ونزيهة لمذهب اسبينوزا سوف تكشف الصلة التي تربطه بابن عربي الأندلسي. وعندي أن الرجلين كليهما ينتسبان إلى مدرسة ابن مسرة التي تأسست في قرطبة خلال الربع الأول من القرن العاشر الميلادي. وقد بلغت مدرسة ابن مسرة أوجها مع ابن عربي ثم مع ابن سبعين ولسان الدين ابن الخطيب. وكلهم من أهل الأندلس. كما سبق لها أن تطورت قبل ابن عربي على أيدي رجال من أمثال ابن العريف وابن برجان وأبي مدين. وجميعهم أندلسيون. فهل وصلت فلسفة ابن مسرة القائمة على مبدأ تأليه الكون إلى هيغل عن طريق ((الفتوحات المكية)) مباشرة، أم تراه أخذها عن طريق اسبينوزا الذي هو آخر أتباع ابن مسرة.

ومما تتوجب معرفته في هذا الموضع أن عدداً كبيراً من رجال هذه المدرسة قد تعرضوا للاضطهاد، تماماً كما تعرض له اسبينوزا أيضاً. ولقد طال الاضطهاد مؤسس المدرسة، أعني ابن مسرة، وكذلك ابا مدين وابن عربي الذي سجن في مصر، ثم ابن سبعين الذي اغتيل بالسم. وأخيراً ابن الخطيب الذي قتل خنقاً في داخل السجن. وكانت تهمتهم أنهم يؤلهون الكون بدلاً من رب الكون، أي يؤمنون بوحدة الوجود التي سوف تصير جُماع مذهب هيغل.

ولا يخفى أنه ما من أحد قد روج لهذه الفكرة الثعلبية كما روج لها ابن عربي. ومع أنها فكرة ماكرة، وتسعى إلى التوسط بين الكفر والايمان (والتوسط عزيز على أفئدة الصوفيين)، فإن ابن عربي يظل واحداً ممن وهبوا القرن السابع الهجري لونه الخاص. ولا غلو إذا ما زعمت بأنه رجل من أولئك الرجال الذين نلتقيهم عند ينابيع الأشياء، وذلك بفضل مذهبه في المحبة والتسامح والالتزام بإنسانية الإنسان.

وفي الحق أن التشابه بين مذهب هيغل ومذهب الشيخ الأكبر ليس باليسير. فالمقولة المركزية في مذهب الألماني هي ((الفكرة المطلقة)). ومما هو مدهش أن ابن عربي يزعم بأنه أول من تحدث عن ((الحقيقة الكلية التي هي

روح كل حق، ومتى خلا منها حق فليس حقاً)). ثم تراه يتحدث عن "حقيقة الحقائق التي تعم الخلق والحق، وما ذكرها أحد من أرباب النظر إلا أهل الله، غير أن المعتزلة نبهت على قريب من ذلك." (ولقد جاء هذان المقبوسان في الفصل الرابع عشر من الجزء الثاني من "الفتوحات المكية" وعنوانه في "الاسم الإلهي")

كما أعلن ابن عربي أنه أمين ليلى، أو هذه الحقيقة الكلية التي تضارع "الفكرة المطلقة" عند هيغل، أي سكرتيرها، بلغة عصرنا. فقد جاء هذا البيت في ((الفتوحات المكية)):

يقولون: حدثنا، فأنت أمينها وما أنا، إن حدثتهم، بأمين

كما أعلن هيغل أنه ((سكرتير الروح المطلق))، أو أمين سره، شأنه في ذلك شأن ابن عربي.

وصرّح الشيخ الأكبر مراراً بأنه ((خاتم الأولياء)). وزعم هيغل بأنه ((خاتم الفلاسفة)) (ولكن أجود الفلاسفة قد جاؤوا بعد هيغل). وذهب ابن عربي إلى أن ((العلة معلولة لنتيجتها)). وهذه فكرة تدخل في صميم المنطق الهيغلي. فلكم كان هيغل مجافياً للسداد حين قال: ((لا فلسفة خارج أوروبا)). إذ إن بذور فلسفة هيغل نفسه، بل جذورها وأنساغها، هي من خارج أوروبا فعلاً.

كما أكد ابن عربي على أن ما لا يتناهى لا يدخل في الوجود، وكل ما يدخل في الوجود فهو متناهٍ، وإنك تجد هذه الفكرة نفسها في صلب المذهب الهيغلي، وقال ابن عربي بمقولة البرزخ، فقال هيغل من بعده بمقولة الوساطة، والبرزخ والوساطة اسمان لمسمى واحد بعينه. كما أن قول ابن عربي بأن "الانسان نسخة الأكوان" يعادله قول هيغل بتماهي العقل والواقع. وقول ابن عربي بأنه "ما ثمة إلا الله" قد صار عند هيغل على هذا النحو:" ما ثمة إلا العقل". فلا أظن بأن جميع أوجه الشبه هذه قد جاءت نتيجة للصدفة وحدها، إذ لا بد من أن يكون الألماني قد اتصل بالشيخ اتصالاً مباشراً أو غير مباشر.

وفي الحق أن أوجه الشبه بين ابن عربي وهيغل واسبينوزا كثيرة جداً. وهذا شأن ليس من قبيل الصدفة. وهو يحتاج إلى بحث مستقل يجلوه ويوثقه تماماً. والأهم من ذلك أن علينا أن نكتب تاريخ الثقافة بشرف ونزاهة، بعد ما

كتبه الغربيون المتعصبون بانحياز كان من شأنه أن زيّف الحقيقة وشوهها، وأساء إلى كرامتها قبل أن يسيء إلى محتواها.

وفي قناعتي أن علينا نحن العرب أن نقدم مشروعاً ثقافياً بديلاً يتخطى هذه الثقافة الأوروبية الخالية من الضمير والطافحة بالسخف والهذيان. وعندي أن هذا المشروع البديل يملك أن يبدأ من برهة مزدوجة: أولاً- الأزورار عن الآخر والنظر إليه على أنه بنية مفلسة تأسست على القرصنة والعدوان ونهب ثروات الأمم. (لماذا هذه الكربلاء، أو المذبحة الطويلة الأمد، التي افتعلها الغربيون في العراق؟ يتحدثون عن مهمة جيوشهم هناك، ولكنهم لا يحددون تلك المهمة بتاتاً). ثانياً- التحاور مع هذا الآخر العدواني بدلاً من أن نبغبغ أقواله كما تفعل العجماوات. ففي قناعتي الجازمة أنه ما عاد في الميسور أن تتشكل أية حضارة على الأرض بعد اليوم بمعزل عن أوروبا وحضارتها المؤلفة من عناصر شتى، بل من مقومات شديدة التنوع وكثيرة الأصول والفروع.

إن من واجبنا ألا ننسى ذلك النهب الشديد الشراهة الذي مارسوه على الشرق طوال مئات السنين، وهو نهب لئيم تم على صعيدين، إذ لهطوا الثروات الاقتصادية، كما انتحلوا العلوم والأفكار. فبينما كانت جيوشهم تبتز الشرق بكل جشع ونهم، كان مثقفوهم يسطون عليه بطرائق خبيثة. وذلك هو دأبهم على الدوام. إنهم لصوص ومجرمون بغير ضمير أو وجدان. ومن كان بغير ضمير لا يجوز لأحد أن يعده في فصيلة البشر. وعندي أن قيمة كل حضارة تتحدد بقدرتها على تربية الضمير الذي من دونه لا يكون الإنسان إنساناً بتاتاً، بل ربما جاز وصفه بأنه قرد ذكي، أو أذكى القرود وكفى.

لقد كانت مقولة الواجب أسمى مقولة أكدتها الحضارة الأوروبية، وذلك على لسان كانت في ((نقد العقل العملي)). ثم إن إيمان الأوروبيين بمبدأ الواجب هو الذي بنى حضارتهم ورسخها رسوخ الأطواد. ولكن الواجب لا يكافئ الضمير، وإن كان يقاربه أو يدانيه أحياناً وليس دائماً. فلقد اعتاد الأمريكيون أثناء حرب الفيتنام على أن يصفوا الطيار الذي يقصف بالنابالم قرى فيتنامية، فيبيد الحياة ويقتل الأبرياء الذين لا حول لهم ولا طول، بأنه يقوم بواجبه. فالواجب ههنا ليس نائياً عن الضمير وحسب، بل هو نقيضه تماماً.

أما نحن الشرقيين فنبجّل الضمير ونراه قيمة القيم الملتزمة بإنسانية الإنسان التي هي غاية جميع الوسائل. ففي العقيدة الصوفية، ولاسيما عقيدة ابن عربي، أن الإنسان هو كل شيء على الإطلاق، ولأجله خلقت الأشياء كلها دون أي استثناء. يقول الشيخ الأكبر في الجزء الثاني من ((الفتوحات المكية)): ((أنت المصباح والفتيلة والمشكاة والزجاجة، وإذا عرفت هذا عرفت الزيت وهو الإمداد الإلهي)). (الباب السادس ومائتان) وهذا مقتطف معناه أنك أنت كل شيء، أو أنك روح الكون بأسره وخلاصته وزبدته وفحواه.

ولهذا أراني أدعو إلى بناء مذهب فلسفي أخلاقي محوره الضمير، أو هو محموله الأول الذي لا تعادله جميع اليواقيت والجواهر. لقد اعتاد الطبيب في بابل أن يطرح على المريض هذا السؤال قبل البدء بمعالجته: هل منعت أسيراً من رؤية الشمس؟ فلئن كان قد فعل فإن شفاءه ليس بالأمر المؤكد. أما أهل الغرب، في عصر الأمم المتحدة وقوانينها التي لا تزيد عن حبر على ورق، فيعذبون أسراهم حتى يدفعوهم إلى الانتحار، كما حدث في غوانتانامو سنة 2006. فلئن استطعنا أن نطور فلسفة الضمير التي كانت منذ القدم، وعلى الدوام، أس الأخلاق العملية في بلادنا، أقله أخلاق الصالحين منا والأخيار، فإننا سوف نكون قد رسخنا فلسفة تخصنا وحدنا وتميزنا عن الغربيين الذين يحترمون القوانين الوضعية ولا يأبهون بقوانين الفؤاد أو قوانين الوجدان.

فهاهم الغربيون اليوم يظهرون على شاشة التلفزيون وهم يرقصون ويغنون، أو يتمتعون بأصوات المغنين وأهل الطرب. كما تراهم وهم يلعبون الرياضة أو يتلذذون بمشاهدة المباريات والألعاب. إنهم يتنعمون بأجواء الفرح والمرح، وربما السعادة أيضاً. وكأن معظمهم، بل جلهم، لا يدركون أنهم يغتنمون هذه اللذائذ والمتع الرخيصة لأن أناساً كثيرين يقتلون يومياً في البلدان المعتدى عليها. فلا شيء يعني الغربيين، بعد ما انطفأت ضمائرهم، سوى الإجازة الصيفية وعطلة نهاية الأسبوع. إذن، هي ذي خلاصة الواقع: الغربيون ويهودهم يمرحون، والشعوب تدفن شهداءها.

منذ فترة صرح جنرال أمريكي بأنه استمتع كثيراً بممارسة القتل في أفغانستان. كما أن أحد المصورين قد صوّر جنوداً من الألمان، في تشرين

الأول، سنة 2006، وهم يلعبون كرة القدم بجمجمة مواطن أفغاني. إنهم ما زالوا على همجيتهم الأولى التي كانوا عليها في قرونهم الوسطى. وهذا يعني أنهم لم يتقدموا بتاتاً على صعيد الروح، ولو قيد أنملة، وأنهم لن يتقدموا إلا إذا صحت ضمائرهم أو انبعث وجدانهم من بين الأموات. ومن المفارقات المذهلة أنهم يمارسون الإرهاب والنهب والقرصنة، ومع ذلك فإن الشعوب التي تناضل عن لقمة عيشها هي الإرهابية في منطقهم السخيف. فهل العقل أم اللاعقل هو الذي يحكم التاريخ؟

وإن للذهن الحي أن يتساءل عما إذا كان هنالك من هو أنذل وأكثر خسة وحقارة ممن اغتالوا أحمد ياسين، ذلك العجوز المقعد المشلول. ثم إن الذين يخيفهم رجل كأحمد ياسين هم منطقياً أجبن الناس وأكثرهم ضعفاً، بل ما من شيء إلا وهو يخيفهم، حتى النمل الذي يضرب به المثل في الذلة والهوان.

*　　　*　　　*

وأياً ما كان الأمر، فإن هذا المسرد ليس صورة دقيقة عن حياتي، بل لعله ألّا يزيد عن كونه وصفاً بسيطاً لتجربة هي أعقد من هذا الوصف بكثير. وربما رسخت قراءته انطباعاً فحواه أن الحياة شر وعذاب وقنوط من كل أمل، ودون هوامش مريحة ولا واحات ظليلة يحط فيها المسافر المنهك ليذوق طعم الراحة. وفي الحق أن المرء قد يشعر بشيء من المسرة والغبطة وهو في جوف الاغتراب والنفي والاشمئزاز. فلكم ابتهجت يوم ولد عمر، حفيدي، في الأيام الأخيرة من سنة 2001، وكذلك يوم ولد كنان، حفيدي الآخر، في شهر نوار من السنة التالية. وفي الحق أن عمر كان عزاء لي في نيسان سنة 2002، حينما راحت دبابات الصهاينة، وهي جزء من الجزية التي يدفعها الأمريكيون لليهود، تجتاح مخيم جنين ومركز مدينة نابلس، وتحاصر كنيسة المهد في بيت لحم.

إن من شأن الروح أن يعطل آلامه أو أن يهدهدها ليحصل على جرعة من البهجة قد تعينه على تحمل هذا البؤس كله. فاللعنة قد تهدأ أو تهجع قليلاً في بعض الأحيان. أجل، إن دولاب اكسيون، أو دولاب العذاب، يقبل الكف عن

الدوران، ولو إلى حين. ولكن النفس سرعان ما تؤوب إلى اللعنة وأوزارها مرة أخرى. وعندي أن وعي اللعنة هو أرقى أنماط الوعي. فلكم هو أمر مرير أن تكتشف السخف، أو تتيقن بواسطة الحساسية من أن الأشياء منسوجة من التفاهة والفراغ، وأن الكون برمته نافل أو زائد عن الحاجة ولا قيمة له بتاتاً، حتى لكأنه أكذوبة سردها الشيطان نفسه.

ومع ذلك فإن الأمل يخضور الحياة وملحها وبهارها والوقود الذي يحركها باستمرار. ثم إن الطبيعة جميلة، بل صبية حسناء ذات شباب دائم. ومما هو موضع تدبر أن صلة النفس بالجميل، مع أنه بغير قيمة نفعية أو عملية، هي شيء أقرب إلى العجائب والغرائب منه إلى المألوفات. ولكنني لا أوافق ابن عربي حين يقول: ((ما ثَم إلا الجمال)). ففي قلب الأشياء يربض قبح كريه يبلغ إلى حد الشناعة، فلا يجوز إغفاله ولا السكوت عنه بتاتاً، وذلك لأنه حقير ولا أخلاقي إلى الحد المقزز. ومع ذلك، فإن الجمال والأمل والحرية ونازع السمو قد أسهمت في تزويد الإنسان بالشحنة الروحية التي جعلته قادراً على الاستمرار في الوجود، أو في الصمود أمام هذا الشقاء الجائر الكئيب. وعندي أن كل ما هو رفيع أو نفيس له من تلقاء نفسه، أو بحكم ماهيته حصرا، وظيفة أخلاقية جليلة، وذلك لما يندرج فيه من سمو أو قدرة على صقل الوجدان.

* * *

ومما أراه مشرفاً لي، كما أنه تعويض عن هذا الوجع كله، ولهذا فهو عزاء وسلوان إلى حد ما، أنني أنتمي إلى الشعب الفلسطيني المفعم بالنبل والأنفة والإباء. فبينما ركعت جميع أمم الدنيا وسجدت أمام الشر الذي يسمى اليهود، وهم من روّضوا أوروبا وأميركا حتى صارتا قطتين أليفتين بين أيديهم، وهذه أمارة انحطاط تدمغ تاريخ الغرب الحديث، فإن الشعب الفلسطيني وحده قد انتصب كالمارد من مستنقع الاستخذاء العالمي ليتحدى إرادتهم الابليسية ونفوذهم الشامل، وأبى أن يذعن لهذه الملة اللابطولية، بل الربوية، على الرغم من الثمن الباهظ الذي هو ضريبة هذا الإباء المجيد.

وعندي أننا إذ نكافح اليهود الذين يلهطون زبدة الدنيا، ويستغلون الدول الكبرى قبل الصغرى، فإننا ننافح عن الجنس البشري كله ضد الأنياب الزرقاء التي تطحن الأخضر واليابس. كما أعتقد بأن التاريخ البشري قد راح يتحدر ويتضع منذ ظهور اليهود على مسرح الحدوث في القرن السادس قبل الميلاد. ولهذا، أراني أميل إلى الظن بأن البشرية قد غادرت شبابها تماماً يوم ظهر اليهود على الأرض، أو يوم دخلوا إلى فسحة التاريخ.

ولولا الفرق الكبير في التسلح لما كان لدويلتهم القميئة أن تنشأ على أرضنا الحبيبة بتاتاً. فبينما ترى اليهودي مدججاً بالجحيم كله، فإن الفلسطيني يتغطى بعزيمته والمضاء، وبالمشيئة الاختراقية النافذة، وبحرارة الروح التي هزمت أمريكا في كوريا والفيتنام. لقد أرغمتنا السياسة على التقهقر نحو البدائية الأولى من جهة الأداة، إذ لم يعد لنا من سلاح سوى الحجر وحده، بل هم لم يتركوا لنا سوى أصواتنا نقاتل بها، وذلك بعد ما ثلموا إرادة العالم الإسلامي كله وأحالوه إلى هلام، أو إلى صنف من أصناف الرخويات. ولا غلو إذا ما زعمت بأن أمم هذا العالم الإسلامي المغلولة الإرادة معتقلة أو في حالة إقامة جبرية، بل في حالة شلل وعطالة كاملة. وكان ذلك كله من أجل كائنات تنتحل جميع مقومات شخصيتها الزائفة، بما في ذلك اسم الدويلة التي اصطنعت لهم في بلادنا فلسطين، وهو الذي يدخل فيه اسم ((إيل)) أو الله في اللغة الكنعانية.

وربما جاز الذهاب إلى أن الصناعة التي صنعها النفط هي التي أنشأت الغيتو الصهيوني وفرضته على أرضنا العذية النديّة، بعد ما شردنا السلاح الأوروبي والأمريكي الذي وضع في أيدي الصهاينة المجرمين. وفي قناعتي أن هذا الفعل اللئيم الخسيس الذي تحجم عن مثله أية فئة سوى اليهود، هو أنذل فعل قامت به البشرية في أي زمان ومكان. وهو واحد من الأفعال التي تحتم العقاب ولو بعد ألف سنة. وفي مخيلتي أن عقابهم سيكون فلذة افتلذت من جهنم نفسها. ومما يؤسفني أنني سوف لن أكون على قيد الحياة في ذلك الزمن القصي. فلست أعرف حادثاً أشنع من ذلك الحادث أو ألأم أو أكثر إيغالاً في مساوئ الأخلاق.

لقد استطاعت الصناعة أن تشطر العالم إلى شطرين: أمم لاحمة سالبة ناهبة، وبغير روح أو أخلاق، وأخرى مسلوبة أو منهوبة، لا حول لها ولا

طول. فهاهم الأمريكيون في العراق وأفغانستان يزعمون بأنهم يحاربون الإرهاب، مع أنهم في الحقيقة يمارسون الإرهاب على أمم ليست نداً لهم من جهة الأداة، فهم يقصفون الناس بطائرات تقذف حمماً جيء بها من الجديم نفسه. أهو كائن بشري أم جهنمي ذاك الذي اخترع قذيفة الأطنان العشرة؟ إنها هجمة لا أخلاقية ولا إنسانية بتاتاً، هذه الهجمة التي قام بها الغربيون على العراق وأفغانستان. وإنني أشم فيها رائحة حملة صليبية، وإن تكن بغير صليب.

وبذلك برهنت هذه الصناعة الإبليسية أن حكاية فاوست ليست خرافة وإنما هي شيء واقعي أو فعلي. أجل، باع الأوروبي نفسه للشيطان وخسر إنسانيته مقابل السيطرة على الدنيا كلها. ولكنها، مع ذلك، حضارة بلا قيمة إيجابية، لأنها لا تملك أن تنتج أيما شيء سوى الشرور.

ترى، ما هو السؤال الشمولي الذي يضغط حتماً على ذهن العاقل في هذا الزمن؟ إنه سؤال المصير حصراً، وهو ما قد تتيسر صياغته على هذا النحو: إلى أين يسير هذا العالم البائس المسكين؟ وهل من خلاص فعلي على المدى المنظور؟ وهل في ميسور الإنسانية أن تنتصر على أسلحتها الاجتثاثية؟ وهل سيتمكن الشاعر من أن يهزم التاجر؟ في الربع الثالث من القرن العشرين خاضت الشعوب جهاداً مشرفاً ضد الامبريالية وشرورها، ومرغت أنفها في الوحل، ولكنها استخذت واستكانت في السنوات الثلاثين الأخيرة، أو سنوات النفط التي أخلدت خلالها إلى السكينة. ترى، ماذا عساها أن تعني هذه الحالة المستجدة؟ هل هي موقوتة أم طويلة الأمد؟

*　　*　　*

والآن، ربما جاز لي أن أزعم بأن المشاعر التي يهملها المؤرخون وتنساها الذاكرة الجمعية، والتي هي مشاعر أدبية، وإن كانت ناشئة عن حوادث التاريخ، هي ما أردت تدوينه، أو صيانته من سطوة الزوال، عبر ترسيخه في نسق لم يطاوعني ضميري أن أعفي نفسي وأريحها من تثبيته على القرطاس، قبل أن أغادر هذه الدنيا إلى الأبد، مع أنني أكابد الشعور بالإحباط واللاجدوى، كما أكابد الشعور بأنني كائن هامشي، إذ ما من شيء يذعن لمشيئتي حتى لكأني

بغير مشيئة. وهذا شعور من شأنه أن يدفع المرء إلى الترهل والكسل والاسترخاء. ومما يخلق هذا الشعور في نفسي أنني محاط بالأمية من جميع الجهات. ولهذا، فإنني مهجور ومغمّس في النبذ والإغفال. وأراني استهجن ما فحواه أن حضارة ((اقرأ)) لا تقرأ.

وأظنني على حق إذا ما زعمت أن ما كتبته ههنا هو التاريخ، ولكنني صغته بمنهج أدبي بدلاً من المنهج العلمي. وعندي أن الأول أرقى من الثاني بكثير، وذلك لأنه صادر عن الحساسية والتهجس وحرارة الوجدان. وفي مذهبي أن الوجدان أسمى من الذهن لأنه يمثل سريرة الإنسان على الأصالة. فلئن كانت الذائقة قد اختصت بالألطاف الحسنى، أو بكل ما هو منعش ومجدد لنضارة الروح وحيويتها، فإن الوجدان هو الفؤاد الذي يكابد البؤس أو ينفعل انفعالا ايجابيا كلما احتك بالفاجع أو بالمأسوي، بل حتى كلما شاهد الألم وهو يلامس روح الانسان.

ومع أنني صممت هذه السيرة الثلاثية بحيث تكون بمثابة رسالة أرسلها إلى المستقبل البعيد، فقد جاءت انجازاً يعتوره النقص، إذ إن ما غيبته أو تركته طي الكتمان كثير جداً. أجل لقد تعمدت أن اسكت عن الكثير، وذلك لأن البوح محرم أو ممنوع. ولكن تدبيج هذه الرسالة هو عندي واجب إنساني يمليه الضمير، وذلك لأنها جهد يبذل في سبيل صيانة الحقيقة من كل عبث أو تزوير.

ومن المحزن والمؤلم أن تكون حياتي مترعة بهذا الشقاء الفاجع الذي حتمه التاريخ المتجهم الغشوم، مع أنني أريد لها أن تجيء بمثابة أغنية حب أثيري أو شفاف، وأنشودة حنين إلى كل ما هو من مملكة الطيبة والحسن والفتون. لقد أردت أن أطور في ذاتي شعوراً غنائياً واشتياقاً مرهفاً إلى أفراح فردوسية من شأنها أن تجعل التجربة الحية عذوبة وسعادة وهدأة بال. كما أردت أن تكون حياتي ولعاً شفقياً أو قيثارياً يكاد أن يكون متعذر الوجود، لأنه ينتسب إلى إقليم لا يعنو لسلطة الزمن. ولكن هيهات! فالفرق شاسع بين إرادتي وإرادة هذا العالم الشديد الشراسة، والذي أسير فيه كما لو أنني أمخر وحولاً لزجة زلقة.

وإنني، وايم الحق، لست ازدرائياً ولا تنديدياً، أو هجاء، من تلقاء ماهيتي. ولكن طبيعة هذه الحياة التي عشت هي شيء يحتم ذلك قسراً. ولا أبتغي الزوغان عن سمت الحقيقة إذا ما قلت بأنني لم أرد، في أي يوم من الأيام، أن أكون سوى إنسان وأخ للإنسان طافح بالطيبة والبراءة. وهذا يعني أن انكشف بوصفي كائناً لطيفاً أنيساً نيرّاً محباً ومحبوباً في آن معاً. ولكن الرياح تجري بما لا تشتهي السفن. لقد حتم علينا التاريخ أن نكون ساخطين حاقدين، أنا والكثير من أبناء جيلي الذين شردهم الصهاينة بقوة السلاح والمجزرة والعدوان.

ومما قد يكون في الصدق أن هذا التضارب بين الإرادتين هو ما جعلني مضطرباً ومتوتراً وناقماً وازدرائياً إلى حد لا يخفى على قارئ هذا الكتاب. إن بي لهفة تنزع إلى الإحاطة بمساحة الحياة المسرّحة أو اللانهائية. ولكن الحصار الذي حتمه التاريخ وجوره ولا عقلانيته الدائمة التوتر، لم يكتف بأن حال دون المطلوب، بل تعداه إلى تطويقي من جميع الجهات بجفاف ماحل مجدب مسعور، ورابض في المكان لا يريم، حتى كأن العالم مصنوع من الشر وحده.

ولعل في ميسوري أن ألخص ما فعلته ههنا بهذه الكلمات: لقد حاولت أن أصف تصدع الزمان وتهدم البنى التي بناها الإنسان طوال ألوف من السنين الغابرة، إذ صار الرسم والنحت والموسيقى والشعر والمسرح والفلسفة، وكل ما هو رفيع أو جميل، أطلالاً داثرة، بعد ما رعاها الروح بكل حرص وجهد ويقظة طوال آلاف السنين. فلا غلو إذا ما زعمت أن طور الصناعة، الذي افتحل فيه الشر على نحو لم يؤلف من قبل (حربان عالميتان)، هو طور اتضاع الجنس البشري بأسره، وأن ((موت الإله))، الذي أعلنه نيتشه منذ قرن وبعض القرن، هو موت الإنسان حصراً. لقد أهدرت الصناعة جميع الجهود التي بذلها البشر في سبيل الأنسنة منذ فجر المشروع البشري حتى أواسط القرن العشرين على وجه التقريب. وهذا يعني أن الشروط الممهدة للحيونة قد بدأت في الظهور على الأرض.

ومع إيماني الراسخ بأن ما جئت به في هذا السياق هو الحق أو الصواب، فإنني أوصي الجميع وأنصحهم بالتمحيص والتثبت والتفتيش، وذلك

لكي يتبين الرشد من الغي. وأرجو أن يتسامح القارئ مع الأغلاط، وأن ينظر إليها ابتداء من ذلك المبدأ الذي يجعل النية أساس الفعل أو أصل قيمته وأهميته. أما الذين قد تسوّل لهم أنفسهم باستئصاله، كما فعلوا بسواه من كتبي في سالف الأيام، فإنني أنصحهم بالكف عن هذا الإجراء العدواني غير المجدي، لأنه يشينهم دون أن يحقق لهم أيما غرض ذي بال.

* * *

ها إنني الآن أكتب وأنا ألهث، وذلك بسبب اعتلال في قلبي أحدثته تلك الأزمة التي ألمت به للمرة الثانية، صبيحة السادس من تشرين الأول (2006)، وكذلك للمرة الثالثة صبيحة الحادي عشر من كانون الثاني (2007)، أي بعد فاصل زمني لا يزيد عن ثلاثة أشهر إلا قليلا. وبعد هاتين الضربتين الموجعتين اقتنعت بأن أكبر معضلة في الحياة هي كيفية الخروج من الحياة. والمحظوظ هو من يخرج منها بسهولة أو بشيء من اليسر. ثم إن من شأن هذا اللهاث المضني أن يجعل الكتابة صنفاً من أصناف العذاب. ولكنني، مع ذلك أصر على أن أخرج هذا الكتاب إلى حيّز الوجود، على الرغم من قناعتي بأن هذا العالم قد أصيب بالخبال حتى لم يعد في مقدور أي كتاب أن يؤثر عليه ولو قليلاً. ويبدو لي أن ركائز هذا العالم وأسسه قد أصابها زلزال لا يقل شراسة أو قدرة على التدمير عن زلزال تسونامي الذي ضرب آسيا الشرقية منذ بضع سنوات.

ومع ذلك، لا بد من استبقاء الأمل. ولهذا، فإنني أتمنى أن يجئ إلى الدنيا عصر، ولو في المستقبل الشديد القصاء، يتفرد بتكنيس الشرور من الأرض، أو بإرغامها على الضمور والتقلص حتى أضيق مساحة ممكنة، بل إن بي رغبة عارمة في أن تكون حياة الناس دافئة باسمة مفعمة بالهناء والسعادة، أو أقله بغير حسرات أو منغصات من شأنها أن تعطل أو تخلخل نزعة الوجود في صميم الإنسان.

فليتفتح ثراء الروح حراً كالهواء الطلق، وليتفوّر الخصب في كل أرض عذراء على مدى كوكبنا كله، وليطفر الأطفال مرحين في الملاعب والجنائن

وباحات المدارس، ولتكن الحياة كرامة وعزة، إخاء ومحبة، نشوة وغبطة، ثم أمناً ورفاهاً لجميع أمم الدنيا.

أما كلمتي الأخيرة التي أود أن أقولها للجنس البشري بأسره، وأن أقدمها بوصفها الجرعة التي من شأنها أن تعوض عن كل ما هو حميم مفقود، فهي الطيبة التي أراها الاسم الآخر للخير أو للنبل والشرف والكرامة.

أجل، الطيبة، ولا شيء البتة أهم من الطيبة.

مخيم اليرموك،

سنة 2007